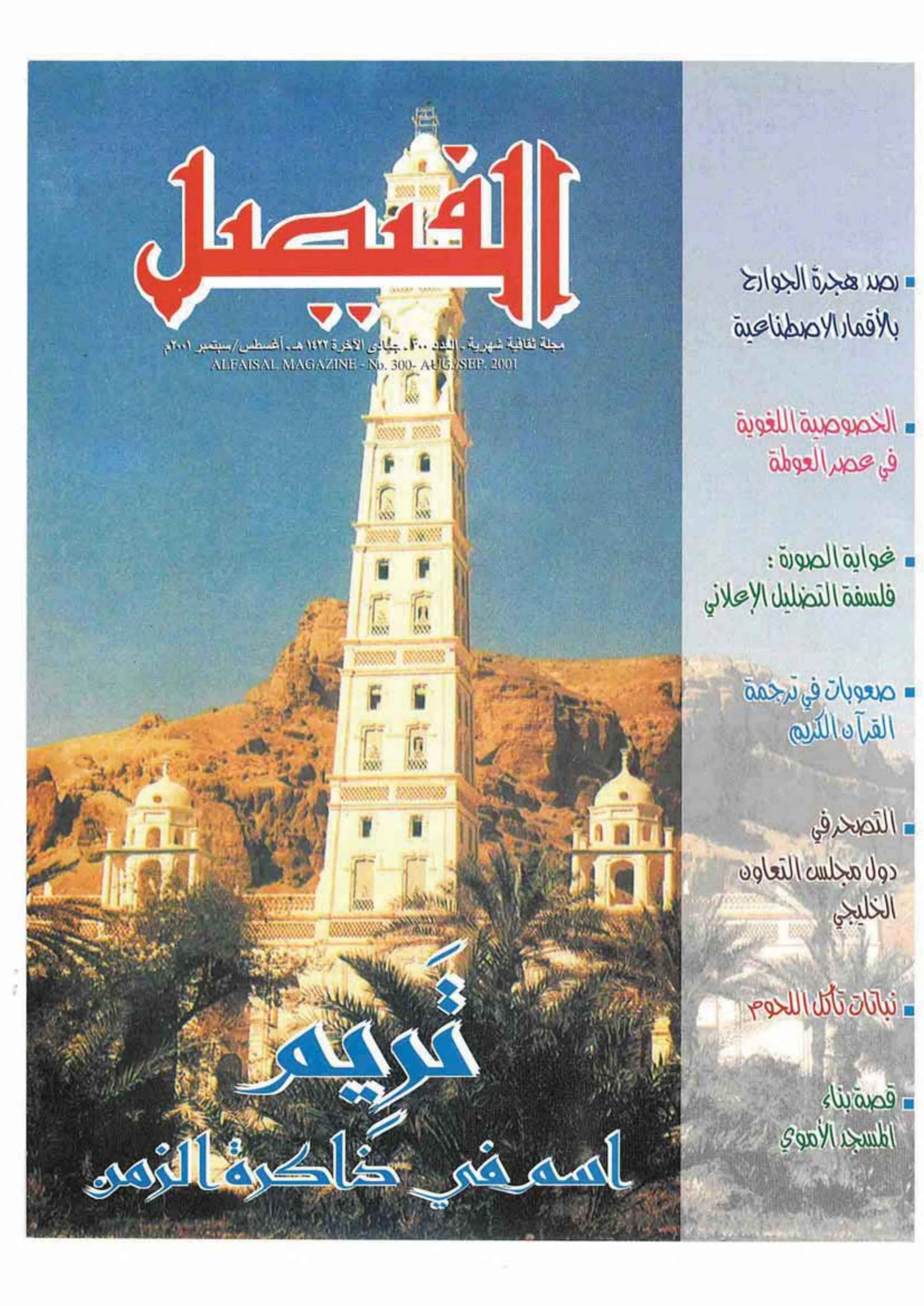

الفيصل
مجلة ثقافية شهرية . العدد ٣٠٠ . جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ . أغسطس/سبتمبر ٢٠٠١م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 300- AUG./SEP. 2001
رصد هجرة الجوارح بالأقمار الاصطناعية
الخصوصية اللغوية في عصر العولمة
غواية الصورة: فلسفة التضليل الإعلاني
صعوبات في ترجمة القرآن الكريم
التصحر في دول مجلس التعاون الخليجي
نباتات تأكل اللحوم
قصة بناء المسجد الأموي
تَرِيم
اسم في ذاكرة الزمن



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

رسائلكم ٤

استطلاع

رصد هجرة الجوارح بالأقمار الاصطناعية — محمد يسلم شبراق ٦

معلوماتية

المعلومات.. ذلك المجهول! — حشمت قاسم ١٦

لغة

الخصوصية اللغوية في عصر العولمة — رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان ٢٥

القواعد المتبعة في علم اللغة لإثبات القرابة بين اللغات — الطاهر محمد داود ٣٠

إعلام

غواية الصورة.. فلسفة التضليل الإعلاني — محمد سيف حيدر النقيد ٣٣

فنون

بينالي الشارقة الدولي للفنون: استقطاب فناني العالم ونقاده — عبدالرحمن السليمان ٤٢

مدن التاريخ

تريم: اسم في ذاكرة الزمن — حداد أبوبكر بلفقيه ٥١

ترجمة

صعوبات في ترجمة القرآن الكريم وأولوياتها — أحمد عبدالرحمن أوكواته تشابا ٦٣

بيئة

التصحر في دول مجلس التعاون الخليجي — عدنان هزاع البياتي ٦٨

نباتات تأكل اللحوم — عبدالرحمن سليمان الحبيب ٧٣

آثار

الأسماك المتحجرة في لبنان بين منقرض ونادر — جوزف باسيل ٨١

عمارة

قصة بناء المسجد الأموي — سعد بشير فنصة ٨٤

قصائد

ديوان من بيرو يتغنى بالأندلس العربية — عبداللطيف عبدالحليم (أبوهمام) ٩١

إلى الأحبة في الخليج — قاسم السامرائي ٩٥

إكرام الضيف — الحطيئة ٩٦

قصص قصيرة

حمائم إيليا: — هانس بيندر — ترجمة: علي عودة ٩٧

ثمار المدينة — عبدالله محمد حسين ١٠٠

أعلام

مهنة الصحافة وشروط الصحفي في نظر الشيخ الطيب العقبي — كمال عجالي ١٠٢

ردود وتعقيبات

تعقيب على مقالة: النقد.. لماذا؟ — يحيى السيد النجار ١٠٨

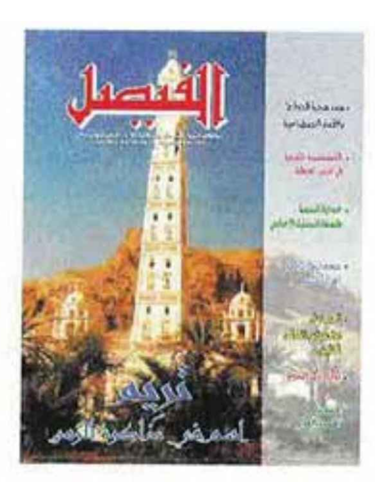
سوء التوافق النفسي ومتعة الإبداع — أنس محمد مرعي جراد ١٠٩

المسابقة ١١١

رحلة في كتاب

جولة مع كتب فقه العمران التراثية المطبوعة — لطف الله قاري ١١٣

الملف الثقافي ١٢١



تريم .. اسم في ذاكرة الزمن

تريم من أشهر مدن حضرموت وأقدمها، فتاريخ نشأتها يرجع إلى ما قبل الميلاد بأربعة قرون، كما اشتهرت بكثرة مساجدها، وروعة قصورها، وغنى مكتباتها بالمخطوطات النادرة، ولكن ماذا عن اسمها الذي ارتبط بالعلم والثقافة والأدب ومراحل تطورها، وأهم رموزها وأعلامها ومعالمها؟ وكيف تبدو تريم اليوم؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ -
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠-٠٢٥٨

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

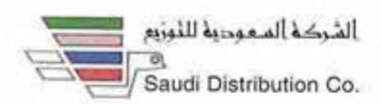
الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢٠٠، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١، ٩٦٣٠٠، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣ نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦٠٠، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤٠٠، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢٠٠، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣٠٠، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١٠٠، الجزائر ـ مؤسسة E.B.D PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣٠٠، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥٠٠، السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٢٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب SOCHPRESS - CASABLANCA - TEL:2400223, Fax:00212-2404041/32 - MOROCO، باكستان PAKISTAN
PARADIS BOOKS & DISTRIBUTORS- KARACHI 75400, TEL:4314981/2 FAX: 0092-21-4554410.
الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٣٢٨



قوة الحجة

إنني من قراء مجلة «الفيصل» منذ أكثر من عشر سنوات، ولعله تحصيل حاصل أن أقول: إنني من المعجبين بها، بل الأجدر بي القول: إنني أقدرها تقديراً يليق بمقام أولئك العظماء من موجهين ومعلمين، ولا أخفيكم القول إني تعلمت الكثير منها والمفيد في شتى مجالات العلم والمعرفة، وتعلمت منها حُسن التعبير وقوة الحجة.

ولكن غاب عني الكثير من الأعداد في العامين ١٩٩٧و١٩٩٩م؛ وذلك بسبب عدم وصولها إلى محافظة صعدة في ذلك الوقت.

كما شدني في العدد الماضي «٢٩٦» موضوع «مير في ذمة التاريخ»، المزود بالصور، وقصة مير منذ ١٥ عاماً إلى أن هوت في مياه المحيط الهادي، فهو موضوع جدير بالاهتمام، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على حسن اختيار مجلتكم الغراء الموضوعات التي لها صلة بالواقع مواكبة للتطور التكنولوجي والتقنيات الحديثة والتي تزود المواطن العربي بالثقافة في هذا المجال وكل المجالات.

ومهما أصف هذه المجلة والقائمين عليها فلن أفي أحداً حقه، ولكن أقول: جزاكم الله خيراً، وأرجو ألاّ تهملوا رسالتي هذه فقد بعثت بالكثير، ولا أدري ما المانع من عدم نشر رسالتي أو الجواب عنها، كما أنني أطمح إلى النشر في هذه المجلة الغراء، فلدي الكثير من الأبحاث التي يمكن أن أشارك فيها، وإن قبلتم أن أكون لكم صديقاً فسأبعثها إليكم للنشر.

حسن ضيف الله يحيى زيد
محافظة صعدة - اليمن
هاتف ٥١٤٨٠٣

التحرير:
نأمل أن نكون عند حسن أمثالك من الإخوة القراء، ويسرنا كثيراً تلقي مشاركات من يستطيع إغناء المجلة بفكره وعلمه، ولابد أن نشير إلى أن هناك ضوابط ومعايير يتم النشر وفقاً لها، وفي هذا الإطار، نرحب بكل الأقلام من شتى أرجاء المعمورة، ولم تصل إلينا رسالة منك من قبل، حتى نهملها، فكل رسائل القراء موضع اهتمامنا، لأنها نبض المجلة، بما تحمله من آراء وأفكار نستعين بها على تلمس سبل التطور.

قارة وقاره

أتشرف بإرسال خطابي هذا لسيادتكم وفيه أوضح ملاحظة على أسئلة مسابقة الفيصل (٢٩٧) ربيع الأول ١٤٢٢هـ/مايو - يونيو ٢٠٠١م.

فقد جاء السؤال الخامس على هذا النحو:

قاره:

- قلعة شهيرة بناها البرتغاليون بالقرب من القطيف في المملكة العربية السعودية.

- جبل شهير في الأحساء في المملكة العربية السعودية.

فبالبحث عن الإجابة وجدت الآتي:

١- قارة: موضع لعدة أشياء.

المصدر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - الوزير الفقيه: أبو عبيد، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي - ج٣ - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط١ - ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م - صفحة ١٠٤٠ حرف (ق).

٢- قارة: قرية في سوريا (النبك). كانت محطة للحجاج. أنقاض خان بُني بين ١٣٨٠ و١٤٠١هـ. كنيسة للسيدة. مخطوطات مسيحية قديمة.

المصدر: المنجد في اللغة والأدب والعلوم - لويس معلوف - ١٩٢٧م - المطبعة الكاثوليكية - بيروت - صفحة ٤٠٢.

٣- قارة: قسم من الأقسام الرئيسة التي تنقسم إليها اليابسة.

المصدر: المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية - صفحة ٤٩٦.

٤- قارة: جبل بالقرب من إحدى قرى واحة الأحساء.

المصدر: مجلة الفيصل العدد (٢٦٨) - صفحة (٨٠).

ونلاحظ أن الكلمة في كل المصادر تنتهي بالتاء وليس بالهاء.

مما سبق يتضح أن هناك خطأ مطبعياً في السؤال في كلمة (قاره) والصح (قارة).

وما سبق هو رؤيتي الخاصة، والأمر مفوض لسيادتكم، وتفضلوا بقبول وافر الشكر وعظيم التقدير لسيادتكم ولجميع الإخوة الأفاضل أعضاء أسرة التحرير الموقرة، متمنياً لكم الصحة والعافية والتوفيق في مسيرتكم الثقافية المباركة.

صموئيل توفيق فرج الله
قنا - مصر

التحرير:
نشكر لك رسالتك القيمة ومتابعتك لمسابقة الفيصل ونقول:

إن ما ذكرته في رسالتك عن قارة صحيح، وهي قارة بالتاء، وليست بالهاء، ونأسف لهذا الخطأ الطباعي، ولكن يبدو الأمر واضحاً للقارئ فإن الإجابة هي جبل في الأحساء.

المسابقة في أبيات

مـجلة فـيـصلِ فـيـهـا نوالُ — لمن بالحظ يُسعفه دلالُ

لدى آل الرياض بربع نجد — بلام تسبقُ التشديد دالُ

كتابٌ من هُدى خورخي لويس — لأرجنتين يوصله خيالُ

وميثاقٌ يزاول من جنيف — بعهد حلّ فيتنام الوبالُ

وزيليم النبات جزيء ساق — كما في معجم التأويل قالوا..

وباشتو لهجة الأعجام عرفا — وللأفغان عمٌ ثم خالُ

بلوخستان تنطقها كثيراً — وباكستان هل فيها مجالُ

لفهم اللهجة المُضنى بنطق؟ — بدت فيها أهازيجٌ طوالُ

فهل هي من بقايا الأوردو فيهم — مع الباشتو يباريها جدال؟

وأما قائل الشعر الجميل — به صفحٌ وفي صبر منالُ

من الخِلّ الحميم ذوي السماح — إليك بدا (أخي) مني سؤالُ

ترى من قال هذا البيت شعراً؟ — فهل معنُ بنُ أوسٍ أم جمالُ

مقنّع وجهه بين العذارى؟ — هو ابن الأوس يبكيه النوالُ

مصطفى حسن المصطفى
مفتي منطقة اعزاز
ص.ب: ١١١٧٤
حي الحيدرية - حلب - سورية.

التحرير:
هذه أبيات شعر من الأخ مصطفى تعليقاً على مسابقة العدد (٢٩٦)، وهي تعبر عن صاحبها الذي تمتع بملكة أدبية إبداعية واضحة، والعجيب أن الرجل اكتفى بالأبيات، بينما أرسل ابنه (عبدالباسط) الحلول.

ردود سريعة

الأخت سعاد أرغي - الدار البيضاء - المغرب:

نتمنى لك التوفيق في دراستك الجامعية، ونعتذر لك بأننا لا نستطيع تلبية ما تطلبين لأنه خارج اختصاص المجلة، وهناك جهات أخرى كثيرة معنية بهذا الأمر، فليتك تخاطبينها، شاكرين لثقتك بمجلتك.

الإخوة زبير توفيق جبر - بورسودان - السودان، سمير صابر - القاهرة - مصر، سعيد علي بن علي إدريس - عدن - اليمن:

لا يشترط في المسابقة ملء الخانات الخاصة بالناسوخ، لأن الأهم أن يكون عنوان المراسلة واضحاً ومعروفاً، ولا يخفى عليكم أن هناك مناطق تستعيض عن صندوق البريد والرمز البريدي بعناوين الشوارع وأرقام المنازل، والمعالم البارزة، وبالطبع القارئ أعلم بالعنوان الذي يتعامل به.

الأخت ح.أ.ع:

نشكر لك رسالتك الرقيقة وما فيها من مشاعر تجاه الفيصل، ونود إخبارك أن الشعر علم له أصوله وضوابطه، وينبغي عليك أن تدرسي علم العروض، وأن تقرئي كثيراً من الأشعار العربية، وتحفظي قسماً منها، حتى تصقلي موهبتك وتصبحي شاعرة إن شاء الله ولا تتسرعي في النشر فالمستقبل أمامك.

الإخوة كتاب الفيصل:

أي مادة ترسل إلى (الفيصل) فهي خاصة بها، ولا يجوز إرسالها إلى أي جهة أخرى إلا إذا اعتذرت (الفيصل) عن نشرها، أو أبلغ كاتب المادة (الفيصل) برغبته في نشرها في مكان آخر، ووصل إليه ما يفيد علم (الفيصل) بهذه الرغبة. وأي كاتب يرسل مادة إلى (الفيصل) وإلى جهة أخرى في الوقت نفسه لن تنشر له (الفيصل) أي مادة في المستقبل.

رصد هجرة الجوارح بالأقمار الاصطناعية

محمد يسلم شبراق
الطائف - السعودية

هجرة الطيور مصطلح يطلق على حركة الطيور الموسمية بين مناطق تعشيشها والمناطق البعيدة عن أعشاشها، وقد حاول الإنسان منذ القدم تفسير هذه الظاهرة وتعرف اتجاهات هذه الطيور المهاجرة والطرق التي تسلكها خلال هجرتها. وقد دون أرسطو في كتابه «تاريخ الحيوان» المعلومات الأولى عن الهجرة، تضمنت أسماء الطيور المهاجرة وأوقات وصولها ومغادرتها لليونان قبل ٢٠٠٠سنة.



وذكر الجاحظ في كتابه «الحيوان» عن هجرة الأسماك والطيور، فأشار إلى أن القواطع من الطير قد تأتينا إلى العراق جماعات كثيرة تقطع إلينا ثم تعود في وقتها. وقد زادت الملاحظات المسجلة عن الهجرة بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، بإنشاء أول محطة لرصد الطيور المهاجرة في الجزيرة الألمانية «هيلجولاند» بواسطة هيرنش جاتيك، الذي يعدّ عمله أول دراسة علمية لهجرة الطيور عن طريق العد اليومي للطيور، وهي أول دراسة علمية لهجرة الطيور في أوروبا. بعد ذلك قام العالم الدانماركي مورتنسين في عام ١٨٩٩م بإدخال نظام التحجيل على مستوى أكبر، وهذه الطريقة



متابعة الجوارح مكلفة جداً

تتم بإمساك الطيور ووضع حلقات معدنية في أرجلها، ثم إطلاقها مرة أخرى.

وتشير الدراسات الأولية لهجرة الطيور إلى أن هذه الهجرة مرتبطة بالتغيرات المناخية، فهي تنتقل من الأماكن الباردة إلى المناطق الدافئة. وهناك نظرية أخرى تقول: إن هجرة الطيور لإفريقية هي عودتها لموطنها الأصلي، فالمناطق الجيدة لمعيشة الطيور وتكاثرها كانت تتمركز خلال العصر الجليدي في منطقة خط الاستواء خاصة بإفريقية، بينما كانت معظم المناطق الشمالية والجنوبية تقبع تحت الجليد؛ وهذا يفسر هجرة الطيور إلى القارة السوداء في فترة الشتاء وعودتها إلى موطنها الأصلي.

الطيور المهاجرة في المملكة

ومن بين الأربعة والأربعين نوعًا من الجوارح التي سجلت بالمملكة العربية السعودية فإن هناك ٣٢ نوعًا تعدّ طيورًا مهاجرة، تأتي إليها مع بداية شهر سبتمبر/أيلول وتصل إلى ذروتها في شهر أكتوبر/تشرين الأول، ومنها ما تأتي لتقضي فترة الشتاء في ربوع المملكة، ومنها ما تمر عابرة لتصل إلى القارة السوداء عن طريق باب المندب. وإن كان بعضها، خاصة ذات الأجنحة الصغيرة، مثل بعض أنواع الصقور المميزة بقوة أجنحتها، والتي تمكنها من الطيران فوق البحر وعبور مسافات كبيرة من دون توقف، مما يجعلها قادرة على قطع البحر الأحمر دون توقف. أما

الجوارح الكبيرة كالعقبان والنسور التي تعتمد في طيرانها على التحليق بواسطة تيارات الحمل الساخنة المنعدمة فوق البحار فهي تطير حتى تصل إلى منطقة باب المندب باليمن لترتفع إلى مسافات عالية قبل أن تقطع البحر لتصل إلى إفريقية بالضفة الأخرى من اليابسة.

ولمتابعة هجرة الجوارح في المملكة قامت الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها باستعمال عدة طرائق، منها استخدام العداد المباشر بمناطق معينة، ومنها تحجيل أرجل الطيور بحلقات معدنية مكتوب عليها أرقام محددة وعنوان الهيئة، وأخيراً استخدام أجهزة المتابعة بالأقمار الاصطناعية. وهذه الأخيرة أعطت معلومات قيمة عن هجرة الطيور الجوارح، والمناطق التي تنتقل فيها، والارتفاعات التي تصل إليها. ونتابع في هذه المقالة هجرة الجوارح بواسطة الأقمار الاصطناعية في المملكة العربية السعودية.

النسر الوردي يحمل على ظهره جهاز متابعة بواسطة الأقمار الاصطناعية، وعلى جناحه جهاز متابعة يدوي

لماذا الجوارح؟

قد يتبادر إلى ذهن القارئ لماذا تركزت الدراسات في الطيور الجوارح؟ ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بأن الطيور الجوارح مهمة جداً في النظام البيئي، وإن كان هذا ليس هو السبب الرئيس، ولكن أجهزة الإرسال المستخدمة في الوقت الحالي كبيرة الحجم بعض الشيء لتحملها هذه الطيور، فالطيور عادة يمكنها حمل من ١ - ٣٪ من أوزانها، أما إذا زادت هذه النسبة فإن هذا سوف يؤثر في طيرانها، وبذلك يمكن أن يؤثر في

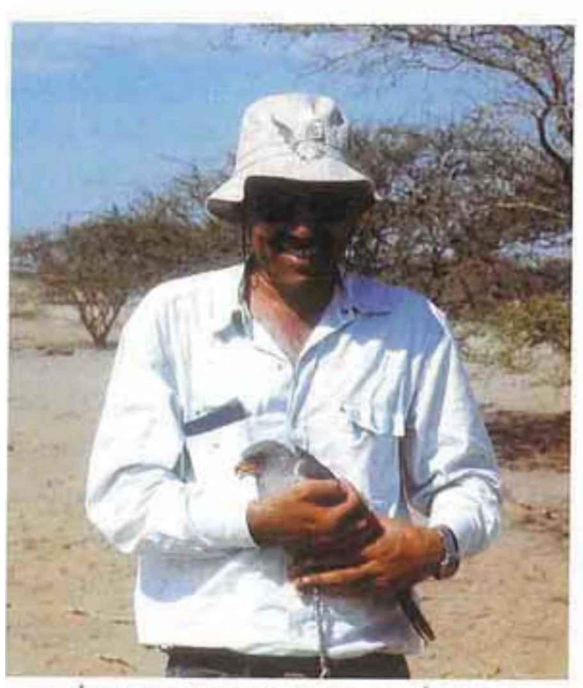


عقاب السهول لحظة إعادته إلى البرية حاملاً جهاز المتابعة بواسطة الأقمار الاصطناعية

النتائج، وربما في الطائر نفسه، إذ يصعب عليه التحليق والبحث عن غذائه، وهذا يفقده كمية كبيرة من الطاقة التي يحتاج إليها خلال هجرته، كما أن هذه التقنية باهظة الثمن لذا فإن استخدامها يجب أن يتم بعد دراسة مستفيضة لضرورتها. وقد تطورت هذه الأجهزة خلال السنوات الماضية لتقليل أوزانها ليصل وزن آخر جهاز موجود في السوق الآن، وهو ياباني الصنع إلى نحو ١٥ جراماً، وهو ما زال في طور التجريب الآن على أحد الطيور الجوارح الصغيرة في إحدى الجزر التابعة لتايوان.

ولمعرفة عمل هذه الأجهزة فإن أجهزة الإرسال التي تثبت على الطائر ترسل إشارات إلى القمر الاصطناعي، ويقوم القمر باستقبال هذه الإشارات وتحديد مواقعها مشابهاً بذلك أجهزة تحديد المواقع التي تسمى «الجي بي إس»، وهي كلمة مختصرة لنظام تحديد المواقع الذي يسمى باللغة الإنجليزية Global Positioning System، بعد ذلك تقوم الأقمار الاصطناعية بإرسال إشارات إلى المحطات الأرضية المنتشرة حول العالم لتقوم بدورها بإرسالها إلى المحطة الرئيسة بمدينة تيلوز بفرنسا، التي تقوم بتحليل هذه الإشارات وإرسالها إلى المستفيد من هذه الدراسة؛ وذلك لقاء مبلغ يصل إلى ٩٥ فرنكاً فرنسياً «٤٨.٣٠ ريالاً سعودياً» لكل إرسالية. ومن المعلومات الأخرى التي يمكن الحصول عليها بواسطة هذه الأجهزة الارتفاعات عن سطح البحر، والوقت حسب توقيت جرينتش ودرجات الحرارة للجو، وكذلك نشاطها، وإن كان الأخير لم يتطور بالشكل المطلوب بعد.

ومن أكبر المشكلات التي يواجهها المستخدمون لهذه التقنية هي كيفية تثبيت الجهاز على الطيور. والطريقة الحالية المستخدمة هي التثبيت بواسطة شريط من مادة التفلون على ظهر الطائر، مثل الحقائب المحملة على الظهر، كما أن تكلفة الجهاز



الدكتور أسد رحماني يحمل طائر الباشق الحزين بعد أن اشتراه ليعيده إلى البرية مرة أخرى

ومتابعة الإشارات بالأقمار الاصطناعية تكلفان مبلغاً لا بأس به، فسعر جهاز الإرسال الذي يوضع على الطائر يراوح بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ دولار أمريكي «٩٣٧٥ - ١١٢٥٠ ريالاً سعودياً». ومن أشهر الشركات المصنعة لهذه الأجهزة شركة «مايكرويف» الأمريكية، أما فيما يتعلق بخدمة القمر الاصطناعي فيراوح سعرها بين ٩٠ و١٢٠ فرنكاً فرنسياً «٤٦ و٦١ ريالاً سعودياً». لذا يقوم الدارس بتحديد الأوقات التي يحتاج فيها إلى الجهاز، فمعرفة أين تقضي طيور معينة فصل الشتاء تختلف عن دراسة مسارات الهجرة، كذلك تختلف عن الدراسات المتعلقة بمتابعة الطيور الجوالة، مثل طيور البحر التي تقضي معظم فترات حياتها طائرة فوق البحار.

وبتحديد هذه الأوقات تتم برمجة الأجهزة بحيث تبث إرسالاتها للأقمار الاصطناعية بأوقات محددة منها ما يكون به «بطارية» تعمل مدة ثلاثة أشهر بحيث ترسل إرسالات كل يومين

بواقع ستة إرسالات يوميًا وهذا مهم لمعرفة مسارات الهجرة وكذلك التعرف: أين تقضي هذه الطيور فصل الشتاء؟ ومنها ما يعمل كل أسبوع مرة، وهذا مهم لتتبع الطيور البحرية بعد موسم التكاثر لتعرف المناطق التي ترتادها.

هجرة النسر الوردي

ومن خلال هذه العجالة سوف أحلق مع نتائج الدراسات التي قامت بها الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها لتعرف تحركات النسور الوردية التي تتكاثر في المملكة، وهجرة العقبان وصقور الشاهين خلال عبورها أراضي المملكة. وسوف أبدأ بالدراسة الخاصة بتحركات النسر الوردي، أو ما يعرف باسم نسر الأوذون، والتي قمت بإعدادها على أنها جزء من دراستي العليا للحصول على درجة الدكتوراه، والتي كان من أهدافها تعرف الأسباب التي تؤدي إلى تدهور أعداد هذا النوع من الطيور في المملكة، إذ شملت الدراسة العوامل نفسها المعروفة بأنها تؤثر في الطيور الجوارح بصفة عامة، كتوافر الغذاء والتنافس عليه مع الرميّات الأخرى، والتكاثر وتربية الصغار، وأخيرًا تحركات هذه الطيور بين مناطق التغذية والتعشيش.

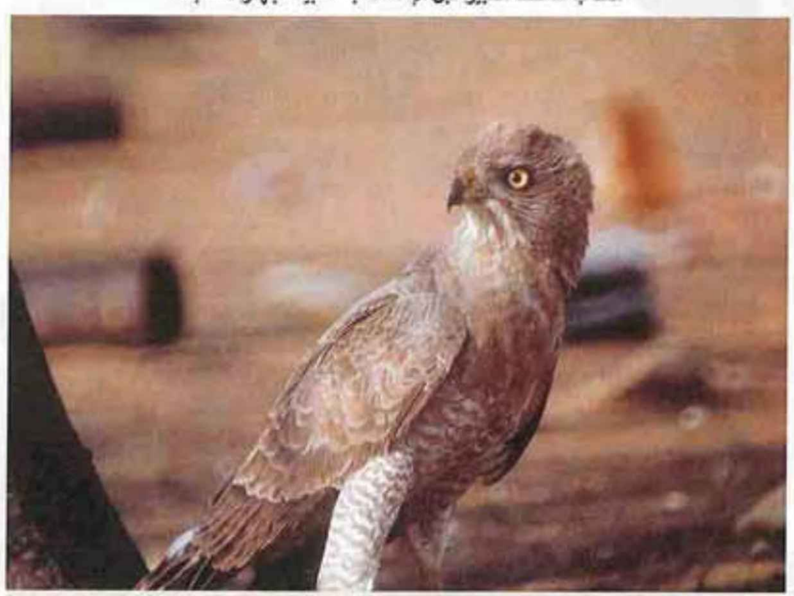
وقد تم استخدام هذه التقنية على النسر الوردي لصعوبة متابعة هذه الطيور فهي تتحرك لمسافات بعيدة، فقد سجّل أحد الصغار التي تم تحجيلها في محمية محازة الصيد، والتي تقع على بعد ١٧٠ كم شرق الطائف على طريق الطائف - الرياض السريع - وهي ثاني أكبر محمية مسيجة في العالم، وتبلغ مساحتها نحو ٢٢٤٤كم٢ - في منطقة عرفات بمكة المكرمة، وذلك على بعد ٢٥٠ كم من موقع العش. كما أن هذه الطيور معروفة بتحركاتها الطويلة فقد أشارت إحدى الدراسات في إفريقية إلى أن أحد صغار هذا النوع من النسور سجّل خلال السنة الأولى من عمره على بعد ٧٠٠كم من العش. لذا فإن حماية هذا الطائر تتطلب متابعة دقيقة له وهذا لم يكن ممكنًا إلا باستخدام أجهزة المتابعة عن طريق الأقمار الاصطناعية، وقد تمكنت من وضع جهازي متابعة على اثنين من النسور الوردية في محمية محازة الصيد.

ويصل وزن جهاز الإرسال نحو ٩٥ جرامًا تم تثبيته على ظهر الطائر بشريط من التفلون في أوائل عام ١٩٩٥م، وهذا الوزن لا يؤثر في الطائر بأي شكل؛ لأن وزن النسر الوردي يصل من ٦ - ٩كجم، ووزن الجهاز يمثل ١ - ٢٪ من وزن هذه الطيور. ويعد تحليل القراءات المرسلة ورصدها على الخريطة تم تعرف



الصقر الحر أحد أهم الطيور المفضلة من قبل الصقارين بالمملكة العربية السعودية

العقاب المنقط الكبير قبل الإمساك به لتثبيت جهاز المتابعة



عقاب الثعابين الذي تناقص بشكل كبير بسبب استهدافه من قبل الجاهلين بالصقارة

حركتين لهذين الطائرين، فقد تحرك الأول خارج المحمية بعد إطلاقه، ولم يعد إلى المحمية بعدها حتى انتهى الإرسال في أواخر سبتمبر/أيلول عام ١٩٩٥م وقد كانت تحركاته عشوائية، وذلك في جميع الاتجاهات، أما الثاني فقد انتقل إلى، منطقة بين تبوك وتيماء وبقي هناك شهرين قبل أن ينقطع الإرسال ليعود مرة أخرى في نهاية العام، ولكن غير متوقع هذه المرة أن يصل إلى منطقة على الحدود بين المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية، وهي منطقة محمية تسمى محمية الخنفة، وهي تبعد نحو ٩٠٠كم من موقع وضع الجهاز له. وما يجمع بين حركتي النسرين هو أنهما غادرا المحمية بعد أن تم وضع الجهاز عليهما، وأخذا يتنقلان بين مناطق معروفة بوجود أعشاش لهذه الطيور نفسها قبل أن يعودا إلى محمية محازة الصيد في شهر سبتمبر/أيلول من العام نفسه. ومن بين مناطق تعشيشها، والتي وصلت إليها هذه الطيور أربع مناطق محمية تابعة للهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وهي: محمية الخنفة في الشمال، ومحمية مجامع الهضب بالقرب من مدينة رنية، ومحمية عروق بني معارض على الطرف الشمالي الغربي من الربع الخالي، وأخيراً محمية محازة الصيد.

وهذه النتائج مهمة جداً لعمل إستراتيجية لحماية هذا النوع في المملكة، فهذه المحميات تعطي هذه الطيور أماكن آمنة للتعشيش، لتنتج أجيالا تؤدي دورها في النظام البيئي في المناطق الصحراوية من المملكة. وقد سجل وجودها على ارتفاعات تصل إلى ٨٥٠٠ قدم، وهي - بالطبع - ارتفاعات منخفضة موازنة بأبناء عمومتها بإفريقية، والتي سجلت على ارتفاع ٣٧٠٠٠ قدم. ومعلوم أن أعلى ارتفاع لطائر سجل على ارتفاع ٥٤٠٠٠ قدم، وإن كنت شخصياً لا أعتقد أن هناك طيوراً تطير على هذه الارتفاعات؛ لأن درجات الحرارة في هذه الارتفاعات تصل نحو

٤٥ درجة مئوية تحت الصفر، وحركة هذه الطيور وارتطامها بالرياح الباردة في هذه الطبقات فضلاً عن قلة الأكسجين الذي يحتاج إليه الطائر خلال طيرانه تقلل من إمكانية تحمل هذه الطيور لهذه الارتفاعات، وقد أكدت ذلك نتائج الدراسات بمتابعة الطيور بالأقمار الاصطناعية، إذ لم يتجاوز أعلى ارتفاع للطيران سُجل ١٢٠٠٠ قدم.

عقاب السهول يحمل جهاز متابعة بواسطة الأقمار الاصطناعية



العوسق معروض للبيع في أحد أسواق تهامة

هجرة العقبان

أما بالنسبة إلى دراسة العقبان فقد تمت هذه الدراسة بالتعاون مع الدكتور ملبيرج الألماني الجنسية، ورئيس مجموعة دارسي الطيور الجوارح في المنظمة العالمية لصون الطبيعة، إذ تم وضع أجهزة متابعة على ثلاثة أنواع من العقبان هي: عقاب السهول Steppe Eagle، والعقاب الملكي Imperial Eagle، وأخيرًا العقاب المنقط الكبير Great Spotted Eagle.

وبالنسبة إلى عقاب السهول؛ بلغ عدد الطيور التي ثبتت عليها أجهزة المتابعة أربعة عشر طائرًا منها جهاز أسترجع من أحد الصيادين في منطقة القصيم بعد أن أطلق النار على الطائر دون أي سبب، أما الطيور الباقية فقد أعطتنا معلومات مهمة لهجرة هذا النوع من العقبان. فقد تحركت ستة من العقبان التي عليها الأجهزة إلى جنوب غرب المملكة لتصل إلى اليمن، ومنها عبرت إلى القارة الإفريقية عن طريق باب المندب فاتجه بعضها إلى السودان، وبعضها إلى الصومال وأثيوبيا، فبقيت هناك حتى نهاية الشتاء، لتبدأ رحلة عودتها إلى مناطق تعشيشها في أوزباكستان وكازاخستان، ولكن ليس عن طريق عودتها إلى الجزيرة العربية، بل الذهاب شمالاً لتمر بصحراء سيناء ومنها شمال شرق إلى مناطق تعشيشها لتقطع نحو ٥٠٠٠ كم خلال هذه الهجرة.

أما الطيور الباقية فقد بقيت داخل المملكة خلال فترة الشتاء لتبدأ رحلة عودتها إلى مناطق تعشيشها بالشمال. والجميل في هذه الدراسة


عقاب السهول.. مناطق تعشيشه في أوزباكستان وكازاخستان

هو أن أحد هذه الطيور اتجه إلى الشرق ليصل إلى الصين، والتي تمثل مناطق لتعشيشه، وهذا - بالطبع - يشير إلى أن هناك طيوراً تهاجر من الشرق إلى الغرب، وليس من الشمال إلى الجنوب والعودة. وهذا النوع من الهجرة لوحظ أيضاً في طيور الحبارى التي تعشش في الصين، وتأتي إلى الجزيرة العربية خلال فصل الشتاء.

أما العقاب الملكي والعقاب المنقط الكبير فقد أشارت النتائج إلى أنهما أمضيا الشتاء في المملكة العربية السعودية، ولم ينتقلا إلى إفريقية، والجميل في هذه الدراسة أن العقاب الملكي الذي وضع عليه الجهاز عام ١٩٩٣م بالقرب من مركز أبحاث الحياة الفطرية بالطائف التابع للهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها، قد تم إمساكه عدة مرات في المكان نفسه خلال السنوات الثلاث التالية. كما أن عقاباً ملكياً آخر قد وضع عليه حلقات معدنية قبل ثلاث سنوات بالقرب من مركز أبحاث الحياة الفطرية بالطائف كان يمسك سنوياً في الموقع نفسه خلال السنوات الماضية قبل أن يوضع عليه جهاز متابعة خلال هجرته هذا العام ٢٠٠١م وقد تم تعرف مناطق تكاثره، وهي تقع بالجزء الأوربي من روسيا بين مدينة أوفا وبيرم وكيروف وكازان.

أما بالنسبة إلى صقر الشاهين فقد تم وضع ثلاثة أجهزة على ثلاثة طيور بالغة فقام اثنان منها بقطع البحر إلى جنوب السودان ليقضيا الشتاء هناك، أما الثالث فقد قطع البحر ليصل إلى إفريقية، واتجه جنوباً ليصل إلى جنوب إفريقية قاطعاً ٥٠٠٠كم قبل أن ينقطع الإرسال، ويفقد أثره.

معاناة الطيور المهاجرة

وبعد تناول نتائج الدراسات يمكن الإشارة إلى ما تعانيه هذه الطيور من الإنسان خلال هذه الهجرة:

- **حبس الصقور بعد موسم الصيد:** في الماضي كانت الصقور تطلق لتعود إلى مناطق تعشيشها في الشمال بعد موسم الصيد؛ لعدم وجود أماكن جيدة للمحافظة عليها، وكانت هذه الطيور تعود إلى مناطق تعشيشها لتتكاثر وتعطي أجيالاً أخرى لتعود مع صغارها لتهاجر وتصل إلينا مرة أخرى، وقد حدثني أحد الصقارين المعروفين أنه أمسك الصقر نفسه الذي أمسكه في السنة الماضية. أما الآن فالصقور تبقى في غرف تحت مكيفات الهواء البارد لتبقى إلى موسم الصيد التالي، وقد تصل المدة التي تمكثها الطيور في هذه الغرف إلى ثمانية أشهر، وهذا ليس مجدياً حتى من الناحية الاقتصادية فضلاً عن

الأمراض التي تصيب الصقور بسبب تغذيتها

بالحمام، وينتج من ذلك أيضاً تغير لون ريشها الجميل إلى لون أبيض. وأود أن أشيد هنا بما قام به صاحب السمو الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ـ المعروف بدعمه لرياضة القنص بوصفها جزءاً من تراث عربي أصيل ـ من إطلاقه مجموعة من الصقور بعد موسم القنص وتشجيعه دراسة هجرة هذه الطيور، فقد قام بوضع أجهزة متابعة عن طريق الأقمار الاصطناعية لمعرفة خطوط هجرتها، وهذا ما يستحق الاقتداء.



عقاب السهول قبل إعادته للبرية

- **جلب الصقور من مناطق تعشيشها:** وهذه في الحقيقة من أكبر المشكلات التي تواجه هذه الرياضة العربية الأصيلة، إذ يقوم بعض الصيادين بالذهاب إلى مناطق تعشيش الصقور بكازاخستان وأوزباكستان ومنغوليا لجلب طيور حسب المواصفات المطلوبة يعتمدون فيها على السكان المحليين، وكذلك على أنفسهم لأخذ هذه الطيور من أعشاشها، وهذا أثّر بشكل كبير في انخفاض أعداد الطيور التي تأتي إلى المملكة خلال الهجرة؛ لأن الصيادين يقومون بأخذ جميع ما في العش من فراخ وبيض وعادة ما يدفع مبلغ معين للسكان المحليين ليقوموا بذلك، وأغلبها يموت عند السماسرة، فلا يصل إلى



العقاب الملكي يقضي الشتاء في السعودية



الحبارى هي من الطيور المستهدفة لمحبي الصيد بالصقور

المملكة سوى القليل جداً، ولربما لو تركت في أعشاشها لتمكنت من العيش واتباع طريقة أسلافها لتهاجر وتصل إلى المملكة.

كما أود أن أشير أيضاً إلى أن هذا النوع من الطيور من الأنواع المهددة بالانقراض عالمياً، ويجب حمايته. والمملكة موقعة على معاهدة دولية تسمى معاهدة «سايتس»، وهي معاهدة تعمل على حظر التجارة بالكائنات المهددة بالانقراض. ومن خلال هذه المعاهدة، فإن الصقور مصنفة في الملحق الأول لهذه المعاهدة، والذي يمنع التجارة بها وخاصة الأنواع البرية. ودخول هذه الطيور البرية يسبب إحراجاً كبيراً للهيئة التي تمثل المملكة بوصفها سلطة تنفيذية لمتابعة تطبيق هذه المعاهدة داخل المملكة مما يعطي فرصة للحاقدين والحاسدين لهذه البلاد للنيل من سمعتها في حماية هذه الأنواع المهددة بالانقراض، وربما أنواع أخرى بذلت فيها الدولة مبالغ طائلة لحمايتها.

ـ كثرة الجاهلين بالصقارة والعاملين بها:

هناك الكثيرون ممن يعملون في الصقارة جذبتهم المادة، وهمهم الأول العائد الذي يجنونه إذا أمسكوا صقراً وباعوه «بالشيء الفلاني». والكثير منهم يمسك أي نوع، وبأي وسيلة، فنراهم في الأسواق، ومعهم جوارح أخرى، مثل الحدآت والعواسق، ومنهم من لا يعرف الفرق بين العقاب والنسر. أما الصقارون الحقيقيون فهم معروفون ورثوا الصقارة عن آبائهم وأجدادهم، ويميزون بين أنواع الصقور وأعمارها، ويعرفون كيف يحافظون عليها، وكيف يدربونها ويعتنون بها. وأختم هذه المقالة بإيراد مثل شعبي يصف هؤلاء الجاهلين بالصقارة إذ يقول المثل: «اللي ما يعرف الصقر يشويه».

المعلومات ذلك المجهول!

حشمت قاسم
الرياض - السعودية

قد يبدو في عنوان هذه المقالة شيء من التناقض؛ لأن المعلوم والمجهول طرفان متقابلان لطيف دلالي واحد، فالمعلوم عكس المجهول. إلا أن من الممكن لهذا التناقض أن يكون حقيقة فعلاً إذا كنا نتعامل مع المعنى اللغوي العام لكلمة «المعلومات»، فقد وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن الكريم صفة لمواقيت الحج(١). ولكننا نتعامل مع هذه الكلمة، في هذا السياق، بمعناها الاصطلاحي الذي لا يدل على ما هو معلوم فعلا، وإنما يدل على ظاهرة أساسية، وهي ظاهرة المعلومات، التي تحظى بالاهتمام من جانب فئات متعددة من المتخصصين، ليس في مقدمتهم من يسمون الآن باختصاصيي المعلومات، فقد سبقهم في الاهتمام بها متخصصون في مجالات علمية ومهنية أخرى. وتشكل هذه الظاهرة مجالا لاهتمام علم حديث نسبيًا، شب عن الطوق، وأصبح قادرًا على الطيران بجناحين، وهو علم المعلومات.

وفضلاً عن الاهتمام التخصصي أو المهني بالمعلومات، تحظى المعلومات بالاهتمام، بشكل أو بآخر، من جانب الكافة؛ فكلنا يتعامل مع المعلومات، إنتاجًا وتنظيمًا واستثمارًا، ولكن على درجات متفاوتة. ولكل منا نظامه الخاص بتجهيز المعلومات، وكلنا مشارك في مجتمع المعلومات، واختلفت حدود هذه المشاركة وتباينت أشكالها. وللمعلومات دور لا غنى عنه في حياتنا؛ فنحن - ببساطة - نعيش بالمعلومات كما نعيش بالماء والهواء والغذاء.

فحياتنا سلسلة متصلة من القرارات، ومن بين هذه القرارات ما نحسمه دون أن ندري، ومنها ما يستنفد منا قدراً قلّ أو كثر من الوقت والجهد، والمعلومات هي العامل الأساسي في جميع الحالات. ولا تقتصر المعلومات علينا نحن البشر، وإنما تشكل عاملا أساسيا بالنسبة إلى المخلوقات الأخرى، مما يضاعف من الصعوبات التي يواجهها المهتمون بدراسة المعلومات بوصفها ظاهرة.

والمعلومات ليست اختراعاً عصرياً كما يتصور بعض الناس، وهي بالنسبة إلى المهتمين بدراستها ليست بالظاهرة البسيطة؛ فلا يعرف هؤلاء عن هذه الظاهرة سوى النزر اليسير، فهي ظاهرة مراوغة، متعددة الصور والأبعاد، صعبة المراس، لا نستطيع إدراك كنهها على وجه اليقين، وإنما يمكننا التحقق من وجودها عن طريق ما تحدثه من أثر، شأنها في ذلك شأن الكهرباء(٢). وليس أدل على صعوبة هذه الظاهرة نتيجة

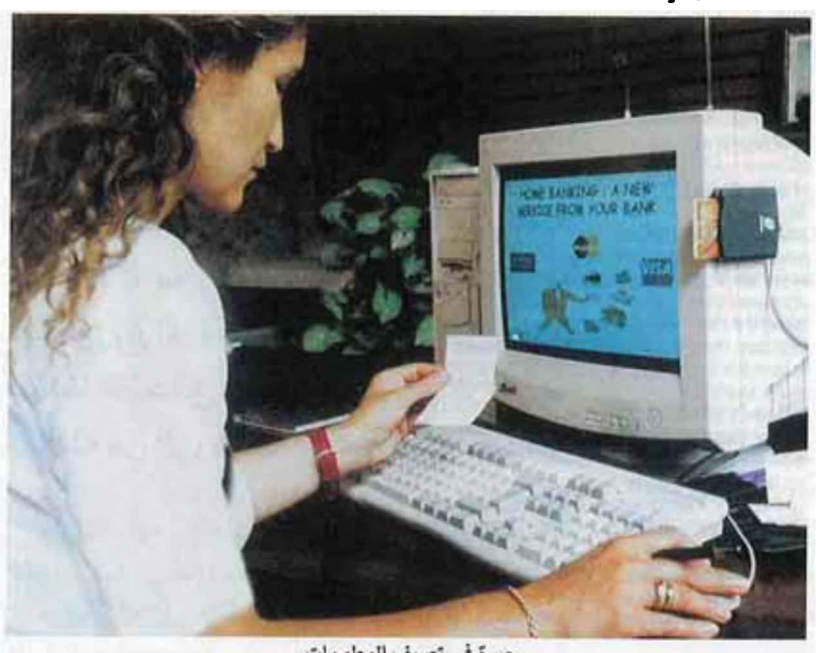
لتعدد أبعادها مما ذهب إليه أحد المتخصصين في علم المعلومات، من القول بأن «المعلومات ليست هي المعلومات» وتكرار هذه العبارة بعدد ما هنالك من فئات تهتم بالمعلومات. ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، حصر كل محاولات تعريف المعلومات؛ فهناك في الإنتاج الفكري، وفقًا لأحد التقديرات، أكثر من أربعمئة تعريف للمعلومات، أسهم فيها متخصصون ينتمون إلى مجالات مختلفة، وثقافات وبيئات متباينة(٣). وقد أسفرت إحدى محاولات استقصاء الآراء حول ماهية المعلومات عن النتيجة الآتية(٤):

- المعلومات شكل من أشكال الطاقة، مناظر للكهرباء أو أي ظاهرة فيزيائية أخرى.
- المعلومات شكل من أشكال الخواص كالمحتوى الثابت لرسالة ما.
- المعلومات شكل من أشكال السلع، وهي مورد لاتخاذ القرارات.
- المعلومات عملية تنطوي على تغير في الحالة الذهنية للمتلقي، أو إضفاء شكل على البنية الداخلية.
- المعلومات خاصة رياضية بالمفهوم التقني أو الهندسي، وهي خاصة الحد من اللبس، أو الاختيار من بين أبدال في ظل قيود فيزيائية متعددة.
- المعلومات هي المعرفة.
- المعلومات هي المعرفة العلمية.
- المعلومات هي المعلومات العلمية.
- المعلومات هي المعلومات المتخصصة في العلوم.
- المعلومات هي البيانات أو المعطيات.
- المعلومات هي الحقائق.
- المعلومات هي الاتصال.
- المعلومات هي المعنى.
- المعلومات هي محتوى الرسالة أو مضمونها.
- المعلومات هي الإدراك.
- المعلومات هي الوعي.
- المعلومات انطباع عقلي.
- المعلومات هي إشارات النقل الفيزيائي للرسائل.

وكما هو واضح فإن هذه الآراء تصدر عن زوايا مختلفة للنظر في المعلومات. ونحاول في هذه العجالة إلقاء بعض الضوء على المعلومات كما يراها بعض المهتمين بدراستها، فضلاً عن محاولة التحقق من بعض أبعاد هذه الظاهرة، ونبدأ بالمعالجة اللغوية للمصطلح.

المعلومات لغة

المعلومات من مشتقات المادة اللغوية العربية الثرية «ع ل م». وعلى الرغم من غزارة مشتقات هذه المادة، فإن معاني هذه المشتقات تدور في فلك ما يتصل بوظائف العقل والقدرة على التمييز، حيث تتصل بالعلم، والتعلم، والتعليم، فضلا عن المعرفة، والدراية، والإحاطة، والإدراك، والتيقن، والإتقان،



حيرة في تعريف المعلومات

والوعي، والوعظ، والإرشاد، والتوعية، والإعلام، والشهرة، والبروز، والتميز، والتيسير، وتحديد المعالم(٥)... إلى آخر ذلك من المعاني من هذا القبيل.

و Information هي المصطلح الإنجليزي المقابل للمعلومات. وتترجم هذه الكلمة الإنجليزية إلى العربية بشكلين، هما الإعلام كعملية، والمعلومات ما يتم الإعلام به. وهذه الكلمة الإنجليزية مشتقة من الأصل اللاتيني Informatio الذي يعني عملية الاتصال أو الإعلام، وما يتم إيصاله أو تلقيه، في الوقت نفسه، أي ما يتم الإعلام به. وقد اكتسبت كلمة Information في الإنجليزية أحد عشر معنى، منها ثلاثة مهجورة أو تاريخية، أولها إضفاء شكل ما على

شيء معين، أي وضع شيء ما في قالب معين To put something in form.

أما المعنى التاريخي الثاني فهو الحث أو الدعم أو التقوية، بينما المعنى التاريخي الثالث هو التدريب والتوجيه وتحقيق الانضباط. ومن المعاني الجارية لهذه الكلمة الإنجليزية إيصال المعرفة أو تلقيها، وما نتلقاه أو نحصل عليه عن طريق الإعلام، كالمعرفة التي يبثها آخرون، أو يتم الحصول عليها بالبحث أو الدراسة أو التوجيه، والانتباه أو الدراية بواقعة معينة أو بموقف معين، وتوجيه الاتهام رسمياً في قضية معينة، والعملية التي يتم بها توجيه الانتباه نحو خبرة جديدة لكي تتحقق المعرفة، والحقائق أو الأرقام الجاهزة للبث أو للإفادة منها، والإبلاغ عن واقعة أو عن شخص أو عن طرف معين.. إلى آخر ذلك من أنشطة أجهزة الأمن والاستخبارات (٦ - ٨).

المعلومات ليست اختراعاً عصرياً، وليست بالظاهرة البسيطة؛ فهي ظاهرة مراوغة، متعددة الصور والأبعاد، صعبة المراس، لا نستطيع إدراك كنهها على وجه اليقين، وإنما يمكننا التحقق من وجودها عن طريق ما تحدثه من أثر، شأنها في ذلك شأن الكهرباء

وفي العربية والإنجليزية على السواء ينتمي مصطلح «المعلومات» إلى أسرة دلالية ضخمة، تشمل من بين ما تشمل التعرف أو الاطلاع أو التآلف Acquaintance، والمعرفة أو الدراية Knowledge، والاستنارة Enlightenment، والذيوع أو الشيوع أو الإعلان، أو العلنية، أو الشهرة Publicity، والخبرة Experience، والتواصل أو تبادل الأفكار والآراء Communication، والذكاء أو الفطنة Intellect، والوعي Understanding، والإخطار أو الإشعار أو الإبلاغ أو الإفادة أو الإنذار Notification، أو Notice، أو Announcement، أو Annunciation، أو التبصرة Annotation(٩). إلى آخر ذلك من المفردات المرتبطة بتدفق الرسائل وما يمكن أن تحدثه من أثر فيمن يتلقاها. ومن الممكن تقسيم هذه المفردات ثلاث فئات:

- ما يدل على ما يتم بثه من رسائل.
- ما يدل على العمليات التي يتم بها البث.
- ما يدل على ما يمكن للرسائل أن تحدثه من أثر فيمن يتلقاها.

وهناك تداخل ملحوظ في المجالات الدلالية لهذه المفردات، إلا أن هذا التداخل لا يبلغ حد التطابق بين أي منها بحيث يؤدي إلى الترادف، وإنما يقف الأمر عند حدود التداخل الجزئي الذي يجعل منها أبناء عمومة بعضها لبعض، أي أشباه مترادفات. وهذا هو مكمن الصعوبة في التعامل معها.

المعلومات اصطلاحاً

المصطلح، كما نعلم، هو ما اصطلح عليه أو اتفق عليه، في سياق معين أو في مجال معين، فهل اتفق المهتمون بالمعلومات على الحدود الدلالية لهذا المصطلح؟ والإجابة بالنفي، ويرجع ذلك، كما أشرنا، إلى تعدد زوايا النظر، واختلاف الاتجاهات، وتباين المنطلقات. ومازلنا في انتظار التعريف الجامع المانع للمعلومات، فكل ما لدينا حتى الآن نظرات وآراء واجتهادات، إن حظيت بالقبول في مجتمع تخصصي أو مهني معين، فإنها قد لا تكون كذلك في المجتمعات الأخرى. ونعرض فيما يأتي بإيجاز لوجهات نظر بعض الفئات التخصصية في المعلومات، ونبدأ بأقدم الفئات اهتماماً بالمعلومات وهم علماء الأحياء.

المعلومات وعلماء الأحياء

ربما كان علماء الأحياء هم أقدم الفئات التخصصية اهتماماً بالمعلومات، إذ يرون أنهم يتعاملون مع أقدم حامل للمعلومات، وهو الجينات الحاملة للخصائص الوراثية التي تتناقلها الأجيال المتعاقبة من الكائنات الحية. أما الخصائص الوراثية فهي المعلومات. وربما يؤيد ذلك أن الفرد منا قد يلتقي بشخص أول مرة، ويرى نفسه مدفوعاً لأن يوجه سؤالاً لهذا الشخص، مستفسراً عما إذا كان هذا الشخص من أقارب شخص آخر يعرفه. وعادة يكون الدافع لهذا الاستفسار هو مظاهر الشبه بين هذا الذي التقيناه من جهة وذلك الذي نعرفه من جهة أخرى. ويتركز الاهتمام هنا على ما يمكن تسميته بالمعلومات البيولوجية، ونسميها كذلك للطابع الأساسي لحامل هذه المعلومات. وقد اتضح اهتمام علماء الأحياء بالمعلومات بجلاء في ذلك المشروع العلمي العالمي الذي بدأ يؤتي ثماره مؤخراً، وهو مشروع الجينوم Genom البشري، الذي وضع أسس ما يعرف بالخريطة الوراثية للإنسان. ومن الجدير بالذكر أن علماء الأحياء يستعملون في التواصل فيما بينهم مصطلحات مناظرة لتلك التي يستعملها الموثقون أو من يسمون الآن باختصاصيي المعلومات، كالرسالة والحرف والكلمة والصفحة

والكتاب... إلى آخر ذلك من مصطلحات.

ولا يقتصر الطابع الحيوي أو البيولوجي للمعلومات على ما يتصل بالجوانب الوراثية، وإنما يمكن تتبع مظاهره في جميع العمليات الحيوية والتفاعلات الكيماوية الحيوية، كعمليات التلقيح والإكثار والتمثيل الغذائي (الأيض). فالماء، على سبيل المثال، يحمل إلى البذرة الكامنة في التربة رسالة تحدث بها أثراً تترتب عليه سلسلة من التغيرات الحيوية، تسفر، بأمر الله تعالى، عن نبات مكتمل العناصر، يمكن أن يصبح شجرة مثمرة أو شجرة وارفة الظلال. وللمعلومات وجودها أيضاً في التفاعلات الكيماوية الحيوية التي تحدث نتيجة لتعاطي المريض للعقاقير أو الأدوية. ففي كل هذه العمليات رسائل تنطوي على معلومات، وحامل لهذه الرسائل أو قنوات تمر عبرها، لتصل إلى المتلقي، لتحدث به الأثر.

المعلومات وعلماء النفس

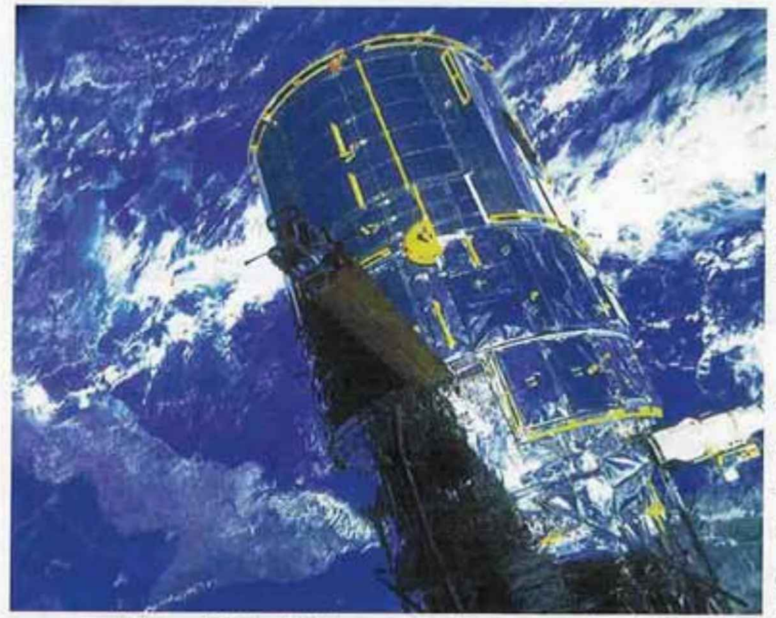
ينبع اهتمام علماء النفس بالمعلومات من اهتمامهم بخصائص الشخصية، والنمو العقلي والسلوك في جميع حالاته، فضلاً عن اهتمامهم بالوظائف العقلية، إذ تشكل المعلومات عاملاً مشتركاً في كل هذه الجوانب.

المعلومات وعلماء الاجتماع

تحظى المعلومات بالاهتمام من جانب علماء الاجتماع بوجه عام، والمتخصصين منهم في علم الاجتماع المعرفي بوجه خاص، إذ يهتم هؤلاء بدور المعلومات في تحقيق التنمية الاجتماعية. وهناك كثير من نقاط الالتقاء بين المتخصصين في علم الاجتماع المعرفي من ناحية والمهتمين بالإعلام أو الاتصال الجماهيري من ناحية أخرى، إذ يهتم كلا الطرفين ببث المعلومات حول التطورات والمبتكرات التي يمكن أن تؤدي إلى التغير الاجتماعي أو التنمية الاجتماعية بكل جوانبها، ومدى سرعة انتشار هذه التطورات والمبتكرات وتبنيها من جانب المجتمعات، وما يمكن أن يترتب على هذا التبني من تغيرات.

المعلومات ورجال الإدارة

ينظر رجال الإدارة إلى المعلومات بوصفها المورد أو الأساس الذي يمكن الاعتماد عليه في اتخاذ القرارات، فقد تتوقف سلامة القرار على دقة ما يتوافر للمسؤول من معلومات واكتمالها عند اتخاذه. والاعتماد على المعلومات هو العامل الأساسي في التمييز بين النمطين الأساسيين لممارسة الإدارة، وهما الإدارة بالتجربة والخطأ، والإدارة بالمخاطرة المحسوبة. والنمط الثاني هو الأكثر اعتماداً على المعلومات. وبتفصيل الخطوات التي يتم بها اتخاذ القرارات تتضح لنا حاجة كل خطوة من هذه الخطوات إلى المعلومات؛ فاتخاذ القرار يبدأ بإدراك التغير الذي يطرأ على الموقف، حيث يمكن للمسؤول عن إدارة إحدى الشركات، على سبيل المثال، أن يلاحظ انخفاض المبيعات عن معدلها المعتاد. حينئذ يدخل هذا المسؤول في الخطوة الثانية، وهي التحقق من أسباب هذا التغير وأبعاده، إذ يمكن لانخفاض المبيعات أن يكون راجعاً، على سبيل المثال، إلى ظهور منافس جديد، أو إلى تراجع في جودة المنتجات، أو



المعلومات في نظر مهندسي الاتصالات هي الإشارات المتدفقة عبر الشبكات

إلى ارتفاع تكلفة الإنتاج وانعكاسه على أسعار البيع، أو إلى تقصير من جانب القائمين على التسويق... إلى آخر ذلك من العوامل المحتملة. أما مظاهر التغير وأبعاده فيمكن أن تشمل - على سبيل المثال - مقدار الانخفاض، وما إذا كان يتركز في سلع أو منتجات معينة، أو في أسواق معينة... إلى آخر ذلك من المظاهر والأبعاد المحتملة. وعندما تتضح أمام المسؤول أسباب التغير وأبعاده يبدأ في طرح الأبدال المحتملة للتعامل مع الموقف، ثم ينظر في هذه الأبدال للمفاضلة بينها والتحقق مما لكل منها وما عليه، ليهتدي بعد ذلك إلى البديل المناسب، ويشرع في تنفيذ البديل الذي وقع عليه الاختيار، ولا ينتهي

الأمر عند هذا الحد وإنما عادة ما تكون هناك متابعة ورصد لنتائج التنفيذ، ومن ثم التقويم.

وكما هو واضح، فإن كل خطوة من هذه الخطوات يمكن أن تكون بحاجة إلى فئات متعددة من المعلومات على اختلاف مصادرها. ومن هنا نشأت نظم المعلومات الإدارية التي تقدم للمسؤولين عند اتخاذ القرارات ما يحتاجون إليه من معلومات تتفق وطبيعة الموقف، سواء أكانت هذه المعلومات ناشئة عن ممارسة المؤسسة لنشاطها الطبيعي، كإحصاءات المتابعة ومعدلات الأداء، والمعلومات المالية والمحاسبية، وتلك الخاصة بشؤون العاملين... إلى آخر ذلك من احتمالات، أم كانت هذه المعلومات من مصادر خارجية كالإنتاج الفكري، ومراكز البحوث، والخدمات الاستشارية... إلى آخر ذلك مما يمكن أن يتصل بتقنيات تطوير الإنتاج، أو تنمية الموارد البشرية، أو تنشيط حملات التسويق.

مازلنا في انتظار التعريف الجامع المانع للمعلومات، فكل ما لدينا حتى الآن نظرات وآراء واجتهادات، إن حظيت بالقبول في مجتمع تخصصي أو مهني معين، فإنها قد لا تكون كذلك في المجتمعات الأخرى

وفضلاً عن تطور نظم المعلومات الإدارية، تطورت أيضا مراكز تحليل المعلومات، أو مراكز دعم القرار. وتعتمد هذه المراكز في نشاطها على فرق من الخبراء المتمرسين في المجالات التي تحظى بالاهتمام، إذ تتركز مهام هذه الفرق في تجميع المعلومات على اختلاف مصادرها، والنظر في هذه المعلومات نظرة تحليلية نقدية مقارنة، تكفل استخلاص النتائج العامة التي توضع في متناول المسؤولين عند اتخاذ القرارت في مستويات الإدارة العليا. وترتبط مثل هذه المراكز بالمجالات ذات الأولوية أو الأهمية الحيوية على الصعيد الوطني، كتلك المجالات المتصلة بمواجهة التحديات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأمنية، وغيرها مما يعرف إجمالاً بالمجالات الإستراتيجية.

المعلومات وعلماء اللغة

للغويين اهتمامهم التقليدي بالمعلومات، النابع من اهتمامهم بوظائف اللغة، فاللغة على اختلاف أشكالها وتفاوت مستوياتها هي الأساس في التواصل وتدفق المعلومات، فهي أداة التعبير عن الصور الذهنية بشكل قابل للتداول. وما يسمى بالرسائل في نظام الاتصال إنما هو ناتج التعبير عما يريد المصدر بثه، باستعمال اللغة المناسبة، أياً كانت أشكال رموز هذه اللغة. وتتوقف فعالية هذه الرسائل على خصائص اللغة بمكوناتها الثلاثة، وهي الرموز، والدلالة الخاصة لهذه الرموز، وقواعد النحو التي تكفل الاستغلال الأمثل لهذه الرموز. ولقد كان لتطور الدراسات اللغوية انعكاساته المباشرة على أساليب تنظيم المعلومات، كما سنرى، كما أن هناك من يرى أن علم اللغة، وما يسمى الآن علم المعلومات حليفان لا غنى لأحدهما عن الآخر.

المعلومات ومهندسو الاتصالات

لمهندسي الاتصالات البعيدة المدى اهتمامهم بالمعلومات، الناشئ عن جهودهم في تصميم قنوات الاتصالات، وتطوير هذه القنوات، وتقويم أدائها، فضلاً عن اهتمامهم بالعوامل المؤثرة فيها، كالظروف الجوية من البرق والرعد والعواصف والرياح...إلخ. والمعلومات في نظر مهندسي الاتصالات هي الإشارات التي تتدفق عبر الشبكات بكل أشكال هذه الشبكات ومقوماتها. ويركز هؤلاء في الجوانب الهندسية والخواص الفيزيائية للقنوات، دون اهتمام يذكر بمحتوى ما تحمله هذه القنوات، أو مضمونه أو دلالته.

المعلومات واختصاصيو الحاسبات

ربما كان اختصاصيو الحاسبات هم أحدث الفئات المهنية اهتماماً بالمعلومات. وهم يرون أن المعلومات هي ناتج استخدام الحاسب في معالجة البيانات. وإن صح ذلك عندما كانت قدرات الحاسب تقف عند حدود معالجة البيانات الرقمية أو الإحصاءات، فإنه لا يمكن أن يكون كذلك بعد أن اكتسب الحاسب القدرة على التعامل مع البيانات الهجائية، وكذلك البيانات التصويرية، وأصبح يشكل عنصراً أساسياً فيما يسمى الآن - إجمالا - تقنيات المعلومات.

تضافر جهود علماء اللغة وعلماء الحاسبات

أدى تضافر جهود كل من علماء اللغة فيما يسمى اللغويات الحاسبية، وجهود علماء الحاسبات فيما يسمى الذكاء الاصطناعي، إلى تطوير فئة جديدة من نظم استرجاع المعلومات، وهي النظم الخبيرة، أو النظم القائمة على المعرفة، أو النظم المعتمدة على القواعد. ويقصد بعلم اللغة الحاسبي تلك الجهود الرامية إلى إكساب الحاسب القدرة على التعامل مع نصوص اللغة الطبيعية بعناصرها الثلاثة؛ العنصر الإملائي، والعنصر النحوي بمستوييه، الصرف أو بناء الكلمة، والنظم

أي بناء العبارة والجملة، والعنصر الدلالي. أما الذكاء الاصطناعي فيقصد به الجهود الرامية إلى إكساب الحاسب بعض قدرات العقل البشري، كالقدرة على الربط والقدرة على الاستنتاج. وتصب كل هذه الجهود في الجانب التنظيمي للمعلومات.

المعلومات واختصاصيو المعلومات

اختصاصيو المعلومات تسمية جديدة لواحدة من أقدم الفئات اهتماماً بتنظيم المعلومات، وتيسير سبل الإفادة منها؛ فقد بدأت هذه الفئة باسم الوراقين، ثم المكتبيين، ثم الموثقين، واستقرت الآن تحت مظلة اختصاصيي المعلومات. وقد حدثت هذه التغيرات في التسميات استجابة للتطورات الاجتماعية والتقنية. وعلى الرغم من أن مصطلح المعلومات قد بدأ استعماله، على نحو رسمي، في مجال تنظيم المعلومات عام ١٩٢٤م، فإن مفهوم المعلومات لم يبدأ يحظى بالاهتمام من جانب اختصاصيي المعلومات إلا في عام ١٩٥٠م؛ ففي عام ١٩٢٤م، استعمل المصطلح في اسم إحدى الجمعيات المهنية البريطانية العاملة في مجال تنظيم المعلومات، وهي جمعية المكتبات المتخصصة ومراكز المعلومات Association of special Libraries and Information Buraux، وتعرف الآن باسمها الاستهلالي آزلب Aslib. وفي عام ١٩٥٠م سك أحد الموثقين الأمريكيين مصطلح «استرجاع المعلومات» ليكون بديلاً لمصطلح أقدم لم يحظ بإجماع القبول من جانب الناطقين بالإنجليزية وهو Documentation الذي ترجم إلى العربية بالتوثيق والوثاقة. وكان مرد عدم الرضا عن هذا المصطلح تعدد معانيه فضلاً عن أنه لم ينتقل من اللاتينية إلى الإنجليزية مباشرة؛ وإنما انتقل إليها مروراً بالفرنسية، إذ أصبح الناطقون بالإنجليزية ينظرون إليه بوصفه مصطلحاً فرنسياً غير مرغوب فيه(٩). ونرجو أن يكون في ذلك درس لأولئك الذين يعملون على إغراق العربية بطوفان من المصطلحات الأجنبية. وبمجرد أن بدأ تداول مصطلح استرجاع المعلومات بدأ الجدل حول ماهية المعلومات في أوساط اختصاصيي المعلومات. فما يسمى نظم استرجاع المعلومات لم يكن يسترجع معلومات، وإنما يسترجع البيانات الوراقية (الببليوجرافية) الخاصة بالوثائق التي يمكن أن تشتمل على النصوص الحاملة للمعلومات، أي إنها نظم لاسترجاع الوثائق، في مقابل فئة أخرى تسمى نظم استرجاع الحقائق(١٠). وواقع الأمر أن نظم استرجاع الوثائق هذه امتداد للنشاط الوراقي الذي يضرب بجذوره في أعماق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وعلى جبهة نظم استرجاع الحقائق تطورت نظم المعلومات الإدارية، ونظم المعلومات الجغرافية، فضلاً عن النظم الخبيرة.

فاستبدال مصطلح استرجاع المعلومات بمصطلح التوثيق لم يغير من جوهر النشاط أو طبيعته شيئاً، مما حدا ببعض الناس أن يصف الموقف بأنه أغلفة جديدة لسلعة قديمة، ويتركز اهتمام اختصاصيي المعلومات بالمعلومات في الجانب الوثائقي للمعلومات، أي في المعلومات بعد أن تصب في أوعية قابلة للتداول، أياً كان الشكل المادي لهذه الأوعية، الذي يراوح بين ناتج النقش على الحجر والحفر بأشعة الليزر، مروراً بالمخطوط والمطبوع، والسمعي والبصري، والسمعبصري، والمصغرات الفلمية. وتنصب جهود هذه الفئة المهنية على تجميع الأوعية وتنظيمها واختزانها واسترجاعها وتيسير سبل الإفادة منها. إلا

> **تشكل المعلومات بالنسبة إلى الإنسان مورداً لا غنى عنه في جميع مناحي الحياة، بلا استثناء، وهي ليست بالمورد العادي، وإنما هي مورد الموارد الذي لا يمكن استثمار أي مورد من دونه**

أن فعالية هذه الجهود تتوقف على مدى إحاطة اختصاصيي المعلومات بالعوامل المؤثرة في إنتاج المعلومات، وبث المعلومات أو نشرها، ومن ثم الإفادة من المعلومات. ومن هنا كان اهتمامهم بالجوانب الاجتماعية والنفسية أو السلوكية واللغوية، فضلاً عن اهتمامهم بالجوانب التنظيمية والتقنية للمعلومات. ومن ثم فإنهم يهتمون في واقع الأمر بعلاقة المعلومات بالمعرفة.

المعلومات وعلماء المعلومات

بينما يهتم اختصاصيو المعلومات بالجوانب التطبيقية أو المهنية للمعلومات يهتم علماء المعلومات بالأسس النظرية الكامنة وراء الممارسات التطبيقية. ومعظم من يسمون الآن بعلماء المعلومات من الباحثين الوافدين من مجالات تخصصية مختلفة، من العلوم الاجتماعية أو السلوكية، والعلوم الطبيعية. ولعلماء المعلومات نظرتهم الأكثر تعمقاً من غيرهم في سبر أغوار المعلومات. ونكتفي في هذا المقام بعرض آراء اثنين فقط من علماء المعلومات، أولهما نشأ في مجال العلوم السلوكية وهو مانفرد كوشان، والثاني في العلوم الطبيعية وهو برترام بروكس.

المعلومات في نظر مانفرد كوشان

نشأ مانفرد كوشان في مجال علم النفس، وأصبح الآن من المنتمين إلى علم المعلومات، وله إسهامه النظري في هذا المجال. ولم يقدم مانفرد كوشان تعريفًا مباشرًا للمعلومات، وإنما عمل على تحديد معالمها والتحقق منها بوضعها في طيف دلالي يضم خمسة من المفاهيم المرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا، ويصور هذا الطيف الدلالي في شكل مدرج، تشكل البيانات أو المعطيات قاعدته أو أدنى مراتبه، تليها المعلومات في المرتبة الثانية، ثم المعرفة في المرتبة الثالثة، والوعي في الرابعة، بينما تتربع الحكمة على قمة هذا المدرج(١١).



المعلومات أساس اتخاذ القرارات

فالبيانات أو المعطيات متفرقة بطبيعتها، ولا يمكن الإفادة منها أو استثمارها على نحو مباشر، لأنها لا تقدم صورة متكاملة أو نتائج نهائية يمكن الاعتماد عليها. ومن الأمثلة على ذلك تلك القراءات التي يسجلها الباحث في العلوم التجريبية، ومحتوى خلايا الجداول الإحصائية. أما المعلومات في نظر كوشان فهي ناتج معالجة البيانات. وهناك أساليب مختلفة ومستويات متفاوتة لهذه المعالجة، ربما كان من أبسطها عمليات الجمع والضرب والقسمة التي نجريها على محتوى الخلايا المتفرقة للجدول الإحصائي، للخروج بنتيجة نهائية يمكن أن تكون نسبًا مئوية أو متوسطات أو معدلات...إلخ. ويمكن لهذه النتائج أن تكون صالحة للاستثمار على نحو مباشر، أو كافية في حد ذاتها للتعامل مع موقف معين. أما المعرفة فهي ناتج استثمار المعلومات من جانب الأفراد والمجتمعات، بينما الوعي هو النتيجة المترتبة على الخبرات المتراكمة في استثمار المعلومات. والحكمة بالطبع هي ذروة مستويات الأداء العقلي أو الفكري، فالعلماء كثر، والحكماء قليلون.

فالمعلومات، في نظر كوشان، تتدفق علينا من كل حدب وصوب، إلا أن ما يؤثر في أدائنا وسلوكنا، فيحقق المعرفة، من هذا الكم الهائل، قليل. ومسايرة لهذا الاتجاه في علاقة المعلومات بالمعرفة، تقول إحدى المكتبيات الأمريكيات: «إننا نكاد نغرق حتى آذاننا في المعلومات، ونتضور جوعًا إلى المعرفة»(١٢).

إلا أننا، ومن منظور إسلامي، إذا اتفقنا مع مانفرد كوشان في ترتيب المفاهيم الأول والرابع والخامس، قد لا نتفق معه فيما ذهب إليه بشأن العلاقة بين المعلومات والمعرفة، إذ تبدو المعلومات أوثق ارتباطًا بالأداء والسلوك، من المعرفة، كما يتبين من كثير من آيات القرآن الكريم، منها على سبيل المثال: *... قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب*. الزمر: ٩. وقوله تعالى: *... إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور*. فاطر: ٢٨. ولا مجال هنا للاستطراد ونرجو أن يحظى هذا الموضوع باهتمام أحد المؤهلين لتفسير القرآن الكريم؛ لأنه يمكن للموازنة بين معاني مشتقات «ع ل م» ومعاني مشتقات «ع ر ف» أن تؤدي إلى نتائج حاسمة.

المعلومات في نظر برترام بروكس

برترام بروكس من أبرز علماء المعلومات وأكثرهم تعمقًا في سبر أغوار الظاهرة موضوع هذا العلم. وقد نشأ في مجال العلوم الطبيعية، وفي الفيزياء والرياضيات على وجه الخصوص، فتمرس بمناهجها، ثم ارتبط بأحد معاهد المكتبات في بريطانيا، ليشكل نواة لدراسات المعلومات في منتصف العقد السابع من القرن العشرين للميلاد. ولبروكس إسهامه الواضح في تطوير بعض الأساليب الإحصائية المناسبة لدراسة خصائص الإنتاج الفكري، أي ما يعرف بالببليومتريقا أو القياسات الوراقية. وربما كان بروكس في مقدمة من نبه على إمكان تعريف المعلومات بناء على ما لها من أثر؛ فالمعلومات في نظره هي ما يغير من البنية المعرفية للمتلقي،

أي الرسالة الجديدة وما تحدثه هذه الرسالة من أثر(١٣). ولكل بنيته المعرفية التي هي حصيلة كل ما مر به من تجارب وما اكتسبه من خبرات، أيا كانت مصادر هذه الخبرات. وكما أن لكل فرد بنيته المعرفية فإن لكل مجتمع ـ أيا كانت الأسس التي بني عليها هذا المجتمع ـ بنيته المعرفية أيضاً. وكلنا معرض لأعداد لا حصر لها من الرسائل، إلا أننا ـ عادة ـ نتعامل مع هذه الرسائل على نحو انتقائي، لأننا لا ننتبه فعلا إلا لما يدخل في صميم اهتمامنا. وتسمى هذه الظاهرة انتقائية الانتباه(١٤). وعندما نتلقى رسالة جديدة فإن مضمون هذه الرسالة لا يدخل على فراغ، وإنما يدخل على البنية المعرفية فيحدث بها أثراً. ولا يترتب هذا الأثر إلا على الرسالة الجديدة؛ لأن الرسائل المألوفة أو الرسائل المتوقعة أو الرسائل المكررة لا يترتب عليها أي أثر. ويمكن لأثر الرسالة الجديدة الواحدة أن يختلف من شخص إلى آخر أو من مجتمع إلى آخر، وذلك لاختلاف البنى المعرفية؛ فإذا اطلعت مجموعة من الأشخاص على نص معين ـ على سبيل المثال ـ فإن ما تحدثه الرسائل التي تضمنها هذا النص من أثر لا يمكن أن يكون واحداً بالنسبة إلى الجميع. ولا يمثل مضمون هذه الرسائل إضافة تراكمية، وإنما عادة يتحقق الأثر نتيجة لتفاعل هذا المضمون مع عناصر البنية المعرفية ومكوناتها.

ويرى برترام بروكس أن هناك ثلاثة أطوار للمعلومات؛ هي المعلومات الفيزيائية، والمعلومات البيولوجية، والمعلومات المعرفية. فلا ينظر بروكس إلى الكتب وغيرها من أوعية المعلومات بوصفها المصدر الوحيد لتلقي المعلومات، وإنما يمكن أن نتلقى المعلومات من تعاملنا مع البيئة المحيطة بنا عن طريق الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والتذوق والإحساس بالحرارة والبرودة. ونحن ـ البشر ـ ليس لدينا، فضلا عن الرسالة السماوية، سوى مصدر واحد للمعلومات، وهو الكون المحيط بنا بكل عناصره ومكوناته، أي أن لنا ـ كما يقولون ـ الكتاب المنزل، والكتاب المفتوح، والكتاب المنزل هو أساس العلوم النقلية، بينما الكتاب المفتوح هو أساس العلوم العقلية، فقد أمرنا الخالق سبحانه وتعالى بأن نتفكر في خلق السموات والأرض. وقد تطورت بعض التقنيات التي تدعم الحواس كالمجهر والمنظار ومكبر الصوت. وتستجيب الحواس، لأنواع معينة من الإشارات الفيزيائية، كما هو الحال في السمع والبصر، على سبيل المثال، ثم تحول جزءاً من هذه الإشارات إلى نبضات كهربائية عصبية، تنتقل عبر القنوات العصبية إلى مختلف أجزاء الجسم. وهذا هو الحال فعلا، لا بالنسبة إلى الباحثين في العلوم الطبيعية والباحثين في العلوم الاجتماعية فحسب، وإنما بالنسبة إلى الإنسان العادي أيضاً؛ فالإنسان العادي، في أي موقف يواجهه في التعامل مع بيئته، عادة يجد في هذه البيئة أول مصدر للمعلومات التي يمكن أن يفيد منها، ومالم تكفه هذه المعلومات فإنه يلجأ إلى رصيده من المعلومات المختزنة في الذاكرة، ومالم يجد في هذه المعلومات كفايته فإنه قد يلجأ إلى مشورة الآخرين ممن يخالطهم أو من المقربين إليه. وقد يجد نفسه مضطراً في النهاية إلى اللجوء إلى أوعية المعلومات، أيا كانت سبله للوصول إلى هذه الأوعية التي تشكل الذاكرة الخارجية.

أما عن الطور البيولوجي للمعلومات، فإنه يتمثل في رأي بروكس، في دور القنوات العصبية التي تنقل الرسائل التي تتلقاها الحواس إلى العقل. وهذه القنوات بيولوجية بطبيعتها. وليس من مهام الحواس فك شفرة ما تتلقاه من رسائل، أو التحقق من هذه الرسائل بأي شكل، إذ يدخل ذلك ضمن وظائف العقل الذي يميز بين هذه الرسائل، ويفك شفرتها، ويضاهيها مقابل ما تعيه الذاكرة، ويصنف ما يراه جديراً بالاختزان... إلى آخر ذلك من عمليات معرفية. وبذلك نصل إلى الطور المعرفي للمعلومات. ولا ينظر بروس إلى هذه الأطوار أو المستويات الثلاثة بوصفها مجالات مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال، وإنما بوصفها سلسلة متصلة من العمليات المعلوماتية التفاعلية.

وفضلاً عما ذهب إليه بروكس، فإن للمعلومات ـ كما تبين لنا ـ ارتباطاتها أو أبعادها اللغوية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والوثائقية، والتقنية، والتنظيمية.

فالمعلومات، في نظر كوشان، تتدفق علينا من كل حدب وصوب، إلا أن ما يؤثر في أدائنا وسلوكنا، فيحقق المعرفة، من هذا الكم الهائل، قليل. ومسايرة لهذا الاتجاه في علاقة المعلومات بالمعرفة، تقول إحدى المكتبيات الأمريكيات: «إننا نكاد نغرق حتى آذاننا في المعلومات، ونتضور جوعاً إلى المعرفة»

المعلومات موردًا

ربما يكون قد تبين لنا مما سبق أن المعلومات تشكل عاملاً حافزًا في جميع الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، فضلاً عما لها من أثر في العمليات الحيوية، لا بالنسبة إلى الإنسان فحسب، وإنما بالنسبة إلى الكائنات الحية كافة.

وبالنسبة إلى الإنسان تشكل المعلومات موردًا لا غنى عنه في جميع مناحي الحياة بلا استثناء، وهي ليست بالمورد العادي، وإنما تنفرد المعلومات بوصفها موردًا بعدد من السمات التي تميزها من غيرها من الموارد، إلى الحد الذي يدعو إلى النظر إليها بوصفها مورد الموارد؛ فهي المورد الذي من دونه لا يمكن استثمار أي مورد آخر. ولارتباطها بالعمل فإنها تمثل أهم معايير التمييز بين الأفراد والمجتمعات. وإذا كان الإنسان قد تمكن من استثمار أنواع متعددة من مصادر الطاقة، كالطاقة الكهربائية، والطاقة الشمسية، والطاقة المتولدة من الرياح... إلى آخر ذلك من مصادر الطاقة، فقد تحقق له ذلك، بعد إرادة المولى سبحانه وتعالى، نتيجة لقدرته على استثمار ثروة المعلومات التي توافرت لديه حول خصائص هذه المصادر وسبل الإفادة منها.

والمعلومات مورد غير ناضب، مورد دائم التجدد، ينمو بقدر ما يستغل، لأن الإفادة من المعلومات تؤدي إلى إنتاج المزيد من المعلومات. ولا تخضع المعلومات بوصفها موردًا لقواعد المقايضة، لأن تبادل المعلومات لا ينطوي على التنازل عنها من جانب أي من الأطراف، وإنما عادة يؤدي إلى زيادة حصيلة ما لدى المتبادلين من معلومات.

وتنظيم تدفق أي مورد هو أهم ضمانات استثماره على نحو فعال. ويقصد بتنظيم التدفق هنا العمل على توافر المورد لمن يحتاج إليه في الوقت المناسب بالقدر المناسب. ومن هنا كان حرص المجتمعات على اتخاذ التدابير الكفيلة بتنظيم المعلومات على نحو يحول دون تحولها من فيضان مثمر إلى طوفان مدمر. وإذا كان هناك الآن من يقسم دول العالم فئتين، إحداهما متخمة بالمعلومات، والأخرى تفتقر إلى المعلومات، فإننا نود أن نؤكد أن الفارق بين الفئتين لا يكمن في توافر المعلومات بقدر ما يكمن في توافر مقومات استثمار المعلومات، أي المقومات البشرية والتنظيمية والاجتماعية والتقنية التي تكفل الاستثمار الأمثل للمعلومات.

خاتمة

ربما يكون قد اتضح الآن كيف أننا مع المعلومات إزاء ظاهرة أبعد ما نكون عن البساطة، فالمعلومات ليست بالأمر الذي يمكن تحديد معالمه أو رؤيته أو سماعه أو لمسه. فالمرء يحاط علمًا، أو يصبح على بينة من أمر شيء إذا ما تغيرت بنيته المعرفية على نحو ما. وكما تبين، فإن المعلومات تستقطب اهتمام عدد من الفئات التخصصية والمهنية، ولكل فئة دوافعها ومنطلقاتها لهذا الاهتمام، مما يؤدى إلى اختلاف زوايا النظر، ومن ثم اختلاف التصورات. ولا ندعي في هذه العجالة الإحاطة بكل أوجه الاهتمام بالمعلومات، وإنما قصدنا التنبيه على بعض مظاهر الغموض الذي يمكن أن يترتب على استعمال مصطلح «المعلومات» دون تحديد للسياق؛ لأن هذا المصطلح قد استنزف دلاليًا نتيجة لكثافة استعماله، والتناسب العكسي بين كثافة التردد وقوة الدلالة من بين الأسس النظرية لعلم المعلومات. وربما يضاعف من صعوبة الموقف خلط بعضهم بين المعلومات من جهة وتقنيات المعلومات من جهة أخرى. فالمعلومات هي المعلومات في كل عصر وأوان، فإن عجلة تطور تقنيات المعلومات لا تتوقف عن الدوران، ذلك لأن المعلومات من الظواهر الثابتة الجوهر المتغيرة المظهر.

المراجع والهوامش

١. انظر سورة البقرة، آية ١٩٧، وسورة الحج، آية ٢٨.
٢. حشمت قاسم، مدخل لدراسة المكتبات وعلم المعلومات، القاهر، دار غريب، ١٩٩١م.
3- Yuexiao, Zhang. Definitions and Scinces of information.
Information Processing and Management, vol. 24, No.4; 1988, PP. 479-491.
4- Schrader, Alvin M. In search of a name, information science and its conceptual antecedents. LISR, vol 6, 1984. PP. 227-271
٥. لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م (ع ل م).
6- Murray, James. A New English dictionary on historical Principles. Oxford, Clarendon, 1883 - 1933.
7- Webster's Third international dictionary of the English Language. Springfield, Merriam, 1966.
8- Encyclopedic world dictionary; a dictionary of the English language. Beriut, Librairie du Liban, 1974.
9- Thesaurus of English Words and phrases, classified and arranged by Peter Mork Roget. New York, Chatham River, 1987.
١٠. لانكستر. ولفرد. نظم استرجاع المعلومات، ترجمة حشمت قاسم، القاهر، مكتبة غريب، ١٩٨١م.
11- Kochem, Manfred. Information for action; from Knowledge to wisdom. New York, Academic Press, 1975.
١٢. حشمت قاسم، المعلومات والأمية المعلوماتية في مجتمعنا المعاصر، في كتابه: دراسات في علم المعلومات، ط٢، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٥م، ص ٢١ - ٣٩.
13- Brookes, B.C.A new raradigm for information science? The Information Scientist, vol. 10, no 3; July 1976. PP. 103-111
١٤. فيكري، براين وإلينا فيكري، علم المعلومات بين النظرية والتطبيق، ترجمة حشمت قاسم، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٩١م.

الخصوصية اللغوية في عصر العولمة

رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان
الزقازيق - مصر

أفهم أن مصطلح العولمة استخدم أساسًا لوصف بعض الأوجه الرئيسة للتحول الحديث في النشاط الاقتصادي العالمي. إن التحرير المالي قد خلق عالمًا بلا حدود، كما أن إلغاء القيود التنظيمية والتفاعل مع المتغيرات المتسارعة في تقانة الاتصالات والحواسب، قد أديا بالفعل إلى جعل الحدود الوطنية مسامية، وذلك بدرجة كبيرة. لقد أصبحت حكومات اليوم بفعل التطور الاقتصادي والتقدم التقاني، أقل قدرة على السيطرة على انتقال الأموال أو المعلومات عبر الحدود، من هنا نشأت ضغوط العولمة، بيد أن من أبرز هذه الضغوط - على الإطلاق - تهديد الذاتية التي تحرص عليها كل دولة، ونشرت في هذا الشأن عدة دراسات على مدى العامين الماضيين.

إن الانحياز صوب الرأي الرامي إلى الحفاظ على الخصوصية، مع مراعاة مسايرة العولمة وفق ضوابط حافظة لهذه الخصوصية، تؤثره قاعدة عريضة من مفكري العصر الحالي، وتتمثل المعضلة الرئيسة في ترسيم معيار علمي وعملي جامع للمفهوم السابق وأعتقد أن التراخي وتأخير البت في هذا المعيار سيؤديان حتمًا إلى مزيد من صعوبات توجهات حماية الخصوصية في مواجهة شبح العولمة.

ضمن التهديدات التي تصيب خصوصيات الشعوب، تهديد اللغات الوطنية، هكذا يفهم من أحدث التقارير والدراسات التي نشرتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو»، ومن أهم ما أبرزته هذه التقارير ظاهرة موت اللغات.

ففي عالم سريع الاتصال، كثيف المعلومات، تفرزه تقانة (تكنولوجيا) الشبكات، والتعزيز الإعلامي، والدعم التقني لآليات مؤسسة على قواعد أكثر اللغات انتشارًا يثور سؤال على قدر كبير من الأهمية، وهو: هل تبتلع لغة ثورة الاتصالات اللغات العالمية؟ إن تهديدًا خطيرًا - كما يقرر اليونسكو - يتمثل في انقراض كثير من اللغات عند الشعوب، ترى هل تزيد العولمة اللغوية من إيقاع سرعة فناء اللغات؟ هذا هو ما أحاول طرح مقدمة له.. تحتاج - لا مناص - إلى دراسات تالية من خلال المتخصصين من علماء اللغة.

اللغة: المعنى والتعريف والأهمية

في «المعجم الوجيز»: (اللغة): أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والجمع (لغات). ويقال سمعت لغاتهم: اختلاف كلامهم. وفي «مختار الصحاح»: (اللغة) أصلها لُغَيٌ أو لُغَوٌ وجمعها (لُغى) مثل بُرة وبرى، و(لُغات) أيضًا. وقال بعضهم: سمعت لغاتهم بفتح التاء شبهها بالتاء التي يوقف عليها بالهاء. والنسبة إليها (لُغَوِي) ولا تقل لَغوي. وفي المصباح المنير، قال الفيومي: ولَغِي بالأمر يلغى من باب تعب لهج به، ويقال: اشتقاق اللغة من ذلك، وحذفت اللام وعوض عنها الهاء، وأصلها لُغْوة مثال غرفة، وسمعت لغاتهم أي اختلاف كلامهم.

في علم النفس المعاصر: اللغة (Language): نظام من العلاقات يستخدم وسيلة للاتصال البشري، والأنشطة العقلية. وطريقة تعلن بها الشخصية عن وعيها الذاتي، وتنقل بها المعلومات من جيل إلى جيل وتخزنها. وقد تطورت اللغة تاريخيًا على أساس عمل الناس المشترك. واللغة قديمة قدم الوعي، وهي الوعي العملي الحقيقي الموجود لدى الآخرين، ولذلك فهي توجد كذلك بالنسبة إلي، واللغة مثل الوعي، تنشأ فقط من الحاجة، وضرورة العلاقة مع الناس الآخرين.

من أدق تعريفات اللغة أنها «قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما» وهذا

التعريف في واقعه يقرر مجموعة من الحقائق التي تنطوي عليها طبيعة اللغة في حقيقتها وكيانها الداخلي الدقيق، وهذه الحقائق هي:

- أن اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني والمفردات والأصوات والقواعد التي تنظمها جميعاً. تتولد وتنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة أو مستعملها، فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاماً أو كتابة، كما تمكنه من فهم مضامين ما ينتجه أفراد مجموعته من هذه العبارات، وبذلك توجد الصلة بين فكرة وأفكار الآخرين، وتتداخل في تكوين هذه القدرة عوامل عضوية (فسيولوجية) تتمثل في تركيب الأذن والجهاز العصبي والمخ والجهاز الصوتي لدى الإنسان.

- أن هذه القدرة تكتسب، ولا يولد الإنسان بها، وإنما يولد ولديه الاستعداد الفطري لاكتسابها، ويدفعه لهذا الاكتساب في العادة شعوره بالانتماء إلى مجموعته البشرية نفسياً واجتماعياً وحضارياً، ورغبته في التعايش وتبادل المنافع والمصالح بينه وبين أفراد هذه المجموعة.

- أن هذه القدرة المكتسبة في طبيعتها تتمثل في نسق متفق أو متعارف عليه بين أفراد ما يطلق عليه الجماعة اللغوية، الجماعة الناطقة بلغة ما. وتدخل في تكوين هذا النسق في العادة وحدات أو أنساق أخرى متفرعة يرتبط بعضها بالآخرين، وهذه الوحدات أو الأنساق المتفرعة هي:

- النسق الصوتي: وهو الذي يحدد نطق الكلمات، أو أجزاء الكلمات وفق الأنماط المقبولة أو المتعارف عليها لدى الجماعة اللغوية.
- النسق الدلالي: ويعني ترتيب الوحدات المعنوية وفق سماتها الدلالية المعروفة أو المقبولة في اللغة.
- النسق الإعرابي أو النحوي: ويعني ترتيب كلمات الجمل أو الجمل في أشكالها المقررة في اللغة.
- النسق الصرفي: وهو النسق الذي تعالج فيه أو من خلاله بنيات الكلمات وأنواعها وتصريفاتها أو اشتقاقاتها.
- النسق المعجمي: ويقصد به مجموع المفردات اللغوية المتاحة للتعبير عن المعاني والمواقف المختلفة في إطار اللغة.

- أن اللغة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي أداة يتواصل بها أفراد مجتمع معين لتنظيم علاقاتهم، وتسيير أمور حياتهم، ولهذا كانت معرفة اللغة أو تعلمها ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية التي تستقر وتستقيم بها حياة الفرد.

أهمية اللغة

إنها أساس مهم للحياة الاجتماعية، أو ضرورة من أهم ضروراتها؛ لأنها أساس لوجود التواصل في هذه الحياة، وأساس لتوطيد سبل التعايش فيها، فهي وسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وأحاسيسه ومواقفه، وطريقه إلى تصريف شؤون عيشه، وإرضاء غريزة الاتباع لديه. واللغة كذلك أداة هذا الإنسان للتخاطب مع الآخرين والتفاهم، وتبادل الأفكار والآراء والمشاعر معهم، وطريقة فهمهم، وتحسس أذواقهم، وسبيله إلى معرفة مذاهبهم، ووسائل التأثير فيهم، وإيجاد العلاقات، وبناء الروابط، وتحقيق سبل التعاون والتكافل معهم، ومن ثم توفير كل ما يساعده على العيش بينهم في يسر وطمأنينة وسلام.

واللغة أيضاً وسيلة الإنسان إلى تنمية أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئته للعطاء والإبداع والمشاركة في تحقيق حياة متحضرة، فبواسطتها يختلط بالآخرين، ويمتزج بهم، ويقوي علاقاته مع أعضاء أسرته وأفراد مجتمعه، وعن طريق هذا الاختلاط والامتزاج، وهذه العلاقات القوية يكتسب خبراته، وينمي قدراته ومهاراته اللازمة لتطوير حياته، ويزداد اكتسابه لهذه الخبرات والمهارات كلما نمت لغته وتطورت، وزادت علاقاته بالآخرين قوة واتساعاً ونماء، وهذا ما يجعله أكثر وعياً وإدراكاً، وأكثر قابلية للإبداع والإنتاج والمشاركة في تحقيق التطور الفكري، وهكذا بفضل اللغة تتصرف شؤون الفرد، ويتأكد وجوده وانتماؤه لمجموعته البشرية، وبفضلها أيضاً تنمو علاقات أعضاء الأمة، وتتطور حياتهم، وترتقي حضارتهم، وتسير دفة الأمور في المجتمع الإنساني عامة. إذ يكون الفرد نواة في مجتمعه، ومجتمعه حلقة في كيان المجتمع البشري.

علم اللغة

معظم الثقافات في العالم قد أوجدت لدى بعض أعضائها فهماً معيناً لمجال اللغة وقدرتها، كما أن الوعي بالذات اللغوية قد يكون من آثاره في البداية الاحتكاك بمتكلمين أجانب، أو وجود الانقسام اللهجي وإدراكه داخل الجماعة اللغوية، أو قد تكون أثارته نزعة معينة من نزعات حب الاستطلاع الأصيل، والخالي من الغرض عند الإنسان لمعرفة نفسه ومعرفة العالم من حوله. ويرى المفكر R.H. Robins روبنز أنه قد نشأ عن هذا المصدر «علم لغة شعبي» Folk Linguistics يبحث في أصل لغة المرء الخاصة، وفي مكانتها في حياة الجماعة.

فاللغة بوصفها هبة خاصة من الله، هي تصور وجد في كثير من الثقافات المختلفة وغير المتصلة بعضها ببعض.

وفي بعض الثقافات، تلك التي يصدق عليها لسبب أو لآخر لقب الحضارات، استطاع حب الاستطلاع، وإدراك الإنسان لمحيطه أن يصبحا علماً، أي دراسة نظامية لموضوع معين، أو لمجال من مجالات الظواهر، وقد اعتنى بهذا الموضوع أو المجال، ونقله من جيل إلى آخر أناس على قدر كبير من المهارة والمعرفة بنشاط معين من هذا النوع، والجنس البشري كله مدين بدين عظيم لتلك الثقافات التي رعت تطور العلوم بطريقة أو بأخرى.

من بين العلوم التي ظهرت بهذه الطريقة: علم اللغة الشعبي الذي تطور في مناطق مختلفة من العالم المتحضر إلى العلم اللغوي، والمصطلح «علم» في التركيب «العلم اللغوي» يستعمل هنا بشكل مقصود، ولكن ليس على سبيل الحصر، فالعلم في هذا السياق ليس متميزاً من العلوم الإنسانية، فمزية الدقة والانضباط العقلي الذاتي من جانب، والحساسية والخيال من جانب آخر، كلها شروط مطلوبة للعمل في أي دراسة كافية للغة.

علم اللغة، بوصفه موضوعاً أكاديمياً، ينتمي إلى العلوم الإنسانية ، شهد تطوراً سريعاً ومذهلاً، فهو اليوم مثله مثل فروع العلم والمعرفة الإنسانية الأخرى، ومثل كل مناحي الثقافات الإنسانية، نتاج لماضيه، ومادة لمستقبله... ويعد فرع دراسة تاريخ اللغة من أهم فروع علم اللغات المعاصر.

إن الباحث في أحد فروع علم اللغة يقوم بالكثير من أجل تحديد ميدان الوقائع والظواهر، والعمليات التي تقع في نطاق علمه، ويأخذ في الحسبان اتجاهات فروع العلم الأخرى.

إن العناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى نشأة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة.

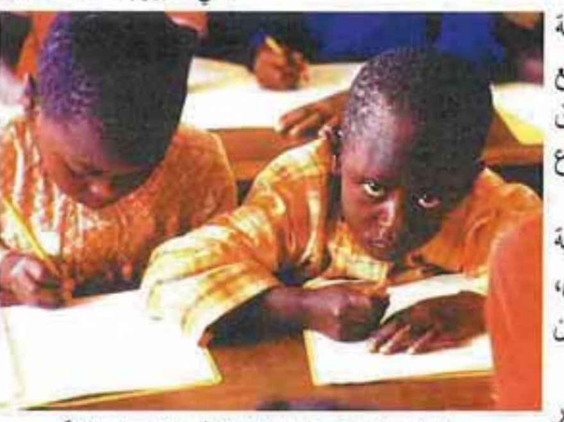
وفي هذه الدراسة المعروضة لا أسبر خصائص علم اللغة وفروعه النوعية؛ وإنما أكتفي فيها بهذا القدر من التعريف العلمي، وأترك التفصيلات حتى لا يكون هناك خروج عن الهدف من البحث، والذي يعتمد على البدايات المعرفية السابقة تمهيداً لإدراك أزمة اللغات المعاصرة. وذلك أنه، كحقيقة علمية، لا يمكن وضع حلول لمشكلات اللغة دون الارتداد إلى الأصول المعرفية والاصطلاحية الثابتة لها. وهذا ما تناولته السطور السابقة. وليكن الموضوع التالي مختصاً باستقصاء ظاهرتي موت اللغات، وخطر ابتلاع لغة الشبكات الاتصالية لغة الشعوب، داخل منظومة يفهم منها إلى أي مدى تهدد العولمة خصوصية الشعوب، مما يتطلب إستراتيجية فاعلة مؤمنة للغات، خاصة وأنها تتعرض أساساً للفناء والزوال، وحتى خارج تهديد العولمة، وخطرها - كما سبق تكرار ذكر ذلك - يحمل لواءه اللغة العالمية الواسعة التطبيق في نظم الاتصالات المعلوماتية.

وعلى الرغم من أن الدراسة لا تميل نحو الخوض في تفصيلات فروع علم اللغة، إلا أن الظاهرتين السابقتين تتصلان بارتباط لازم بالأسس المعرفية، ومنهجية دراسة علم النفس اللغوي، Psycholinguistics، فهو فرع للبحث العلمي يدرس اعتماد عمليات الكلام وإدراك الكلام على بنية لغة خاصة (أو اللغة بشكل عام). وقد ارتبط قيام علم النفس اللغوي وتطوره بسلسلة كاملة من المهام التطبيقية لعلم النفس الهندسي، وعلم النفس العصبي، وعلم النفس المرضي، والتدريب على اللغات الأجنبية.

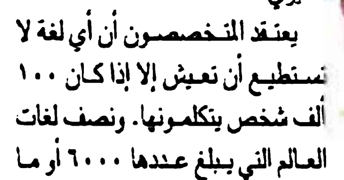
موت اللغات

ظاهرة تفردت رسالة اليونسكو بتقديم إطلالة عليها بفضل بحث عالم نفس اللغويات رانكا بجيلياك - بابيك Ranka Bjeliac - Babic.

منذ قديم الأزل، كانت اللغات تولد وتتعايش وتموت مع المجتمعات التي أفرزتها. ولكنها اليوم تموت بسرعة لم يسبق لها مثيل. ونتيجة لما سمي «حروب اللغات» قد تختفي الأغلبية العظمى للغات التي يتكلمها العالم اليوم، والتي يبلغ عددها ٦٠٠٠ لغة. في المستقبل القريب يتعرض التعدد اللغوي للخطر، ومعه جزء من التراث الإنساني، لأن اللغة هي حجر الزاوية للتنوع الثقافي، الذي هو بدوره الدعامة الأساسية للحفاظ على التنوع الحيوي.



يولد الإنسان ولديه الاستعداد الفطري لاكتساب اللغة



يعتقد المتخصصون أن أي لغة لا تستطيع أن تعيش إلا إذا كان ١٠٠ ألف شخص يتكلمونها. ونصف لغات العالم التي يبلغ عددها ٦٠٠٠ أو ما يقرب من ذلك يتكلمها اليوم أقل من ١٠ آلاف شخص، وربع لغات العالم يتكلمها أقل من ١٠٠٠ شخص. وعشرون لغة فقط يتكلمها مئات الملايين من الأشخاص.

إن موت اللغات ليس ظاهرة جديدة؛ فمنذ تنوع اللغات، ولد ثم اختفى على الأقل ٣٠ ألفاً منها (يقول بعضهم: إن العدد يصل إلى نصف مليون). واللغات في العادة لها فترة قصيرة، ومعدل عالٍ جداً للوفاة. وعدد قليل منها فقط يشمل الباسك والعربية والصينية واليونانية والعبرية واللاتينية والفارسية والسانسكريتية والتاميل قد عاشت أكثر من ٢٠٠٠سنة.

أما ما هو جديد فهو السرعة التي تموت بها هذه اللغات. لقد تسببت غزوات أوربا الاستعمارية في انخفاض حاد في التنوع اللغوي، واستبعدت على الأقل ١٥٪ من كل اللغات التي كان يتكلم بها الناس في ذلك الوقت. وعلى مدى ثلاثمئة من الأعوام الأخيرة، فقدت أوربا ١٢ لغة، وأستراليا لم يتبق فيها سوى ٢٠ لغة من المئتين والخمسين

التي كانت موجودة في نهاية القرن الثامن عشر. وفي البرازيل مات نحو ٥٤٠ لغة (ثلاثة أرباع الإجمالي) منذ بدء الاستعمار البرتغالي عام ١٥٣٠م.

وكان صعود الدول ـ الأمم، والتي كانت وحدة أراضيها مرتبطة بشكل وثيق بتجانسها اللغوي، حاسماً في اختيار لغات قومية وتدعيمها، وتجنب لغات أخرى. وببذل جهود ضخمة لترسيخ لغة رسمية في التعليم، وفي وسائل الإعلام، وفي الخدمة المدنية، حاولت الحكومات استبعاد لغات الأقليات.

وعملية التوحيد اللغوي هذه عززها التصنيع والتقدم العلمي، اللذان فرضا أساليب جديدة للاتصالات السريعة والمباشرة والعملية. وأصبح التنوع اللغوي ينظر إليه كعقبة أمام التجارة وانتشار المعرفة. وأصبح استعمال اللغة الواحدة هدفاً منشوداً، وفي نهاية القرن التاسع عشر ولدت فكرة اللغة العالمية ـ بل تم التفكير في العودة إلى اللغة اللاتينية ـ مما سمح بظهور عدد كبير من اللغات المصطنعة. وكان أولاها الفولابدك. واللغة التي اكتسبت أوسع قبول، وعاشت أطول مدة هي الإسبيرانتو.

ومنذ عهد قريب، أدت دولنة الأسواق المالية، وانتشار المعلومات بالوسائل الإلكترونية، ومظاهر العولمة الأخرى إلى تكثيف التهديد للغات «الصغيرة» إن اللغة التي لا توجد على الإنترنت هي لغة «أصبحت غير موجودة» في العالم الحديث، وخرجت من اللعبة، وإنها لا تستخدم في الأعمال.

وقد وصل معدل فناء اللغات الآن إلى المستوى الذي لم يسبق له مثيل على نطاق العالم، وهو ١٠ في كل عام، ويتنبأ بعض الناس أن ٥٠ إلى ٩٠٪ من اللغات التي يتكلمها الناس حالياً ستختفي خلال هذا القرن. وقد أصبح الحفاظ عليها مسألة ملحة.

اللغة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي أداة يتواصل بها أفراد مجتمع معين لتستقيم علاقاتهم، وتسير أمور حياتهم، ولهذا كانت معرفة اللغة أو تعلمها ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية

التوزيع الجغرافي والكثافة: عدم التوازن يعجل بظاهرة موت اللغات

طبقاً لتقديرات المعهد الصيفي للغويات (Sil) إن ٣٪ فقط من لغات العالم الـ ٦٠٠٠ لغة، تستخدم في أوربا، بينما يستخدم نصفها في المنطقة الآسيوية الباسيفيكية، مع أعلى معدل في غينيا الجديدة، والتي تستخدم سدس لغات العالم. من هنا كان التراث اللغوي موزعاً بشكل غير منتظم على الإطلاق.. كما أن التنوع اللغوي غير منسق مع كثافة السكان، إذ إن ٩٦٪ من اللغات يتكلمها ٤٪ من سكان العالم، وأكثر من ٨٠٪ هي لغات مستوطنة، أي تقتصر على كل بلد واحد. ونحو ٢٠٪ فقط من اللغات يتكلمها مئات الملايين من السكان في عدة بلدان.

تقدر الموسوعة الإنجليزية Dorling Kindersley -London لعام ١٩٩٧م ـ أن نحو نصف سكان العالم يستخدمون في حياتهم اليومية واحدة من لغات الكوكب الثماني الأكثر انتشاراً، وهي الصينية (١.٢ مليار متكلم)، والإنجليزية (٤٧٨ مليوناً)، والهندية (٤٣٧ مليوناً)، والإسبانية (٣٩٢ مليوناً)، والروسية (٢٨٤ مليوناً)، والعربية (٢٢٥ مليوناً)، والبرتغالية (١٨٤ مليوناً)، والفرنسية (١٢٥ مليوناً). ويقدم معهد سيل ومرصد لينجواسنير أرقاماً مشابهة، بإضافة من يتكلمون لغة ما لكونها «لغة ثانية» إلى من يتكلمونها كلغتهم الأصلية.

عدم التوازن هذا يجعل المتخصصين يتنبؤون بأن ٩٥٪ من كل اللغات الحية ستموت خلال القرن القادم. وفي الوقت الحالي، تختفي عشر لغات كل عام في مكان ما في العالم. بل إن بعضهم يذهب إلى حد القول بأن لغة تموت كل أسبوعين، ومعدل الاختفاء عالٍ بشكل خاص في المناطق التي يوجد فيها أكبر تنوع لغوي.

في إفريقية، هناك ٢٠٠ لغة يتكلم كلاً منها أقل من ٥٠٠ فرد، وقد تختفي قريباً. ويحدد الحد الأدنى لرقم المتكلمين بلغة ما لضمان استمرارها في البقاء بـ ١٠٠ ألف متكلم.

في أمريكا الشمالية، تواجه لغات أهل البلاد الأصليين والكريول أكبر تهديد، وباستثناء بعضها.

وما يقرب من ثلث إلى نصف لغات الهنود الأمريكيين الخمسمئة في أمريكا اللاتينية تتعرض للخطر، مع التنبؤ بأعلى معدل للانقراض في البرازيل، إذ أغلب اللغات تتكلمها مجتمعات صغيرة جداً.

ويتكلم كلا من لغات جنوب شرق آسيا أعداد كبيرة نسبياً من الناس، وسيتوقف مستقبل نحو ٤٠ لغة من الـ: ٦٠٠ إلى ٧٠٠ لغة هناك بدرجة كبيرة على سياسات الحكومة.

من ناحية أخرى، فإن ست لغات فقط من بين لغات شمال شرق آسيا، وعددها ٤٧ لغة، لديها فرصة حقيقية للبقاء في وجه اللغة الروسية، إن عشرين منها قد انقرضت تقريباً، وثماني لغات معرضة «لخطر جسيم» وثلاث عشرة «معرضة للخطر» والمجموعة الأولى يتكلمها اثنا عشر شخصاً على الأكثر. والمجموعة الثانية مستخدمة على نطاق واسع ولكنها لاتنتقل إلى الأبناء.

والنوعية الثالثة تشمل لغات يتكلمها بعض الأبناء، ولكن عددهم يقل تدريجياً، طبقاً للحصر والإحصاء الأخير في طور إعداد كتيب به سيصدر قريباً عن اليونسكو «الكتاب الأحمر حول اللغات المعرضة للخطر: أوربا وشمال شرق آسيا».

وفي أوروبا، هناك ١٢٣ لغة مستخدمة، تشمل نسعاً انقرضت تقريباً، و٢٦ معرضة لخطر جسيم و٣٨ معرضة للخطر، طبقاً لكتاب اليونسكو.

شبح العولمة اللغوية

إن آثار موت اللغات خطيرة لأسباب كثيرة؛ فأول شيء هو أنه إذا انتهى العالم إلى الكلام جميعاً بلغة واحدة، فإن العقول ستفقد بعض قدرتها الطبيعية على الابتكار اللغوي، ولن يستطيع المثقفون أن يسبروا أصول اللغة الإنسانية، أو كشف غموض «أول لغة». وبموت كل لغة يغلق فصل من تاريخ البشرية، هذا ما يقوله العالم بابيك Babic... ويضيف: أن تعدد اللغات هو أدق انعكاس لتعدد الثقافات، وتدمير الأولى سيؤدي حتماً إلى ضياع الثانية. إن فرض لغة ليس لها أي رابطة بثقافة شعب ما وأسلوبه في المعيشة يخنق التعبير عن عبقريتهم الجماعية. إن اللغة ليست الأداة الرئيسة للتواصل الإنساني فقط، إنها أيضاً تعبر عن رؤية الذين يتكلمونها للعالم، وتعبر عن خيالهم، وعن أساليب استخدامهم للمعرفة.

ويقول الباحث رولاندج. ل. بريتون Roland J.L. Breton: في تاريخ يرجع إلى عام ١٩١٩م: استطاع الرئيس الأمريكي ويلسون أن يجعل معاهدة فرساي التي أنهت الحرب العالمية الأولى بين ألمانيا والحلفاء تكتب باللغة الإنجليزية والفرنسية. ومنذ ذلك الوقت فرضت الإنجليزية نفسها في الدبلوماسية، وتدريجياً في العلاقات الاقتصادية والإعلام. وتبدو هذه اللغة مصممة الآن على أن تكون هي المحتكرة للاتصالات على نطاق العالم.

وبينما يبدأ القرن الحادي والعشرون تسير العولمة الاقتصادية المتسارعة جنباً إلى جنب مع الاستعمال المتزايد للغة الإنجليزية. ويتم تشجيع المزيد والمزيد من الناس على استخدام اللغة الإنجليزية، أو إرسال رسائلهم بها بدلاً من لغتهم الأصلية. والكثيرون لا يمانعون في ذلك، إنهم يرون ذلك جزءاً من الاتجاه الذي لا يمكن تجنبه نحو التوحد على نطاق العالم، ووسيلة يستطيع بواسطتها عدد متزايد من الناس أن يتصلوا مباشرة بعضهم ببعض.

من وجهة النظر هذه، قد يعد انتشار الإنجليزية تطوراً إيجابياً، يوفر الموارد، ويجعل التبادل الثقافي أسهل. وعلى كل حال، يمكن أن يقال: إن تقدم الإنجليزية ليس الهدف منه قتل اللغات المحلية، ولكن ببساطة وسيلة للوصول إلى مجال أوسع من المستمعين.

هذا جائز، ولكن قبول ذلك، بوصفه الوضع النهائي، يتجاهل الروابط العميقة الجذور بين الحرية الفردية والسلطة السياسية، وبين الآليات اللغوية والاجتماعية والاقتصادية التي تدعم في كل مجتمع العلاقات بين الناس والجماعات، وبين الثقافة والمجتمعات. إن الفرد يترك علاقته من خلال قدرته على استخدام اللغة أو اللغات الأكثر فائدة. وعلى مدى عدة أجيال تقضي اللغة الأكثر فائدة على اللغات الأخرى.

الاستعمار الثقافي أكثر مكراً من الاستعمار الاقتصادي، والذي هو ذاته ملموس ومرني بدرجة أقل من الاستعمار السياسي والعسكري الذي تكون تجاوزاته واضحة، وتسهل إدانتها.

إن القضاء على اللغات، سواء تم بقصد أو من دون قصد، هو إحدى الأدوات الأساسية لقتل الأعراق، ولحرمان الشعوب من ثقافتها التي كانت دائماً هي الجريمة التي كان يرتكبها الاستعمار، وهي ما زالت الهدف شبه الرسمي للحكومات التي لا تعترف بحقوق الأقليات العرقية المحلية لديها. وبما أن اللغات المحلية تستبعد بشكل متزايد من الأنظمة التعليمية، فإن عملية «القضاء على اللغات» تزداد بسرعة.

لقد حان الوقت الآن لعقد قمة لمعالجة موضوع اللغات، إن الحاجة لحماية اللغات بدأت تلقى تقديراً في أواسط القرن العشرين، عندما تم إدخال حقوق اللغة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (المادة٢). ومنذ ذلك الحين، تم إقرار عدد من الأدوات، وتم البدء في بعض المشروعات لحماية ما يعد الآن تراثاً للإنسانية. هذه القوانين والمبادرات لن تمنع اللغات من الموت، ولكنها على الأقل ستبطئ من هذه العملية، وتشجع التعدد اللغوي.

ولئن كانت لغتنا العربية - وهذا واقع لا مجال للتشكيك فيه - محاطة بسياج مانع من خطر الانقراض الذي تعانيه لغات الأقلية... إن سؤالاً يطرح نفسه بقوة: كيف يمكن للغات القومية المستخدمة على نطاق واسع - مثل عربيتنا الأصيلة - أن تقاوم اعتداء الإنجليزية عليها؟.

المراجع

يراجع: سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

١. د. مصطفى ناصف. اللغة والتفسير والتواصل. العدد ١٩٣.
٢. ترجمة مجموعة من المترجمين. جيران في عالم واحد. العدد ٢٠١.
٣. د. أحمد محمد المعتوق. الحصيلة اللغوية. العدد ٢١٢.
٤. ر.هـ.روبنز. ترجمة: د. أحمد عوض. موجز تاريخ علم اللغة. العدد ٢٢٧.
انظر رسالة اليونسكو عدد إبريل ٢٠٠٠. ملف العدد: اللغات: هل تتصارع أم تتعايش؟.
٥. ٦٠٠٠ لغة تراث تستعد للقتال. تأليف: رانكا بيلياك - بابيك.
٦. القادرون والخاسرون. نقلاً عن المقال الأنموذجين المرفقين.
٧. حرب اللغات - هل يمكن إنزال الإنجليزية من عرشها؟. تأليف: رولاندج ـل. بريتون.
٨. المعجم الوجيز. مجمع اللغة العربية. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. ١٩٩٧م.
٩. مختار الصحاح. ط٩. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. ١٩٦٢م.
١٠. المصباح المنير - الجزء الأول والثاني. الطبعة٦. المطبعة الأميرية ١٩٣٦م.
١١. معجم علم النفس المعاصر. ترجمة حمدي عبدالجواد وآخرين. دار العالم الجديد. الطبعة الأولى. ١٩٩٦م.

القواعد المتبعة في علم اللغة لإثبات القرابة بين اللغات

الطاهر محمد داود
كانو - نيجيريا

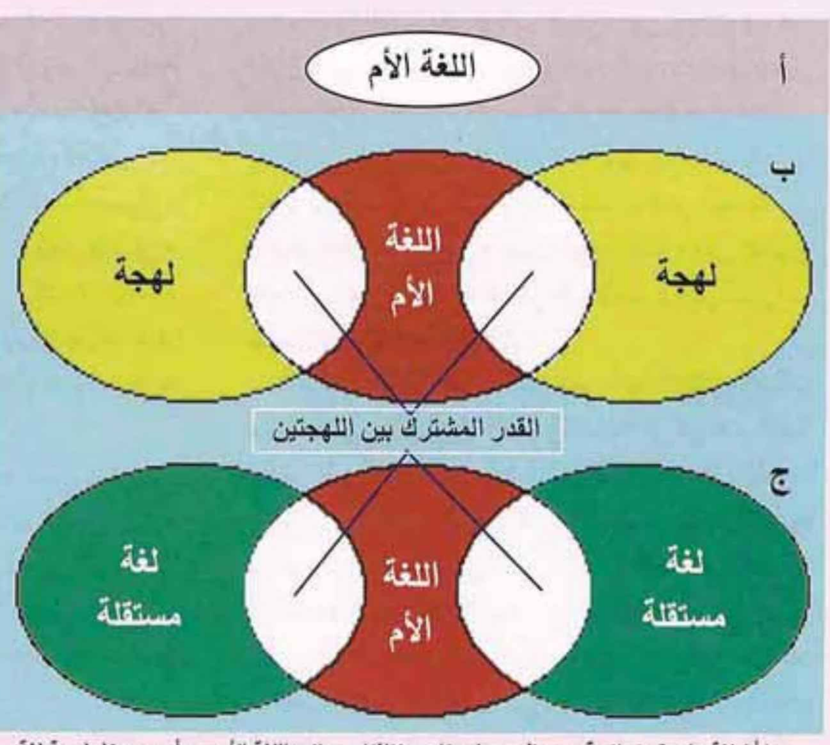
قُسمت اللغات البشرية فصائل وأسراً على أساس ما بينها من أوجه التشابه والاختلاف؛ فقد لوحظ أن بعض اللغات تتشابه في أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية؛ مما يوحي بأنها أخوات تفرعت من أمٍّ واحدة.

فمن سمات اللغات أنها في تطور مستمر، وإذا حدث انعزال بين أفراد اللغة الواحدة لأسباب جغرافية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها يسير تطور اللغة لدى كل مجموعة على نحو مختلف، فينشأ عن ذلك اختلاف في لهجات اللغة الواحدة، وكلما زاد انعزال كل مجموعة عن أختها، زاد الاختلاف بين اللهجات حتى تبلغ درجة الاختلاف حداً لا يفهم عنده أفراد كل مجموعة لغة إخوانهم، وعندها نقول: إن كل لهجة قد أصبحت لغة مستقلة بنفسها ليس بينها وبين أختها إلا قدر مشترك يشير إلى أنهما من أصل واحد.

والرسم في الصفحة المقابلة يقرب صورة هذا التطور بين مجموعات اللغة الواحدة إلى لهجات ثم إلى لغات مختلفة.

وعند الموازنة بين لغات من أصل مشترك، سنجد أن هناك أوجه تشابه في الأصوات والمفردات والقواعد. ولكن يجب الحذر عند إجراء الموازنة، فبعض أوجه الشبه قد يكون بسبب اقتراض إحدى اللغتين من الأخرى، مثلاً: الشبه بين اللغة العربية واللغة الفارسية في عدد كبير من المفردات لا يعدّ دليلاً على أن أصلهما واحد، فالفارسية لغة هندو أوربية بينما العربية لغة أفروآسيوية، ولهذا وضع علماء اللغة قواعد ألزموا كل من يقوم بالموازنة من أجل إثبات أصل مشترك مراعاتها، وهي كما يأتي:

ـ اشتراك لغتين أو أكثر في الأصل لا يعني بالضرورة اتحاد المتحدثين بتلك اللغات في أصولهم العرقية (الجنسية)(١). فقد يحدث أن يهجر شعب لغته الأصلية، ويتخذ لغة أخرى لغةً له لأسباب سياسية أو اجتماعية أو غيرها، والأمثلة على ذلك كثيرة: فأقباط مصر قد هجروا لغتهم القبطية، واتخذوا العربية لغة لهم حتى انقرضت القبطية، ولم يعد لها وجود فعلي إلا في بعض الأدعية القصيرة في الكنائس، وكذلك ترك معظم بربر شمال إفريقية لغتهم البربرية، وتحدثوا بالعربية، وترك شعب الفرنك في فرنسا أيضاً لغته الجرمانية، واتخذ لساناً لاتينياً هو ما يعرف الآن باللغة الفرنسية.



(أ) لغة واحدة متجانسة. ب ـ ظهرت لهجتان مختلفتان بجانب اللغة الأم. ج ـ أصبحت كل لهجة لغة مستقلة ليس بينها وبين أختها إلا قدر يسير من أوجه التشابه وقد تنقرض اللغة الأم

في عشيرة واحدة مع العربية، بل وضعت الهوسا؛ لأنه ثبت أن تلك المفردات المشتركة بين العربية واللغات الفارسية والأوردية والسواحلية هي من قبيل الاقتراض بين اللغات وليس من قبيل صلة القربى.

ـ لذلك قالوا(٣): إن اشتراك اللغات، في الألفاظ يدل على أصل واحد بالشروط الآتية:

* ألاّ يكون الشبه قد حدث نتيجة اقتراض إحدى اللغتين من الأخرى.

* ألاّ يكون الشبه قد حدث بالمصادفة، يقول العالم قرين برج(٤): إن الألفاظ المشتركة بالمصادفة بين لغتين لا تتجاوز نسبتها ٨٪، وتتضاءل هذه النسبة حتى تصبح صفراً كلما كانت الموازنة بين عدد أكبر من اللغات.

* ألاّ يكون اللفظ المشترك مما صيغ على طريقة محاكاة الأصوات Onomatopoeia، مثل الصفير والخرير والمواء والأزيز والصرير والأنين وغيرها، لأنها مما قد يحدث الاشتراك فيه نتيجة المحاكاة، ولو لم تكن هناك علاقة بين اللغات.

* إذا استبعدنا الألفاظ المشتركة نتيجة العوامل الثلاثة السابقة فإننا يمكن أن نزعم أن تلك اللغات من أصل واحد.

* يشترط في الألفاظ المشتركة أيضاً أن تكون من مفردات اللغة الأساسية التي تشير إلى المظاهر الموجودة في البيئة التي نشأت فيها اللغة الأولى، مثل مظاهر الطبيعة والحيوانات والنباتات وأعضاء جسم الإنسان والعلاقات الأسرية والأعداد وغيرها، مما لا يستغني عنه الإنسان، ولذلك يفترض أن الإنسان ـ لابد ـ قد لاحظها منذ حياته الأولى، ووضع لها أسماء تدل عليها.

وعلى صعيد آخر عندما نقول: إن لغة هوسا أخت للعربية، وإنهما من أصل واحد مشترك، فإن هذا لا يعني أننا ننكر اختلاف الشعب العربي من ناحية السلالة البشرية بصفته شعبًا ساميًا عن الشعب الهوسوي بوصفه شعبًا زنجيًا، بل كل ما نريد توضيحه هو علاقة ثقافية، هي: اللغة التي تربط بين الشعبين. وبما أن مثل هذه الرابطة القوية لا يمكن أن تنشأ من فراغ، فإنه لابد أن يكون قد حدث اتصال قوي بين الشعبين في حقبة تاريخية بعيدة تغوص جذورها في أعماق الماضي الغابر إلى عهد نشأة اللغتين.

ـ عند محاولة إثبات الصلة بين اللغات فإننا نهتم بنوعية أوجه الشبه وليس بكميتها(٢).

المقصود بنوعية أوجه الشبه، وليس كميتها: التعويل على نوع الشبه ودلالته، وليس عدده أو نسبته المئوية، فمثلاً: نسبة الكلمات المشتركة بين العربية وكل من الفارسية والأوردية والسواحلية أكبر مما هي عليه في لغة هوسا، وعلى الرغم من هذا لم توضع تلك اللغات

ـ مما يدل على الأصل المشترك وصلة القرابة بين اللغات أيضاً: اطّراد التبادل الصوتي(٥) وهو أن اللغة في تطورها قد تخالف شقيقتها بتغير صوت بصوت آخر مشابه له، كما نجد في اللغات السامية، فالشين في العبرية تقابلها السين أو الثاء في العربية، فكلمة «سوق» العربية يقابلها لفظ «شوق» العبري، وكلمة «لسان» العربية يقابلها «لا شون» في العبرية، وكلمة «ثلاثة» تقابلها «شالش» العبرية. والياء في العبرية تقابلها الواو في العربية، مثل: «يالد» بمعنى «ولد»، و«يارش» بمعنى «ورث».

ولقد سبق الذكر أن اللغة في تطور مستمر، ولكن هذا التطور محكوم بقوانين وقواعد، من أهمها قانون التبادل الصوتي؛ ومن أمثلته أيضاً في اللغة العربية ما حدث لبعض أصواتها من تغيير(٦) فصوت الثاء كثيراً ما يتبدل إلى التاء في اللهجات العربية العامية (الدارجة) مثل:

ثوم = توم

ثلاثة = تلاتة

ثمن = تمن

ثوب = توب

فإذا وجدت كلمة في اللغة الدارجة فيها تاء تقابلها ثاء في اللغة العربية الفصحى فلا تتردد كثيراً في عدّ تلك الكلمة هي الكلمة الفصحى نفسها، وقد حدث فيها تغير حسب قانون التبادل الصوتي في اللهجة الدارجة.

وأهمية هذا القانون في دراسة التشابه بين اللغات هو عند الموازنة بين المفردات المشتركة؛ فقد نلاحظ بعض الاختلافات بينها، ولكن يمكن في ضوء قانون التبادل إعادة بناء تلك المفردات والتقريب بينها. ويحدث التبادل الصوتي كثيراً بين الأصوات المتشابهة في الصفة، أو المتقاربة في المخرج(٧). ولكن يجب الحذر، فإن القانون الصوتي ليس قانوناً مطلقاً في كل الأحوال، بل كثيراً ما تظهر فيه حالات شاذة(٨).

ـ مجرد تشابه اللغات في مفرداتها لا يكفي لإثبات صلة القربى بينها، بل لابد من تشابه في قواعد اللغة أيضاً، لأن القواعد من أهم ما تمتاز به الفصائل اللغوية بعضها من بعض، فمنها تتكون شخصية اللغات، وإليها ترجع مقوماتها، وهي تمثل المظهر الثابت المستقر في اللغات، وهي لا تكاد تتغير، وما يحدث فيها من تغيير يجري دائماً ببطء، وفي نطاق ضيق. وهي إلى هذا كله لا تنتقل بطريق الاقتباس من لغة إلى أخرى(٩)؛ وانتقال القواعد من لغة إلى أخرى معناه الإيذان بزوال اللغة التي انتقلت إليها، واندماجها في اللغة التي انتقلت منها.

فتشابه لغتين في القواعد يدل إذن على انتمائهما إلى فصيلة واحدة، واختلافهما فيها يدل على اختلاف فصيلتيهما.

هذه الشروط التي قيدها علماء اللغة مهمة جداً لدراسة صلة القربى بين اللغات، والاهتداء بها واجب للوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار.

المراجع والهوامش

١. الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، دار الشرق، ط:٢، ١٩٦٩م، ص٧٩، وانظر أيضاً اللغة فندرس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م، ج١، ص٣٦٧، و«التعريب في ضوء علم اللغة المعاصر» فقد تناول مؤلفه الدكتور عبد المنعم محمد حسن الكاروري قضية اللغة والجنس ببعض التفصيل، ص: ١٧-٢٠، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط أولى، ١٩٧٦م.

2- " In trying to establish genetic relationship..... it is the quality not quantity, of evidence that matters " the Classification of Chadic within Afroasiatic, universitaire Pers, Leiden, 1980 P. 21.

٣. معالم اللهجات العربية ، دكتور عبد الحميد محمد أبو سكين، مطبعة الأمانة، مصر، ب ت، ص٢٤، وانظر أيضاً:

Istvan Fodor, the problems in the classification of the African languages, third edition, Budapest, 1969, P.21

وانظر أيضاً:

Allan R. Keller, A Reader in Historical and Comaprative Linguistics, Holt Rinehart and Winston Inc. New York, P. 4-15

٤. المرجع السابق، ص٨٣.

٥. حول قانون التبادل الصوتي انظر:

R.H. Roobins,A short history of linguistics, second edition, Longman, London, P 183.

٦. انظر فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر بيروت، ط٥، ١٩٧٢م، ص٥٤ ـ ٧٣.

٧. معالم اللهجات العربية، د.عبد الحميد محمد أبو سكين، ص٢٤.

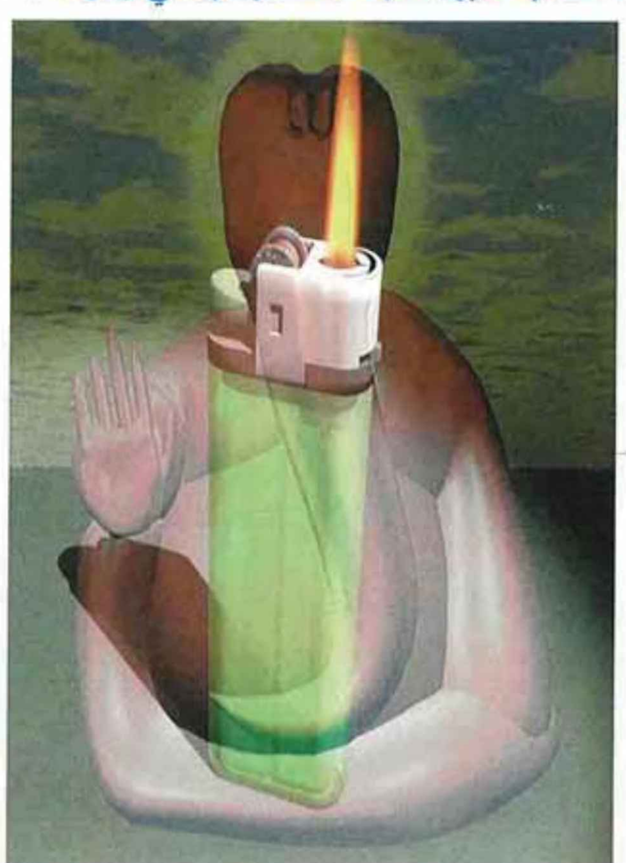
8- The problems in the classification of the African Languages, P.89.

٩. علم اللغة ، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٧، ص٢٢٤.

غواية الصورة.. فلسفة التضليل الإعلاني !

محمد سيف حيدر النقيد
صنعاء - اليمن

يشهد العالم منذ بداية القرن العشرين حتى الآن ثورة تقنية هائلة شملت كل نواحي الحياة الإنسانيّة، وقد اتسعت مساحة هذه الثورة، واشتدت ضراوتها حتى غدا الفرد محاطًا في جميع أوقاته بكل وسائل الترفيه التقانية غير القابلة للحصر، والتي وفرها له عصر التقنية الفائقة High Technology Age، وفي خضم هذه الثورة شرع نموذج المجتمع المعاصر في تنميط نفسه بسرعة ليحل محل المجتمع التقليدي.



ولعل أهم ما يميز هذا النموذج المعاصر للمجتمع العالمي أنه مجتمع إعلامي إلكتروني Information electronic society، وهو بهذه الصورة النمطية يكسب الثقافات المحلية المعاصرة بعدًا تقنيًا بحيث يؤطر خاماتها بوسائط إعلامية إلكترونية تضمن احتواء الإنسان وتوجيهه بل وربما اقتلاعه من جذوره الثقافية الأصلية، أو على أقل تقدير (قولبة) قيمه النفسية والاجتماعية.!

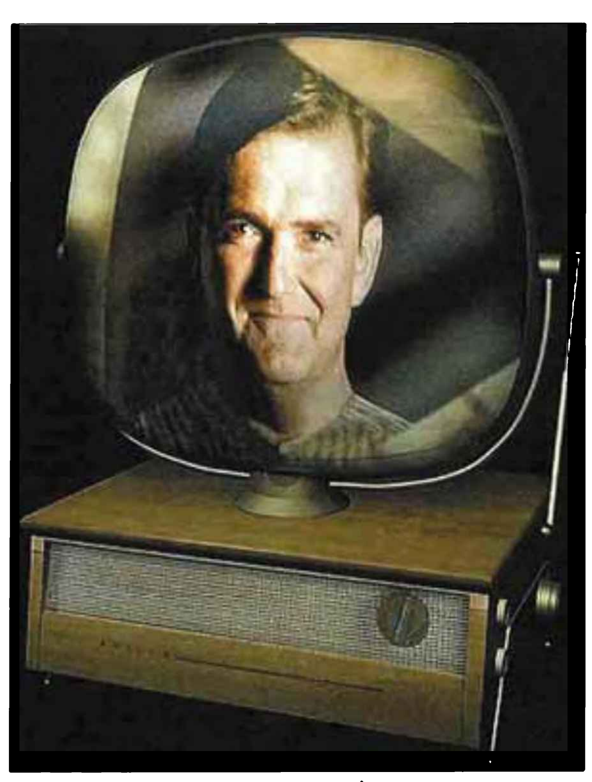


التلفاز .. الوعي مجردًا

منذ البدايات الأولى لثورة التقنيات الحديثة، وبالذات منذ انتشار فكرة الصورة الموجّهة التي صاغها العالم البريطاني جون ل. بيرد (١٨٨٨ - ١٩٤٦م) في شكل أكثر حركية باختراعه التلفاز الميكانيكي عام ١٩٢٣م، بدأت سلطة الصورة التلفازية تظهر إلى الوجود بوصفها قوة فاعلة لها تأثيرها في الوسط الاجتماعي بل الحضاري أيضًا، ومع تقدم وسائط

الإعلام المختلفة تقانياً، أصبحت سلطة الصورة سواءً في سلوكها الميكانيكي (المتحرك) أو الإستاتيكي (الساكن) أكثر فاعلية وقوة؛ لأنها أصبحت أكثر حداثة وبهراً.. لقد تحولت وسائل الإعلام اليوم إلى سلطة نافذة في حد ذاتها، وغدت الصورة التي تؤطر العمل الإعلامي المرئي «غواية» تتلذذ باستقطاب المتلقي، ومن ثم إقامة أنواع العلاقات المشروعة وغير المشروعة كافة معه.. ومن الثابت أن الصورة، ليست محايدة على أي نحو، فهي التجسيد المادي (للأيديولوجية) الكلمة(١)، وهي الناطق الرسمي باسم الكلمة عندما تعجز الحروف عن التعبير الشفهي؛ ومن هذه الزاوية تتحول الصورة - أيًا كان موضعها أو موضوعها - إلى أداة إيحائية شديدة البلاغة، تُغني الوسط المتلقي عن الكثير من الهذر الكلامي أو الحشو الذي لا فائدة منه!.

إن أخطر الوسائط الإعلامية - بلا شك - هو ذلك الجهاز الصغير المحاط بصندوق بريء المظهر والموسوم بـ «التلفاز»، فهو ليس مجرد «نظام مركز لسرد القصص»(٢)، بحيث يقصر عمله على التثقيف أو التسلية والترفيه في صيغتها البصرية، بل تمتد صلاحيات سلطاته وحدود قوته إلى حدٍّ يتم فيه سبك الرأي



الصورة أداة إيحائية شديدة البلاغة

العام وقولبته حسب صياغة خاصة ومقصودة، فالتلفاز بطبيعته ذاتها - كما يحلو للمؤرخ البريطاني فيليب تايلور Philip Toylor أن يقول - وسيطٌ قادر على الإقناع(٣).. كما تزداد خطورة هذا الجهاز عمقًا إذا ما علمنا مدى سعة انتشاره وسرعته، إذ لم يعد محصوراً في مجتمعات بعينها أو فئة بذاتها، بل بات ظاهرة كونية مرعبة ومدهشة في آن واحد، فخريطة الفضائيات التي تسيطر عليها كل من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والدول الأوروبية تشير إلى وجود ١.٢٦ بليون جهاز تلفاز في مختلف بقاع العالم، منها ٢٠٠ مليون جهاز بالكابل، وزهاء ٦٠ مليوناً مرتبطة بمجموعة رقمية(٤). وإذا كنا، بواسطة هذه الإحصائيات (القابلة أرقامها للزيادة بطبيعة الحال!) نعرف مدى سطوة هذا الجهاز المرئي وتأثيره - أو غوايته - بتعبير أكثر دقة - لأمم بأكملها، إلا أن قيمة تلك المعرفة وأهميتها ترتفعان إذا ما حصرناهما في نطاق أكثر ضيقًا ومتمثل في الحدود الشخصية للفرد المتلقي، فإذا ما بحثنا في طبيعة العلاقة بين التلفاز والدماغ فسنجد أن التلفاز يبعث على الارتخاء، يجذب البصر، ويتحكم في نظرنا.. وإذا كان الوسيط ينقل الرسالة Massage على حد قول عالم الاجتماع الكندي مارشال ماكلوهان Marshall Mcluhan فيمكننا أن نقول عن التلفاز: إنه يقوم بعملية تدليك Massage للدماغ، وهي ظاهرة قريبة من حالة الارتعاد الحلموي Transe Hypnoidale، التي تعرف في الأدبيات النفسية (السيكولوجية) بأنها المرحلة الأولى من التنويم المغناطيسي(٥)، وتتضح فعالية هذا التدليك الدماغي عندما تنهمك عقولنا في تجربة تلفازية ما حيث تستقبل بيانات إدراكية، فتملأ إحساسات التجربة العقل تمامًا على نحو يفوق بكثير التجارب العادية للحياة الواقعية. وفي الجانب الأكثر من الإدراك التلفازي العادي، لا يصحب المشاهدة سوى القليل من التفكير أو التذكر.. وتشدد الباحثة الأمريكية ماري وين Marie Winn(٦) على هذا التحليل فترى أن الحالة الشعورية في أثناء المشاهدة التلفازية ليست بعيدة عن الحالة التي أطلق عليها متعاطو المخدرات وصف الوعي المجرد Pure awarenss، وهي التي يكون فيها الشخص على وعي كامل ونشيط بتجربته، ودون أن يكون هناك وجود لعمليات تفكير، أو ممارسة أو تفسير. فالإحساسات تملأ انتباه الشخص، وهو انتباه سلبي، إلا أنه مستغرق فيما يحدث، وهو ما يكون في العادة قوياً ومباشراً. إن الوعي المجرد - كما حللته الباحثة - اجتياز للتجربة من دون أي ارتباطات بما يكون هناك!.



الإعلان يلاحق الإنسان أينما حلّ

ديكتاتورية الصورة

لقد ارتبط الوعي المتلفز بحياة المجتمعات الإنسانية ارتباطاً «كاثوليكياً» وثيقاً، فبواسطته زُخرفت القيم الاجتماعية، وأذيعت ملونة وبراقة، عن طريقه رسخت مفاهيم خانقة كثيرة، أمثال: (جيل التلفاز Television Generation)، و(الجسد ـ السلعة)، و(التثقيف السلطوي المنظّم)... إلخ، وقد ساعد على تأصيل هذه المفاهيم، قدرة الجهاز الإعلامي ـ الذي يبرمج هذا الوعي ـ على توليد السلبية. فليس هناك ما هو أسهل من إدارة مفتاح التشغيل والاستلقاء على أريكة، وترك الصور تشق طريقها ـ دون وساطة ـ إلى الذهن. وعندما يتم إكمال ذلك الميل نحو توليد السلبية الخاص بأدوات الاتصال المعدنية بالبرامج المعلبة التي تسعى عامدة إلى إحداث التأثير المعطّل نفسه، فإن النتيجة ـ عادة ـ تكون مذهلة!، ويمكننا الاستشهاد بالمثال الحي الآتي: ففي رحلة قام بها عام ١٩٩٣م كل من الصحافيين الألمانيين هانس بيتر Hans Peter وهارالد شومان Harald Schumann إلى مملكة بوتان Bhutan البوتنية الواقعة على سفوح جبال الهملايا، والتي كانت إلى فترة وجيزة نقية التراث، خالية من المؤثرات الأجنبية، لاحظا أن سلطان الصور المتحركة قد أخذ يعمُّ شباب شانجري ـ لا Shangri - La هناك، وحسب وصفهما، فإنه على الرغم من كون السكان لا يزالون «مواظبين على لف ركبهم بجلاليب سميكة تقيها من عنت السجود المتواصل الذي يمارسونه، وهم في طريقهم للحج إلى الأماكن المقدسة، ويزاولون الزراعة بطرائق تعود إلى العصور الوسطى، إلا أنهم أيضاً قد صاروا يكنون الإعجاب والتقدير لأولئك المواطنين الذين يرتدون فوق زيهم الشعبي المعطف الجلدي، على الطريقة الأمريكية ويتاجرون بأفلام أمريكية طبعت في الهند دونما ترخيص من أصحابها الشرعيين»(٧). وهكذا تحول الوعي الشعبي ـ بصبغته التراثية ـ إلى وعي مشوش تمت تركيبته ثم فبركته إعلامياً ـ عن طريق الطغيان المرئي ـ لتستنسخه قيم مضلّلة غالبة. ففي عالم يسوده نمط أحادي التأثير تفرَّغ القوالب الشعبية من مضمونها التقليدي، ويسود القالب النمطي المعاصر والخاضع للتقلبات (الجيوبوليتيكية) التي تعتري المناخ الدولي، ومن هذا المنطلق تتحول الصورة إلى

أداة للهيمنة، وتأكيد مفاهيم الضد المسيطر، بل تضليل Manipulation عقول البشر، والذي هو على حد قول باولو فريد Paulo Frieire «أداةً للقهر»(٨).

التدجين الإعلاني

إن الغواية التي تفتنَ الصورة في ممارستها أداة سحرية من أدوات التضليل الإعلامي، إن لم تكن هي جوهر هذا التضليل ووسيلته الخارقة، ونحن، إذ ندرس «الصورة» بصفتها أداة قولبة ووسيلة تضليل وتزييف للوعي، لا بد من أن نركز في الرسالة لا في الوسيط الذي ينقلها، ولكي نفعل هذا فإننا بحاجة إلى تعليم أكثر وأفضل عن كيفية عمل الوسيط، وماذا تعنيه الرسالة.. وعلى الرغم من كون التشابه الجوهري في المادة الإعلامية، وفي التوجيهات الثقافية التي تنقلها كل وسيلة من وسائل الإعلام بصورة مستقلة، يستلزم بالضرورة - حسب ما

إقحام الإعلانات التجارية بصورة عرضية خلال البرامج يفرغها من قيمها التنويرية الرامية إلى نشر الوعي بين الجماهير المشاهدة لتصب في قالب آخر جوهره التشتت والتضليل

يؤكده الخبير الإعلامي الأمريكي هربرت شيللر Herbert Schiller - أن ننظر إلى الجهاز الإعلامي بوصفه وحدة كاملة(٩)، إلا أننا سنحاول اختزال الرسالة الإعلامية المرئية - هنا على الأقل - بمناقشة جانب بعينه منها، ولكن من دون سلخه من نسيجه الإعلامي العام تماماً، وبحيث يسهل علينا تحليله واستقصاء معانيه بتفكيك خطابه المرئي، واستنطاق رموزه المختلفة. والجانب الذي نتناوله هنا هو ذلك المعبر عنه بـ «الإعلان».. فالخطاب الإعلاني واحد من أهم مفردات الخطاب الإعلامي عموماً وأخطرها (والمرئي منه بشكل خاص)، إن لم يكن أخطرها على الإطلاق، فبواسطته دأب الإعلام على التعامل مع المشاهد بالأحاسيس والمشاعر المندفعة من أجل امتلاكه ومصادرته وتقييد حرية الاختيار لديه لتطويعه وتدجينه في خدمة السلطة والسلعة(١٠). وساعد النشاط الإعلاني على ذلك انفتاحه الكامل على وسائل الإعلام - وحسب رأي شيللر أيضاً(١١) - فإنه، من خلال المجلة التي توزع ملايين النسخ، ومن خلال مذياع السيارة والمطبخ وشاشة التلفاز في المنزل، يجري نشر رسالة التسويق بصورة مستمرة وبالغة التأثير إلى درجة أنه «ليس في وسع النشاط التجاري الإعلاني، إذا أراد أن يكون ناجحاً، أن يتسامح مع قنوات الاتصال الجماهيري التي تستبعد إعلاناته وبرامجه الترفيهية الموجهة تجارياً. ومن ثم فهو يبذل جهداً لا يكلّ من أجل اختراق كل ما هو متاح من منافذ الاتصال ذات الجماهيرية الملموسة. فشهية شركات الإعلان لا تعرف الشبع، كما أن هدفها ليس أقل من السيطرة الكاملة على كل وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيري؛ وبمجرد نجاحها في إخضاع وسيلة من الوسائل، أيّاً كانت الصفات الأصلية لتلك الوسيلة، فإنها تتحول إلى أداة للثقافة التجارية». ومما زاد من قدرة الخطاب الإعلاني على تدجين المتلقي أنه تجاوز دوره النفعي التجاري، ليحتل موقعه ضمن الخطاب الثقافي(١٢) مختزلاً الوجود البشري في بعد واحد هو الاستهلاك، ولا شيء غير الاستهلاك، ووفق هذا الاختزال تتحدد قيمة الأشياء المعلن عنها وقيمة العلاقات، وقيمة الإنسان نفسه، بمدى مردوديتها في إطار نسق استهلاكي صرف!.

سحر الإعلان.. تصنيع اللذة

هناك رباط وثيق بين الصورة - كأداة إعلانية رئيمة - وقدرة المتلقين على الاستقبال والاندماج فالتوحّد، ومن ثم التشيُّؤ Thingfication الإنساني لأولئك المتلقين وفق صيرورة «الغواية» التي تطلقها الصورة المتلفزة، فالرسالة الإعلانية المرئية أساساً مجرد معلومة حسية انطباعية تغلب على مضامينها الانفعالات والأهواء، هدفها إعطاء اللذة (والتي هي حاجة اجتماعية)، ولذلك يتلازم سير المعلومة وسير اللذة الإنسانية(١٣). إلا أن هذا التلازم - وفق هذه المنهجية العابثة - لا يعني - في الأخير - سوى تعليب الوعي الفاعل في قالب موهوم، ومن ثم استدراجه نحو فخ الركود التفسيري بضغط شديد من هواجس اللذة/الحاجة، هذا الضغط ولّدته آليات الخداع الإعلاني بكل مهارة.. أما طقوس العبور خلال منافذ هذه العلاقة الشائكة/البسيطة في آن واحد، فهي شيء أقرب إلى أعمال السحر منه إلى شيء آخر. وقد كتب يوري برونفنبرنر Uric Bronfenbrenner، في زمن ما من القرن العشرين، يقول: «مثلما كان الساحر القديم يفعل، يلقي جهاز التلفاز توليفة الصور بتعويذته السحرية، باعثاً الجمود في

الحديث والفعل، محولاً الأحياء إلى تماثيل صامتة ما دام السحر مستمراً...»(١٤).

ومع استمرار السحر المرئي تخلق الصورة عالماً سحرياً تتلاشى فيه حدود الواقع لتتمازج بالخيال، ويتحول الخطاب الإعلاني الموجه عبر مضامين الصورة إلى وسيط أسطوري (ميثولوجي) أو اتجاهات فكرية مضمرة (إيديولوجية مضمرة) - على حد تعبير مؤرخ التلفاز الأمريكي إريك بارنو Erik Barnouw - تعمل على خلق واقع أسطوري غير موجود فعلاً، كما يحصل في بعض الأفلام الأمريكية ذات الصبغة الإعلانية والتي تقوم بالترويج لبعض الفلسفات الغربية المقننة هوليودياً، وكما يحصل أيضاً في بعض الوصلات الإعلانية التي تشير إلى أن استعمال بعض المنتجات، كأدوات الحلاقة، أو بعض أنواع المشروبات الغازية، يجعل المستهلكين أصحاب جاذبية طاغية تسحر النساء أو أبطالا، بينما لا توجد أدنى علاقة منطقية بين السلع المعلن عنها وذلك الوهم الناشئ عن تلك الصور الإعلانية المشبعة بالإغراء!.

الحصر داخل بؤر الإعلان

يعد الإعلان الذي يوصف بأنه «فولكلور العصر الحديث»، وسيلة استقطاب جبارة، فالصورة التي تختزل المساحة الإعلانية لا تحتاج إلى ترجمة كالكلام، ومن هنا تأتي سهولة إيصالها للمتلقي. وهي تفترض أنها تقول الحقيقة، أو أنها مرادف لهذه الحقيقة، وهي بهذا الافتراض تغتصب شرعيتها ومصداقيتها من خلال مشاهدتها(١٥).

ومما لا شك فيه أن هذه الشرعية مجردة من حقائق الواقع وظروفه، بل تكاد تكون متخيلة تماماً، وبسبب تلك الشرعية المكتسبة توهماً، يبث الإعلان تخيلات أسطورية عن الذات وعن العالم وعن الأشياء في صور نمطية وانطباعات معممة. إضافة إلى أن الإعلان والإعلام - كما يشير الناقد المصري إبراهيم فتحي(١٦) - يشتركان «في بث أخلاقيات لذّية عن الإشباع الخالص، فالمتلقي حرٌ في أن يعيش لنفسه، وأن يحقق ذاته، بمعنى أنه حر في تجسيد الرغبات المسقطة عليه في سلع معروضة. ويقتنع المتلقي السلبي أنه مجموعة من الدوافع والرغبات والأمنيات المباشرة، لن يحقق ذاته إلا بإشباعها بالشراء. هناك سلع تصوّر على أنها رموز المكانة أو الأناقة أو الفحولة أو الشباب. وتتخلل الصور والرسائل الطعام والثياب والسيارات، وتتكامل في خطاب متسق، هدفه أن يتصالح المستهلك مع نفسه ومع أضرابه في عملية نكوصية عن الهناء والأمان في أحضان السلع، وأنواع الخدمات، وقوالب الأفكار والاستجابات»!.

ومع اتساع مساحات القبول الإنساني لها، تطورت آليات الخداع الإعلاني، وازدادت زخماً وكثافة حتى عرفت الرسالة الإعلانية المشبعة، المستفزة للمشاعر، أو ذات الأثر السلبي المضمر، طريقها إلى وسائل الاتصال الدولية لينتهي الأمر بوسائل الإعلام التي لا تتصف أصلا بالطابع التجاري بأن تصبح من الوجهة العملية أدوات معاونة للنشاط التجاري الصناعي(١٧). ولهذا - إضافة إلى ما أشرنا إليه مسبقاً - ما يسوّغه من وجهتي نظر تجارية ونفسية (سيكولوجية)، فإغراء عائدات الإعلان شديد الجاذبية، فضلا عن فرصة ارتفاع حجم



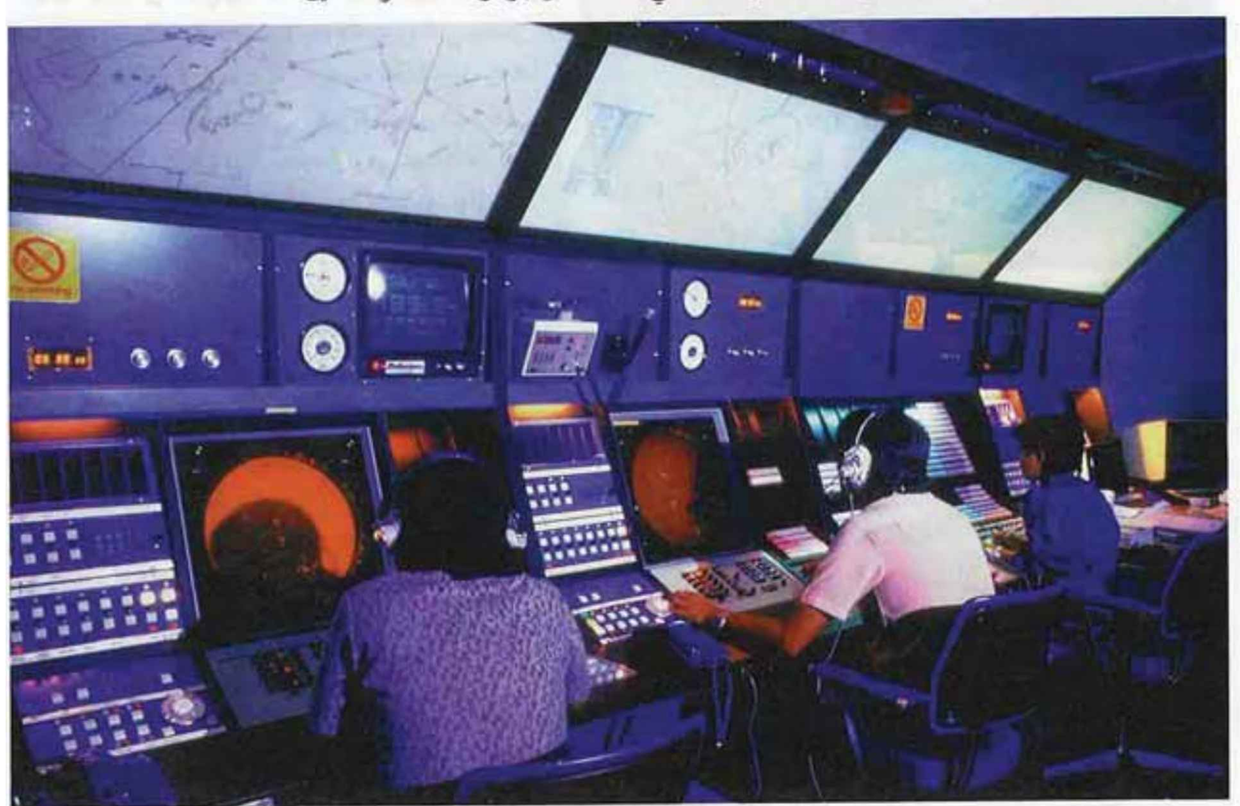
الإغراق الإعلاني يعمّق ثقافة الاستهلاك

الجمهور المشاهد الذي يُمني نفسه بالاستمتاع بما توفره له الإعلانات من ترفيه وتسلية (لأن جوهر تلك الإعلانات غالباً ما يكون جنسياً سافراً أو هو - على الأقل - ذو إيحاءات جنسية مثيرة) إضافة إلى عدد من المنافذ التي تتنفس من خلالها أمنياته الإنسانية، وحاجاته الاجتماعية!.

ومن دلالات تطور آليات التضليل الإعلاني قيام جزء كبير من فلسفته على قاعدة التجزيئية Fragemetation كتقنية إعلامية مهمة يتم من خلالها - وعبر وسائط الإعلام اللاهثة وراء جني الأرباح بشتى الوسائل - نشر الوعي الإعلاني بطابعه الاستهلاكي الصرف. فمن خلال هذه التقنية التي أطلق عليها باولو فرير اسم «الحصر داخل بؤر Focalized

View»(١٨)، تتحول الصحف إلى حشد من الصفحات المحشوة بمواد يتم تدبيجها على نحو جزافي في أغلب الأحيان، أو تماشياً مع القواعد الملغزة للصحافة. وتتعمد المجلات تقطيع المقالات، ونقل معظم النص في صفحات العدد الداخلية، بحيث يتعين على القراء تقليب عدد من الصفحات المتلئة بالمادة الإعلانية حتى يتابعوا القراءة. كذلك يتم قطع برامج الإذاعة والتلفاز بصفة مستمرة لإذاعة فقرات إعلانية. ويشير هربرت شيللر(١٩) إلى أن حدة التجزيئية في الأداء الإعلامي تزداد «من خلال حاجة اقتصاد الاستهلاك لملء فراغات الاتصال بتوجهات تجارية في طابعها. فالحث على الشراء يحاصر الإنسان من كل اتجاه متاح. إذ يجري استخدام الأنفاق، والطرق الرئيسة، والخطوط الجوية، والبريد، والسماء نفسها (الكتابات السماوية) أدوات للهجوم الإعلاني الجارف. وتؤدي اللامبالاة الكاملة التي يتعامل بها الإعلان مع أي حدث سياسي، أو اجتماعي (بإصراره على إقحام نفسه عنوة، وبغض النظر عن طبيعة الموضوع) إلى اختزال جميع الظواهر الاجتماعية إلى مجرد حوادث غريبة لا معنى لها. وعلى ذلك فإن الإعلان، فضلاً عن وظائفه المعروفة مسبقاً، والمتمثلة في بيع السلع، واستثارة حاجات استهلاكية جديدة، وتجميل النظام، يوفر خدمة أخرى لا تقدر بثمن لاقتصاد المؤسسات الضخمة المتعددة الشركات؛ ذلك أن إقحامه في قنوات الإعلام والأعمال الإبداعية يختزل قابلية الجمهور، الواصلة أصلاً إلى حدها الأدنى، لاكتساب أي إحساس بالمعنى الكلي للحدث أو القضية أو الموضوع المطروح».

وتعد برامج الحوار التي تتكاثر في المحيط التلفازي، النموذج المثالي للتجزيء بوصفه شكلاً إعلامياً عاماً. ففي هذه البرامج - والتي تذاع معظمها بشكل حي Liveعلى الهواء مباشرة - يتم تشتيت وعي المشاهد المندمج بشكل جدي مع تفاصيل الحوار؛ وذلك بشكل باهر وعنيف عن طريق إقحام الإعلانات التجارية بصورة عرضية طوال فترة عرض البرنامج، مما ينعكس تأثيره - سلباً - على المتلقي المصدوم، إذ يتم نسف ما علق في ذهنه من معلومات تفيده ككائن اجتماعي مثقف، بواسطة طلقات المدفع الإعلاني المتعاقبة بشكل رتيب وممل (ولكنه مؤثر!). وهكذا يتم تفريغ تلك البرامج من قيمها التنويرية الرامية إلى نشر الوعي بين الجماهير المشاهدة لتصب في قالب آخر جوهره التشتت والتضليل!.



كل وسائل الاتصال في خدمة الإعلان

الإعلان.. امرأة

منذ اللحظات الأولى لتبلور فكرة الإعلان المرئي، حرص المعلنون، يؤازرهم في ذلك معظم الوسائط الإعلامية، على صناعة صورة إعلانية ماكرة يتم - من خلالها - ترويج السلع الاستهلاكية في الوسط المجتمعي. ومن أجل ذلك وظّف المعلنون كل الإمكانات المادية والمرئية في سبيل إغراء المشاهد وجذبه إلى متابعة إعلاناتهم الموجهة والتماهي مع عرضها المرئي.. وبما أن جسد الأنثى هو أقوى الوسائل الاستقطابية على الإطلاق، فقد وظّفه المعلنون بكل الطرائق والأساليب المتاحة من أجل «غواية» المتلقي - أيًا كان - واستخدام وعيه اللاشعوري في إنهاكه، ومن ثم تنويمه مرئيًا، مرتكزين في ذلك على قدرة ذلك الجسد على الإيحاء وتجسيد اللذة في أكثر الأبعاد اتساعًا للمنطق الأبيقوري. وهكذا تمت جنسنة Sexualisation(٢٠) الإعلانات، وتم تقديم جسد المرأة طُعمًا جنسيًا لترصيع ٩٠٪ من الإعلانات(٢١) التجارية. وتأتي أهمية الجسد الأنثوي كأداة إعلانية فائقة القدرة على الإقناع، كما يُفهم من كلام الباحث النفسي جلين ويلسون Glenn Wilson لكون النساء «أكثر تعبيرية» موازنة بالرجال(٢٢). كما أن المرأة غالبًا ما تكون أكثر اقترانًا بالسلعة المعلن عنها وذلك لوجود علاقة وثيقة «بين الإعلان وصناعة السلع الاستهلاكية، والدور الاقتصادي للمرأة المستهلكة؛ لأنها تشكل النسبة الغالبة من المستهلكين». وفي هذا الإطار (أي اقتران المرأة بالسلعة المعلن عنها)، نستطيع أن نقدم نموذجين دلاليين:

النموذج الأول: يقدمه أحد الصحفيين (ب. موراردوف)، إذ قام هذا الصحفي، وعلى نحو مباشر، بتفسير «الغريزة الجنسية كمحرك للإعلان»، وعلى سبيل المثال: الإعلان عن الولاعة «Zippo»، فهناك على واجهتها الأولى توجد عبارة «لا ترفض أبدًا!» وإلى جانبها صورة لامرأة عارية، وعلى الواجهة الثانية - رجل يدخل بلذة واستمتاع. «بعد ذلك سيكون فقط الإنسان الأحمق حمقًا بيّنًا هو الذي لا يقتني مثل تلك الولاعة المعجزة التي بفضلها لن يرفض أحد شيئًا في الفراش!»(٢٣). إنه هذا الصحفي يدرك أن جسد المرأة في الإعلان الجنسي المثير يأتي على هيئة طعم وبضاعة، ولكنه في الوقت ذاته جائزة أيضًا للمشتري، ومع ذلك فهو لا يرى هنا أي مشكلة! إذ يقول: «إن جعل الإعلان مغريًا ومثيرًا جنسيًا.. أمر لا يضر أي أحد بشكل موضوعي، وذلك لأن الشخص المحدود الأفق فقط هو الذي

يوظف المعلنون جسد الأنثى من أجل «غواية» المتلقي - أيًا كان - واستخدام وعيه اللاشعوري في إنهاكه، ومن ثم تنويمه مرئيًا



يمكنه أن يرى فيه شيئًا ما ذميمًا وسافلاً ومنحطًا!!»(٢٤).

النموذج الثاني: يقدمه الباحث السيمولوجي الإيطالي أومبرتو إيكو Umberto Eco(٢٥) من خلال إعلان مصور في إحدى الصحف البريطانية عن نوع من الصابون يراد إغراء السيدات باستعماله. الصورة التي تختزل الرسالة الإعلانية تحمل عنوان «جانبية كامي» (اسم ذلك النوع من الصابون) وتحتوي على مشهد تظهر فيه شقراء شابة على درجة واضحة من الحسن والنعومة في مقدمتها، بينما تنم نظرتها على استجابة استحسان وترقب لنظرات افتتان بها صادرة عن شاب وسيم الطلعة في مطلع الثلاثينيات من عمره، وفي الخلفية جزء من لوحة فنية ينحني برأسه أمامها شيخ في عقده

السادس منهمك في تفحصها في صالة «سوثبي» Sotheby الشهيرة. أما التعليق الإعلاني المنشور أسفل الصورة، فيقول: «إن من في استطاعته الفوز بتحفة فنية ثمينة، يمكنه أن يأسر قلبه سحر «كامي» الذي يذهب بالعقل.. وأنت ـ أيضاً يا سيدتي ـ يمكنك أن تذهبي بعقل مثل هذا الرجل.. إذا استعملت «كامي»، ذلك الصابون النفيس المخصص للعناية ببشرتك.. الغني بالعطور الفرنسية التي تذهب بأفئدة الرجال.. فله عطر غال جداً لا يقاوم. فلتضعي ثقتك في «كامي».. من أجل سحره الذي يجعلك تذهبين بعقول الرجال. سحره الغني بالعطور الفرنسية التي تشدهم...»!.

إلى هنا انتهى سياق التعليق على الصورة في الإعلان الذي يحلله إيكو على النحو الآتي: «في مستوى العناصر الإدراكية المصاحبة Connotations التي تستثيرها أيقونة المرأة: السيدة جميلة بالمقاييس المتعارف عليها، كما تبدو ومن الشمال

مما زاد من قدرة الخطاب الإعلاني على تدجين المتلقي أنه تجاوز دوره النفعي التجاري، ليحتل موقعه ضمن الخطاب الثقافي مختزلاً الوجود البشري في بعدٍ واحد هو الاستهلاك

الأوروبي، غالباً من إنجلترا، وهو إشارة تدل في إيطاليا على المكانة الاجتماعية الرفيعة، وهي تتصف بالثراء، وإلا لما ترددت على قاعة «سوثبي» البريطانية لابتياع مايروقها من تحف، وهي مثقفة؛ لأنها تستطيع أن تقف على القيمة الثقافية للأعمال الثمينة المعروضة، كما أنها ذات ذوق رفيع للأسباب نفسها، وهي إن لم تكن إنجليزية، فهي سائحة من طبقة موسرة. أما الرجل فيتسم بذكورة وثقة بالنفس واضحة تنم عليها ملامحه المطابقة للنموذج السائد في السينما والدعاية. وهو، وإن دل مظهره على أنه إنجليزي، يبدو سائحاً جاب العالم، كما أنه يبدو موسراً، ومثقفاً، وعلى ذوق رفيع (...) كل ذلك يجعل متلقي الصورة يدرك أن ثمة توتراً شبقياً رقيقاً قد نشب بين الاثنين. بينما الاهتمام الخاص الذي يوليه الرجل العجوز الواقف خلف الشاب للوحة الفنية يؤكد أن وجود تلك المرأة قد شد انتباه الشاب إليها بعيداً عن اللوحة الفنية الثمينة، كما أنه يدعم إدراك العلاقة الصامتة الناشبة بين الاثنين، وأن ثمة افتتاناً واضحاً لدى كلا الطرفين. أما الرجل، وهو الذي يلتفت بوضوح نحو المرأة، فلا شك أنها هي مصدر الفتنة». ويستطرد إيكو معلقاً على الجانب العلائقي بين الاثنين في الصورة والنص الإعلاني المرافق لها على النحو الآتي: «يبدو أن النص اللغوي يدعم النص المرئي في هذا الإعلان، إلا أن الصورة هنا توحي بسمات ثقافية رفيعة كحب الفن، والرحلات، والذوق الرفيع..إلخ، بينما لا يدل النص اللغوي المصاحب للصورة على ذلك إذ إنه لا يتحدث عن الذوق الرفيع، أو عشق الفن، وإنما عن الفوز بتحفة ثمينة، أي إنه يترجم الإيحاءات الثقافية الرفيعة إلى حسابات اقتصادية. وبمعنى ما، فإن الرسالة المرئية هنا تتوجه إلى عدد محدود من المتلقين، بينما توجه النص اللغوي المصاحب للصورة إلى جمهور واسع». ويُعطي الباحث الألماني جورجن لنك Jurgen Link رؤية تفسيرية مقاربة لما طرحه الإيطالي إيكو، إذ يرى أن الرسالة الخفية التي يبثها الإعلان بوساطة الصورة موجهة ـ أساساً ـ إلى المرأة المتلقية على النحو الآتي: «يمكن، بهذا النوع من الصابون المعلن عنه، أن تبحثي عن فتى أحلامك، بينما تتطلعين إلى الأعمال الفنية، بأن تكوني أنت نفسك بمنزلة التحفة الثمينة ما دمت تستعينين بهذا الصابون لتزيين نفسك، وهو ما توحي به صورة الإعلان بالمرأة في مقدمتها، وكأنها تنظر في المرآة بعد أن اكتملت زينتها باستعمال ذلك المنتج السحري!».

عل كل حال، نستطيع بواسطة هذه النماذج الإعلانية وما يعقبها من رؤى تحليلية متباينة أن نستنتج إلى أي مدى من التعقيد وصلت إليه فلسفة التضليل الإعلاني بآلياته المختلفة، وخاصة عندما تكون لغة الجسد Body language هي الطابع الرمزي الغالب على الجوهر التكويني العام لمثل هذه الفلسفة الإعلامية!.

خاتمة مفتوحة

«إذا كانت الإعلانات تتناثر اليوم في حرية لترصّع العروض التلفازية...، فما الذي سيحدث يا ترى عندما نتوقف عن مجرد مشاهدة الإعلانات التلفازية ونبدأ في التفاعل معها؟ وما الذي يحدث عندما تحل الإعلانات التفاعلية Intermercials محل الإعلانات التلفازية العادية Commercials؟».

بهذه الصيغة التساؤلية، يبدأ الخبير الحوسبي فرانك كيلش Frank Koelsch حديثه عن «صناعة الإعلانات التفاعلية»، وذلك في كتابه المهم: «ثورة الإنفوميديا»(٢٦)، ويقصد كيلش

بمصطلح «الإعلانات التفاعلية» تلك الإعلانات الموجهة عبر نطاق إعلامي ضيق إلى أفراد بعينهم، وذلك ضمن المستوى الذي يطلق عليه اسم المستوى المجهري Microlevel «حيث سيفضل تصميم درجة Pitch متفردة لكل فرد عن توجيه رسالة قياسية منظمة للجماهير. وبدلاً من مشاهدة وابل من مختلف الإعلانات، ستة وربما ثمانية، ضمن فقرة إعلانية ما، مما يبعث الخدر في المخ، سيكون لكل فرد تجربته الشخصية الفريدة مع إعلان تجاري تفاعلي ما. وبمرور الوقت ستتطور الصناعة خارج نطاق الطرائق التقليدية، القديمة، والتي تمطر الملايين بوابل من الهراء اليومي نفسه «شاهدني - اشترني». ولن تختفي تلك الإعلانات التقليدية تماماً.. بل ستكون هناك صيغة إعلانية جديدة أكثر حميمية وشخصية. وستتكامل الصيغتان الإعلانيتان، الواسعة النطاق Macro Level والمجهرية، بدلا من أن تحل إحداهما محل الأخرى»(٢٧). إن الإعلان التفاعلي هو واحد من أهم التقنيات الإعلامية المستقبلية التي بشّر بها عصر الوسائط المعلوماتية Infomedia Age، وهو توليفة تكنولوجية ذكية نتجت من تلاقي التلفاز والحاسوب. ونحن بعرضنا هنا لفكرة الإعلان التفاعلي، لا نستهدف شيئاً ما سوى تأكيد مدى صدق الحقيقة القائلة: «إن أسوأ المجتمعات هي المجتمعات التي يفهمها المعلنون ولا يفهمها المستهلكون»(٢٨)، ففي سبيل الربح لا يتوانى المعلنون عن تطوير كل ما هو مبتكر وتوظيفه في مجالات التضليل الإعلاني من أجل تشيئة المشاهد بخلق وعي استهلاكي مكثف يؤطر وعيه الثقافي العام، ومن ثم تدجينه أخيراً ليكون أكثر استيعاباً وتقبلاً لغواية الصورة المكتنزة بكل أنواع السلع والمنتجات الاستهلاكية المختلفة.. وفي الختام لا يسعنا سوى أن نجزم بلا عقلانية الإعلان، أنه لا يعدو أن يكون في جزء كبير منه - وكما قال الدكتور جورج سعد(٢٩) - مجرد «ضربٍ من ضروب الشعوذة»!.

المراجع والهوامش

١. عزازي علي عزازي، الكلمة والصورة، مجلة سطور، القاهرة، العدد ٢٥ ديسمبر ١٩٩٨م، ص١٧ ـ ١٩.

٢. جورج جيربنر وآخرون، رسم خريطة الاتجاه السائد: مساهمات التلفزيون في التوجهات السياسية، ص١٨٥، في: سلطة وسائط الإعلام في السياسة، تحرير: دوريس إيه جريبر، ترجمة: د. أسعد أبولبدة، الطبعه العربية الأولى، عمّان، دار البشير، ١٩٩٩م.

٣. فيليب تايلور، قصف العقول ـ الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة: سامي خشبة، عالم المعرفة، العدد ٢٥٦، الكويت، أبريل/نيسان ٢٠٠٠م ص٣٧٦.

٤. جاب الله موسى حسن، مجتمع الإعلام العالمي، مجلة سطور، العدد ٣٧، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٩م، ص٣٥.

٥. جان ريمي ديلياج وآخرون، التلفزيون: العقل سجيناً، مجلة الثقافة العالمية، العدد٨٩، الكويت، يوليو ـ أغسطس ١٩٩٨م.

٦. ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني، ترجمة: عبدالفتاح الصبحي، عالم المعرفة، العدد ٢٤٧، الكويت، يوليو/تموز ١٩٩٩م، ص١٥٣.

٧. هانس ـ بيترمارتين وهارالد شومان، فخ العولمة ـ الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة: د. عدنان عباس علي، عالم المعرفة، العدد ٢٣٨، الكويت، أكتوبر ١٩٩٨م، ص٤٣.

8- Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed (New York:: Herder and Herder, 1971) P.144.

بوساطة: هربرت أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة: عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، العدد ٢٤٣، الكويت، مارس/أذار ١٩٩٩م، ص٧.

٩. المتلاعبون بالعقول، ٣٦.

١٠. جاب الله موسى حسن، ديكتاتورية الصورة، مجلة سطور، العدد ٢٥، ديسمبر ١٩٩٨م، ص٢٥.

١١. المتلاعبون بالعقول، ١٨٠ ـ ١٨١.

١٢. جاب الله موسى حسن، الإعلام والحياة اليومية، مجلة سطور، العدد ٢٨، القاهرة، مارس/آذار ١٩٩٩م، ص٣٣.

١٣. جاب الله موسى، البلاغة الإلكترونية، مجلة سطور، العدد ٢٠، القاهرة، يوليو/تموز ١٩٩٨م، ص١٤.

14- Urie Bronfenbrenner, Who Cares for America's Children?, address presented at the Conference of the National Association for the Education of young childern, 1970.

بوساطة: الأطفال والإدمان التلفزيوني، ١٥٩.

١٥. جاب الله موسى حسن، ديكتاتورية الصورة، ٢٤.

١٦. إبراهيم فتحي، تصنيع الواقع، مجلة سطور، العدد ٢٥، القاهرة، ديسمبر، ١٩٩٨، ص٢٩.

١٧. المتلاعبون بالعقول، ١٨٧.

18 - Freire, Pedagogy of the Oppressed, PP. 137-138.

بوساطة: المتلاعبون بالعقول، ٣٩.

١٩. المتلاعبون بالعقول، ٣٩ ـ ٤١.

٢٠. المقصود بجنسنة الإعلانات: إشاعة الجنس بمعنى الإثارة الجنسية فيها، واستخدام الجنس كخلفية رئيسة ومحرك أساسي في الإعلام.

٢١. أولجا فارونينا، حرية الكلمة والشكل النمطي للمرأة في وسائل الإعلام، ترجمة: د. أشرف الصباغ، مجلة الثقافة العالمية، العدد ٩٧، الكويت، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٩م، ص١٧٩.

٢٢. جلين ويلسون، سيكولوجية فنون الأداء، ترجمة: د. شاكر عبدالحميد، عالم المعرفة، العدد ٢٥٨، الكويت: يونيو ٢٠٠٠، ص ١٧٤.

٢٣. ب. موردوف، الغريزة الجنسية كمحرك للإعلان، مجلة أرجومنتي إفاكتي، موسكو، ١٩٩٧، العدد ٢٢.

٢٤. أولجافارونينا، مرجع سابق، ص١٨٠.

٢٥. ببعض التصرف، عن: مجدي يوسف، أليات الإلهاء في منعطف القرن، مجلة سطور، العدد ٤٤، القاهرة، يوليو/تموز ٢٠٠٠م، ص ١٠ ـ ١١.

٢٦. فرانك كيلش، ثورة الإنفوميديا ـ الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك؟»، ترجمة: حسام الدين زكريا، عالم المعرفة، العدد ٢٥٣، الكويت، يناير ٢٠٠٠م، ص٣٦٩.

٢٧. ثورة الإنفوميديا، ٣٧٢.

٢٨. محمود خير الله، بنات الإيزو، مجلة سطور، العدد ٣٤، القاهرة، سبتمبر، ١٩٩٩م، ص٤٧.

٢٩. د. جورج سعد، الإعلام في ظل العولمة ـ الصورة القاتمة، مجلة الشاهد، العدد ١٥٨، قبرص، تشرين أول ١٩٩٨م، ص٧٨.

بينالي الشارقة الدولي للفنون:

استقطاب فناني العالم ونقاده

عبدالرحمن السليمان
الدمام - السعودية

يعدّ بينالي الشارقة الدولي للفنون أحد أهم المناسبات التشكيلية التي جمعت الفنانين العرب، وأسهمت في تقريبهم وإيجاد علاقات فنية وحوارية بينهم، فعلى مدى خمس دورات كان الفعل التشكيلي واضحًا وتأثيره في الساحة العربية - تشكيليًا - بارزًا.

في عام ١٩٩٣م افتتح البينالي أول مرة وبمشاركة سرعان ما أخذت في التوسع باستقطاب البينالي أسماء عربية وأجنبية مهمة، وأصبح البينالي مناسبة يحرص عدد من الفنانين على متابعتها وحضورها، وحرص بالمقابل على استضافة فنانين ونقاد معروفين شاركوا في الندوة الدولية الموازية أو لجنة التحكيم، ومن أولئك إدوارد لوسي سميث، والسماريا بوكدال، وجان بيير تانغي، وجورجيو سيكاتو، وجونسون تسونج إلى جانب فنانين ونقاد وباحثين عرب مثل: د. عفيف البهنسي، ود. أحمد شبرين، ود. أسعد عرابي، وسمير الصايغ، ومولیم العروسي، وعارف الريس، وضياء العزاوي، ومروان قصاب باشي، وعلي اللواتي وغيرهم.

يخضع بينالي الشارقة إلى نظام عام يتكون من



قص شريط الافتتاح بحضور وزير الثقافة المصري والمسؤولين والفنانين

مواد، من بينها: أنه عربي، عالمي ويرمي إلى تأصيل الأطر الخاصة والعامة للحركة التشكيلية العربية، ووضعها على مستوى الطموح القومي للثقافة العربية المعاصرة تأكيدًا لتلاحمها، وتنمية

لذوق المواطن العربي للقيم الجمالية من خلال ترسيخ الموروث الثقافي والحضاري وتعزيزه لديه، والعمل على تعزيز قناعاته باقتناء العمل الفني، وكذا نقل الحركة التشكيلية العربية من إطارها المحلي والجغرافي لتتسع وتنتشر على المستوى العالمي، وتعميق حوارها المثمر والفعال مع الأعمال الإبداعية العالمية في المجال التشكيلي.



من افتتاح البينالي (الجناح السعودي) الفنان مفرح عسيري يتحدث إلى الشيخ سلطان بن محمد القاسمي

شارك في دورة البينالي الأولى اثنتان وعشرون دولة عربية، وأجنبية بينها قبرص وفرنسا والصين ورومانيا وبولندا وباكستان، وسيلاحظ الفرق في الدورة الخامسة بمشاركة أكثر من أربعين دولة.

اهتم البينالي بخلق الحوار والنقاش حول الفن التشكيلي وطرح قضاياه سواء من خلال المحاضرات الخاصة أو من خلال الندوة الدولية الموازية التي تعقد أربعة أيام ويشترك فيها فنانون وباحثون ونقاد، وكانت حملت عنوان «الشعرية البصرية» في دورة عام ١٩٩٧م و«المحلية والعالمية» في دورة ١٩٩٩م، و«حوارات الفن.. حوار الجهات» في دورة العام ٢٠٠١م، وتحرص لجنة البينالي على طباعة الأوراق المقدمة لهذه الندوات في كتيبات تلخص ما جاء فيها، أو تقدمه كاملاً.

الشعرية البصرية

يرى الفنان والناقد التونسي علي اللواتي أن كونية الموقف الشعري تجعل من «الشعرية» ليس علماً لصناعة الشعر كظاهرة لغوية فقط، وإنما منظومة صياغات الانفعال الجمالي في مختلف تعبيراته وأدواته، وترى الشاعرة مي مظفّر أن عيني الفنان تلتقطان كل يوم، وعلى نحو تلقائي صوراً مختلفة متنوعة، فينساها وتختزنها ذاكرته. والفنان شاعراً كان أم رساماً يتلفت عموماً إلى ما يثير فيه إحساساً يبقى كامناً ليتحرك بفعل آخر، وزمن آخر، تستيقظ فيه حواسه من أثر مشاهدة أخرى تستدعي مخزون الذاكرة ذاك، وبمثل هذا التفاعل بين الصورة الحافزة والصورة المختزنة تتشكل الصورة الفنية، بينما ترى فاتن صفي الدين أن الشعرية البصرية تعيد للفن دوره على أنه منتج للانسجام، ولإضاءة التنافر، ويصبح المعمل الحامل المكان الحساس عند إنجازه ثائراً ضد القوة الكاملة لفكرة - (لكونه آلة تصنع الفن) - الدهشة الخالدة للإنسان أمام الجميل، وأن الشعرية البصرية تمنح شفرات جديدة لقراءة الأعمال الفنية لكونها فضاءات مفتوحة على كل التبادلات الثقافية والرمزية، ومصدر متعة فكرية لا ينضب.

حفلت الندوة بعدد من أوراق الفنانين والنقاد الجادة. ومن بين من شارك فيها: محمد بن حمودة،

ومصطفى الرزاز، وصلاح الدين محمد، فيصل سلطان، ومهى سلطان، وأسعد عرابي، وجانوت سايمن، وكاترين ديبويل، وإنجليكا باومر، وغيرهم.

المحلية والعالمية في الفنون

أقيمت هذه الندوة الموازية بمشاركة فاعلة من عدد من النقاد والفنانين، وكان من بينهم آمنة النصيري، وإبراهيم الصلحي، وعبدالحليم رضوي، وزينات بيطار، وجاك لينهاردت، وإبراهيم العلوي، وبكر شيخون، ونازلي مدكور، وعبدالعزيز عاشور، وطلال معلا، وعدد كبير من الأسماء العربية والأجنبية، وجاءت على أربعة محاور: الضد أفسد حسنه، وقاطنو القرية، والديوان الشرقي، وذاكرة المستقبل.

يرى أسعد عرابي أن الفن العربي يعاني موقف (الحداثة واللاحداثة)، الحداثة بإطلاق تعود إلى السياحة، والانطواء الثقافي هو محصلة اللاحداثة، فلماذا لا نمتحن المحلية والعالمية بوصفهما عناصر معيشة وكفتي ميزان للشهادة الإبداعية في الزمان والمكان... داعياً إلى الشمولية لا العالمية، لأن الخبرة الشمولية إبداعية بينما العالمية هرولة حداثية خلف ما هو استهلاكي من الحداثات المصنعة والمسيطرة على سوق المثاقفة. ويرى محمد بن حمودة أن العالمية تعارض كل أشكال الوحدة مع الطبيعة.. العالمية والتاريخ تساوق منذ النموذج الإغريقي.. بينما المكان هو شرط الحداثة المركزي يساعد كثيراً على العالمية، عاداً العرب لم يدخلوا المكان في الفكر مما عسّر عليه فهم (صراعية) علاقة اليونان بالوجود والمجتمع.. كونية العقل الإنساني ووحدة النوع البشري كما في الفلسفة الغربية. ويعدّ بكر شيخون فكرة الأصالة في التشكيل العربي مهمة بالنظر إلى خصائص المكان.. بينما فكرة المعاصرة مهمة هي الأخرى بالنظر إلى خصائص الزمان الحاضر الذي نعيش فيه مع آخرين. وترى جالا أرزن أن الصغار والهامشيين يريدون دائماً أن يلتصقوا بقيم خاصة أكثر تقليدية بينما تأخذ ثقافات الأقوياء سياسياً ما يمكن أن تأخذ من الثقافات الأخرى، وتستفيد منها دائماً: التاريخ يثبت صحة هذا.

وترى أثينا أسكينا أن المحلية ليست بالمصطلح الجامد، فهي لا ترمز فقط إلى معرفة حقيقية ببيئة ما، بل تعني فوق ذلك الوعي بالعادات والتقاليد والممارسات في سيرورة مستمرة، وبقدر ما يبعد الفنان عن ذلك فهو يبعد عن ذاته وذاكرته، بينما ترى دورثيا فان دير كويلن أن تظاهرات الفنون المحلية والعالمية هذه الأيام تركز في الهوية

لوحة للفنان اللبناني رفيق شرف

والخصوصية المحلية في علاقاتها مع الآخر، ولكن علاقات الفنون وعالميتها تبدو رحبة ومتسامحة ومتواصلة وفي حوار، بل إن الفنانين في المعارض العالمية يجدون الفرصة لإبراز ملامحهم أكثر من ذي قبل.

حوارات الفن.. حوار الجهات

شارك في ندوة (حوارات الفن.. حوار الجهات) التي أقيمت خلال أربعة أيام - صباحاً ومساءً - عدد من الفنانين والباحثين والنقاد، ومن بينهم: رفيق شرف، وأحمد فؤاد سليم، وأحمد شبرين، وعفيف بهنسي، وعمر عبدالعزيز، وعبدالرحمن السليمان، وفيصل السمرة، وحسن شريف، وحكيم العاقل، وناصر عراق، ومحمد الجزائري، وأثينا أسكينا، وإلساما بوكدال.

يرى بهنسي أنه لا بد أن نميز بين النظام العالمي أو العالمية وبين العولمة، وهي مبدأ اقتصادي.. وأن مبدأ العولمة يمتد بالضرورة إلى إزالة الحدود القومية والذاتيات الثقافية، وعاداً العالمية نزعة إنسانية تنظيمية مازلنا نراها في الفن أكثر وضوحاً.

ويرى رفيق شرف أن بعض الفنانين العرب سافر إلى الغرب بخصوصية أكيدة وعاد من دونها، وأن على الفنان أن يكتشف هويته وحداثته معاً. وأن من المهم النظر إلى التراث، مشيراً إلى الحروفية في الفن التشكيلي العربي المعاصر، وأنها اكتسبت ميزة جديدة. ويرى أحمد شبرين أن فنون التشكيل عندنا هي من أصداء الشعر العربي فينا، وأنه لو أردنا أن نحصي مدارس الفن ومذاهبه قديماً وحديثاً عندنا وعند غيرنا لوجدنا لكل ذلك موطناً داخل الشعر العربي، ولوجدنا التشكيل في الشعر يفي بالأبعاد غير المحدودة في التصور دون لفظاً وبنائية، ومؤكداً دور الحكومات والقطاع الخاص



من أعمال التونسية صفية فرحات

لبناء ثورة صناعية في كل المهن التي يدرسها التشكيليون المهنيون في البلدان العربية.

ويرى محمد الجزائري أن العولمة مثل البوكيمون تجعلك لا مواطناً.. أي فرداً في العالم، ولكن ليس من وطن وهوية لذاتية ثقافية وخصوصية، ويتمنى ناصر عراق أن يتمكن فنانونا من إبداع أعمال تحتفي بالجماليات العربية، وتدعم الهوية، وتستلهم الموروث وتطوره، وفي الوقت نفسه لا تعادي أحدث منجزات العالم شرقه، وغربه.. أعمال تحترم العقل وتسر الخاطر.. تفجر الأسئلة وتمتع العين. ويؤكد حسن

شريف أنه على الفنان أن ينبه المجتمع على البعد الجهدي، وهذا البعد هو الخيال. وعدّ حكيم العاقل أن مشكلة الفن ظلت نقطة غامضة في التحول المعرفي من الخصوصي إلى العالمي، وأن ثورة المعلومات خدمت الثقافة والفن وأزالت جزءاً كبيراً من الاحتكار، ومنحت شبكة الإنترنت طريقًا بمتناول الفنان أن يضخ أفكاره وتشكيلاته عبر هذه الشبكة التي فتحت سوقًا أمام الفنان العربي، ويعدّ أحمد فؤاد سليم العولمة ظاهرة غير وطنية، وغير قومية، وغير ثقافية.. وأن الشركات المتعددة الجنسية، والمتعدية الجنسية والعابرات القارات هي التي تحكم العالم.

عمل قديم للفنان السعودي يوسف جاها

تكريم الفنانين

تأتي خطوة تكريم بعض الفنانين أو الباحثين العرب مهمة وذات مردود إيجابي كبير، فالتكريم يأتي باستضافة الفنان أو الفنانة، وإقامة عرض لأعماله الفنية، ومكافأته ماليًا.وقد تم تكريم عدد كبير من الفنانين في دورات البينالي السابقة.

البينالي في دورته الخامسة

عملت لجنة تنظيم البينالي ومنذ دوراته الأولى على تطوير فعالياته، والاستفادة من الدورات السابقة. كانت المشاركة في الدورة الأولى من (٢٢) دولة عربية وأجنبية، استمر الحرص على زيادتها، وإقامة عروض فردية، واستضافة فنانين. برز منذ الدورة الأولى الحرص على التنويع والاختلاف فيما يُطرح، وفيمن يُختار من فنانين ونقاد، وكانت لجان التحكيم تُختار من مختلف الدول العربية والأجنبية.

تعدّ الدورة الخامسة تواصلاً لما سبقها وقد حصل الإيراني حسين خسرو جيردي عام ١٩٥٧م على جائزة البينالي الكبرى، وفيها يستفيد من التقنيات الحاسوبية الحديثة، أما جائزة التصوير الأولى فمنحت للسعودي محمد عبدالله الغامدي، والثانية لليوناني تاناسيس بانا يوتو، ومنحت الأولى (كرافيك) للياباني أشوكو ومن الدولة نفسها حصل على الجائزة الثانية (كرافيك) يومو جيزاوا، أما في النحت فمنحت الجائزة الأولى للإماراتي محمد أحمد إبراهيم، والثانية لليونانية ناكيس تاستاكيو غولو، وحصل العراقي خالد مقدادي على جائزة التركيبات والإنشاءات الفراغية، ومُنحت الإماراتية كريمة الشوملي الجائزة الثانية.

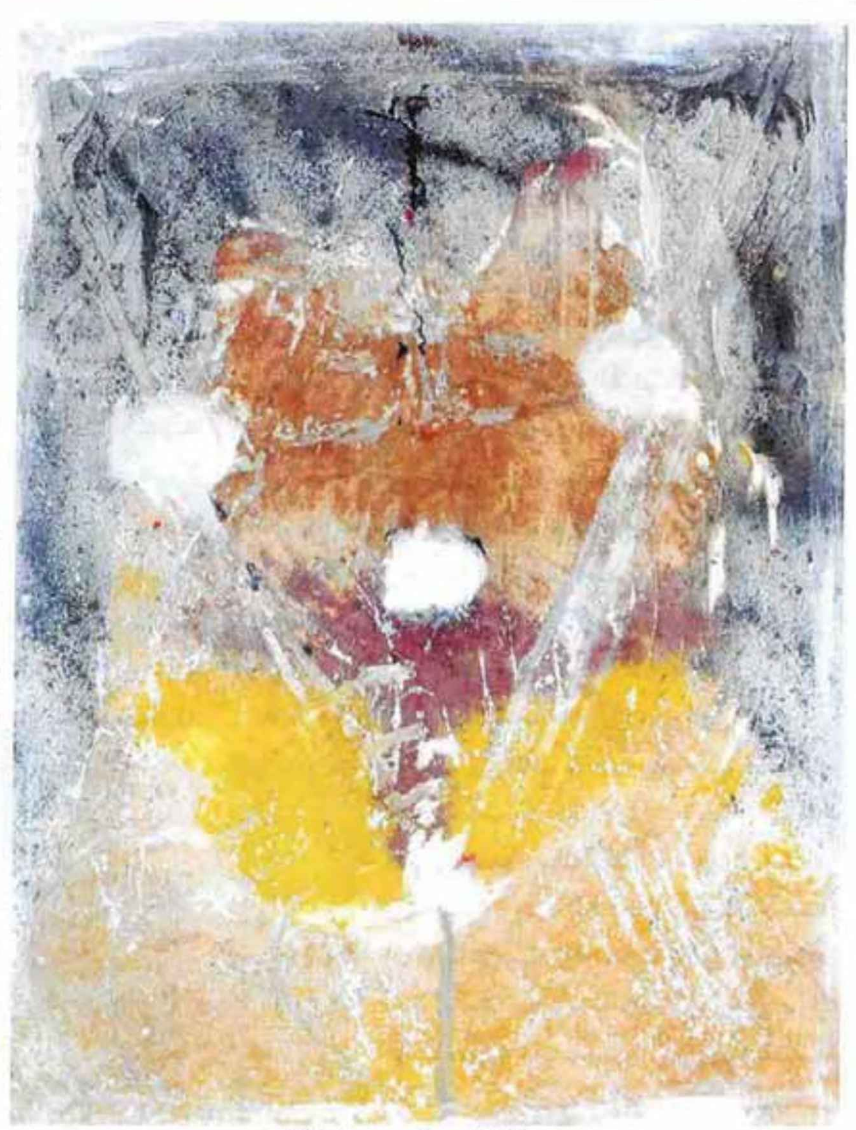
وعلى الرغم مما يحدث غالبًا من لغو حول الجوائز وطريقة منحها للأعمال الفنية إلا أن اللجنة المحكمة، وقد تشكلت من فنانين ونقاد عرب وأجانب من بينهم: جان بيير تانغي، وعارف الريس، وإسماعيل فتاح الترك، ومارتن جيزن، والسماريا بوكدال، ومحمد يوسف، وأحمد فؤاد سليم، وعبداللطيف الصمودي، أكدت الموضوعية والحياد بين الأساليب والأطروحات كافة.

جاء البينالي ليطرح عددًا من الاتجاهات والأعمال الفنية التي تأثرت بتيارات فنية حديثة أو

والرسم التمثيلي، أما أنور خميس سونيا ففي أعماله انفعالية يتجه معها إلى تجريد خالص وألوان ومعالجات عفوية، أما المكسيكي إرما بيلوسي فأعماله عقلانية، وأكثر تنظيمية من المصري محمد طه حسين.

وقدّم خزعل عوض القفاص (الكويت) أعمالاً نحتية تحاكي المجتمع الكويتي التقليدي، واتجه في أعمال أخرى نحو الرمزية، أما الفلسطيني كمال بلاطة فكان أكثر بساطة عن أعماله السابقة، وغاب الحرف والكتابة لتحل مكانهما حلول مساحية وألوان صارخة أقرب إلى الفسفورية تتحول أحيانًا إلى أكثر رقة وشفافية عندما يوظف الألوان الوردية، وفي أعمال الأردني سامر الطبّاع تحديثات وتأليفات إيحائية يعالجها بكل حرفية، وتتقارب صيغ ومعالجات البحرينيين إبراهيم بوسعد، وبديع بوبشيت، وتبرز في أعمال الفنانين السودانيين الوحدات والمفردات المحلية/الشعبية، وقد أكدت أعمال السوداني أحمد شبرين روحًا تستخلص المحلي لعمل ينبض بالأنفاس الحميمية الدافئة مع المحيط والمكان.

أما أحمد نعواش (الأردن) فيواصل تناوله الوجوه على نحو تعبيري، ويطرح آدم كاسترات (هامبورج) أعماله على نحو رمزي فيها الطرافة مثلما فيها الألم، وتعالج آمال بشير أعمالها باللصق والتلوين المائي، ويخلق الأرجنتيني أدجار دوجمنيز أعماله بخيالية



من أعمال أنور خميس سونيا (عُمان)

قديمة ولم تعبّر العروض الرسمية عن مستوى مأمول فجاءت المشاركات الفردية - غالبًا - أرفع مستوى، وقد حرصت لجنة البينالي، كما يبدو، على المستوى، فاستبعدت أعمالاً قُدمت عن طريق مشاركات رسمية خاصة، كما يتضح في دليل المعرض الذي سجل أسماء وصور أعمال لم يتم عرضها، بل تمّ استبعادها من العرض.

قدّم رفيق شرف أعمالاً متنوعة تعبّر عن اتجاهاته بين الحروفية واستلهام الحكاية والقصص الشعبي

فيها الجدران المخترقة بالرماح أو السلالم، ويرسم العراقي أحمد الصافي عمله في تناول أسطوري تتحول الأشكال فيه إلى كائنات ممسوخة، أما أعمال رؤيا رؤوف ففيها رمزية، وترسم بهيجة الحكيم أعمالها بتزويق وأحاسيس رقيقة وشفافة فيها الأشجار والطيور والزخارف الشعبية، ويرسم خليف محمود مناظر ونساء بدرجة من الشفافية المائية، ويستلهم طه وهيب منحوتاته من سومر، وتبرز مشاركة السوري أحمد معلا بمساحة عمليه الكبيرين وبطرحه موضوعًا احتفاليًا/بانوراميًا بتقنيات مختلفة، وتتأثر أعمال الأردني محمد العامري برسوم الأطفال في انفعالها وبراءتها. وتتشبع لوحة عبدالرؤوف شمعون التجريدية بالألوان المتراكمة والمتعاركة، ويواصل يوسف عبدلكي رسمه بالأسود وبكثير من الخبرة والمهارة،



لوحة للسوداني أحمد شبرين

وقدّم يوسف الدويك (فلسطين) عملاً يتألف من قطع دائرية أو مربعة يتناول فيها زخارف وأشكالاً ووحدات مختلفة.

لم يكن الجناح المصري بالمستوى المثير، وإن قدمت فيه أعمال فنانين معروفين، مثل: مصطفى عبدالمعطي، ومصطفى الرزاز، وكذلك أعمال مدحت نصر وعوني هيكل. وتميز الجناح الكوري بالمهارة والحرفية وتوظيف الخامات القماشية والورقية في صيغ فراغية.

أما الجناح الإيراني فهناك أناقة النحت في موضوعات الموسيقا عند طاهر شيخ الحكماء، ومثّل (قطر) عدد من فنانيها مثل يوسف أحمد الذي برز عمله بتقنياته وبحثه المتصل الجاد، وكذلك أعمال عيسى الغانم، وفرج أوهام، وشارك عبدالمجيد البكري، ورشيد الفخفاخ، وإبراهيم العزابي، من تونس، ويوظف الأخير خامات مختلفة وبتلوينات زيتية. أما جناح الدولة المستضيفة فهناك أعمال عبدالله السعدي، ومنى الخاجة، ومحمد أحمد إبراهيم، وعزة القاسمي، ومحمد كاظم، ونجاة مكي، وعبدالقادر الريس، وحور القاسمي، وعبيد سرور، وفاطمة القاسمي، وكريمة الشوملي، ومحمد القصاب، ومحمد المزروعي.

وشاركت دولة البحرين بعدد من فنانيها، مثل: عبدالرحيم شريف، وجمال عبدالرحيم، وعباس الموسوي، وعباس يوسف، وعبدالشهيد خمدن، وعمر الراشد، ولبنى الأمين، ونبيلة الخيّر، وهلا آل خليفة، وناصر اليوسف، ومنيرة الجلاهمة، وعدنان الأحمد، وعلي مبارك، وبلقيس فخرو. وجاء الجناح الكويتي عاديًا يخلو من الإثارة قدمت فيه

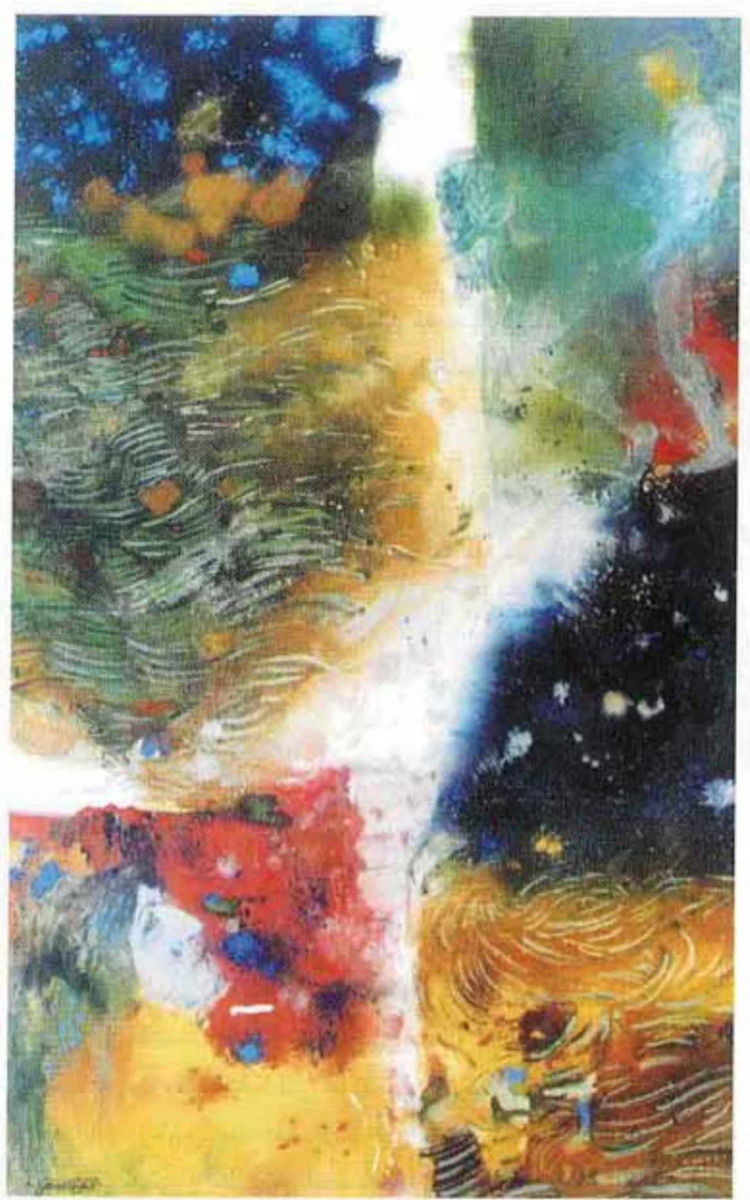
أعمال جابر مختار، وعلي العوض، وعلي فاضل، وناجي الحاي، وشارك من عُمان رشيد البلوشي، وحسين عبيد، وسعود الحنيني، وصالح الشكيري، وعبدالله الحنيني، ونوال عتيق، وغيرهم.

المشاركة السعودية

حرصت المملكة العربية السعودية على الحضور منذ الدورة الأولى لهذا البينالي، وقد شارك في دورته الأولى يوسف جاها، وعبدالله الشلتي، وعلي الطخيس، وصالح الزاير، وعبدالحليم رضوي، وتواصلت المشاركات في دورات البينالي التالية حتى حصل عبدالرحمن السليمان في دورة البينالي الثالثة على إحدى جوائز التصوير الأولى، وفي الدورة الخامسة حصل محمد عبدالله الغامدي على الجائزة الأولى (تصوير).

عبّرت المشاركات الفردية عن حيوية وفاعلية مثل هذه المشاركات، وقد مثلت أعمال الفنانين التشكيليين السعوديين في دورات البينالي، وفي مجملها الحيوية والتنويع والاختلاف، وأبرز التيارات الفنية في الحركة التشكيلية السعودية.

في الدورة الثانية شارك علي الطخيس، ويوسف جاها، ونبيل نجدي، وعبدالرحمن السليمان، ونايل ملا، ومحمد المعيرفي، وعبدالله المرزوق، وعبدالعزيز عاشور، وعبدالله حمّاس، وفايز الحارثي، وناصر الميمون، وعبدالمحسن الصايغ، وعبدالله الشيخ. ويلاحظ مقدار اتساع هذه المشاركة حتى استضاف البينالي في دورته الثالثة معرضاً للفنان عبدالعزيز عاشور. وفي هذه الدورة شارك الفنانون السعوديون: سامي الحسين، وعبدالله الشيخ، وعلي الطخيس، ونايل ملا، ويوسف جاها، والسليمان، إلا أن الدورة الرابعة شهدت تكريم الفنان عبدالحليم رضوي، وأقيم معرض شخصي لعبد الرحمن السليمان، وشارك في العروض الفردية والرسمية بكر شيخون، وزمان محمد جاسم، وسامي الحسين، وعبدالله حمّاس، والشيخ، وعبدالعزيز المبرزي، ومنيرة موصلي، وأضواء بنت يزيد، وحنان حلواني، وزهرة بوعلي،



بريشة اليمني حكيم العاقل

وعبدالله إدريس، والطخيس، وعوضة الزهراني، ومحمد عبدالله الغامدي، وهاشم سلطان، ومها السويلم، ونايل ملا.

وجاءت الدورة الخامسة ليتأكد مقدار ما يتمتع به الفنان التشكيلي السعودي من قدرة ومهارة فنية، وكذا مواكبته لما هو منجز أو مطروح على الساحة العربية أو الدولية. كانت أعمال محمد عبدالله الغامدي الفائز بالجائزة الأولى لافتة بخاماتها المتآلفة



جانب من الجناح السعودي

(الخشب أو قطع الأشجار، والحديد)؛ وذلك أن الفنان يعمل في هندسة الطيران، ويظهر مقدار الاستفادة من الخامات وتوظيفها في استقلالية فنية استحق عليها الجائزة. وكانت المشاركة في الدورة الخامسة متنوعة، حتى إن اللجنة المنظمة استبعدت أعمال بعض المشاركين جميعها، كما استبعدت معظم أعمال بعضهم الآخر، فقُدم لفنان، مثل أحمد المغلوث، لوحة واحدة فقط، ولوفاء بهاي لوحة واحدة، وقد عُرضت في دليل المعرض صور لأعمال عبدالعظيم الضامن وشريفة السديري لم يتم العرض لهما، وجاء الجناح الرسمي متمثلاً في أعمال أحمد الدحيم، وأحمد فلمبان، وعبدالله الشلتي، وتوفيق الحميدي، وحسن عسيري، وسامي البار، ومحمد سيام، ومحمد القمير، ومفرح عسيري، ولمياء السبهان. أما المشاركات الفردية فكانت للغامدي، وزمان محمد جاسم، وطه صبّان، وعبدالله حمّاس، وعوضه الزهراني، ونايل ملا، وهاشم سلطان، ويوسف جاها.

تتصل صيغ عبدالله الشلتي بأعماله السابقة في ضرباتها اللونية السريعة، الخاطفة إلا أنه في مشاركته هذه يضيف خامات ومعاجين يبرز معها السطح أما توفيق الحميدي فصيغه خيالية مثله محمد العمير، بينما يعالج الزهراني سطوحه وفق دفقات عاطفة جياشة، وانفعال متصل لملء سطح اللوحة بلون أو درجاته على اهتمام بمساحة داكنة (مغايرة) في اللون، وبشيء من هذا الانفعال، وبقدر من العقلانية والحرص على التلوين تأتي أعمال يوسف جاها، بينما يقوم التجريد عند صبّان على عناصر معمارية أو زخرفية، وأحياناً عضوية، ويعالج البار لوحته جرافيكيًا في بساطة وأناقة، وتتشكل لوحة مفرح عسيري الوحيدة من قطع يوظف فيها الحرف العربي، إلا أن عبدالله حمّاس يتميز بقدر كبير من الحس الفني وهو يترك لانفعالاته التعبير عن دواخله ليتشكل العمل، ويتخلق في صورة مجردة من أي افتعال، ويتألف عمل حمّاس من قطع كثيرة تتشابه فيها الوحدة ليقيم عملاً متكاملاً.

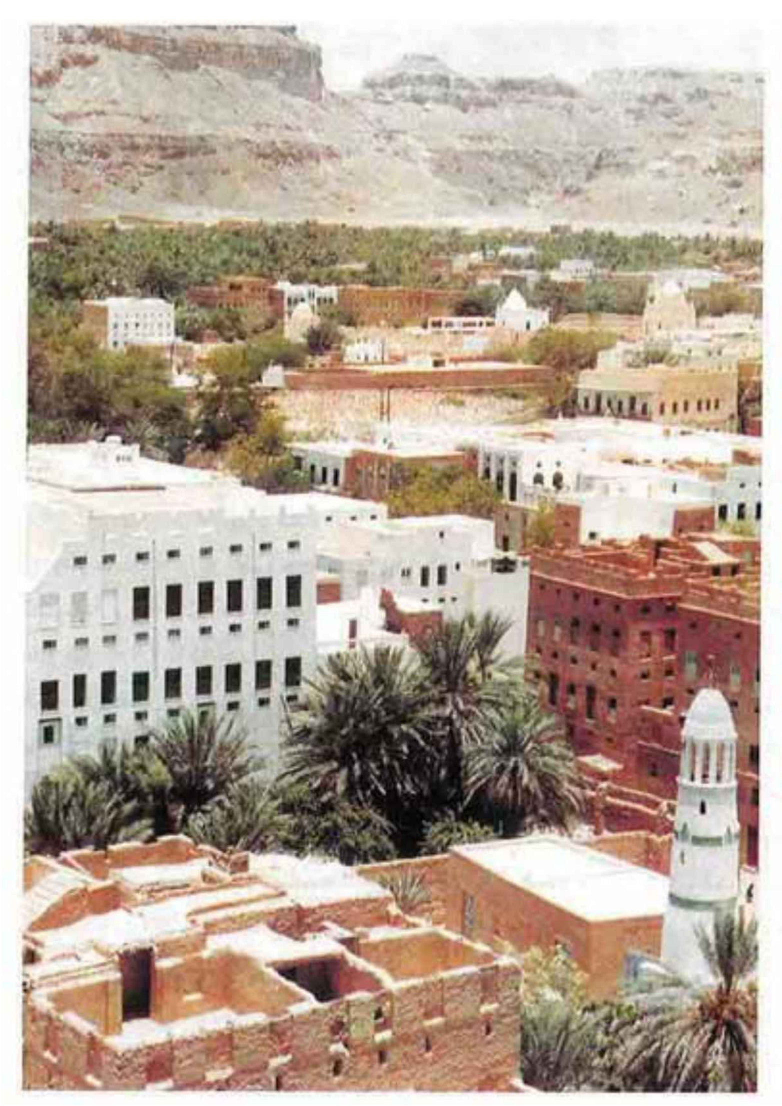
أما أحمد فلمبان فصيغة تعبيرية يميل معها إلى شيء من الرمزية، وقدم أحمد الدحيم أعمالاً منحوتة من الرخام، أما هاشم سلطان فيقيم مجسمه لتتشكل آلة عزف (كمان) وفي حلول مختلفة.





تَرِيم اسم في ذَاكرة الزمن

حداد أبوبكر بلفقيه
حضرموت - اليمن



تريم بلد عتيق، وتاريخ عريق، ومدينة علم وثقافة وأدب. وهي، على ما حباها الله من مميزات، استطاعت أن تختزن علومها وثقافتها وتراثها، وتعد اليوم من أشهر مدن حضرموت وأقدمها، وهي تشكل في خريطة الجمهورية اليمنية اسماً لامعاً له بريق يجذب الزائرين والسائحين إليها من شتى أنحاء العالم؛ لهذا اخترنا أن تكون هذه المدينة التراثية والحضارية موضوعنا في الصفحات الآتية ليتعرف القارئ الكريم إلى هذا الاسم الذي يقفز في ذاكرة الزمن البعيد.

التسمية والتعريف

تريم مدينة تاريخية، تضرب بأطنابها في جذور السنين، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى أحد ملوكها، وهو تريم بن سباء الأصغر، وتُسمى بـ



مسجد القوم الذي بني قبل ٩٠٠ عام

«الغنّاء» لبساتينها وحدائقها التي تتغنى فيها الأطيار فرحة تنتقل من شجرة إلى أخرى، وتُسمى أيضاً «بوادي ابن راشد» نسبة إلى سلطانها عبدالله بن راشد الذي اتصف بالعدل، وتولى الحكم بالاختيار والتزكية سنة ٥٩٣هـ.

الموقع والمناخ

تقع مدينة تريم على خط طول«٤٨» درجة و٥٨ دقيقة و«٣٢,٢٥» ثانية، شرق جرنتش، ودائرة عرض «١٦» درجة و«٢» دقيقة و«٥٧» ثانية شمال خط الاستواء، وترتفع عن سطح البحر بـ «٢٠٧٠» قدماً وهو ضبط دقيق حسب رصد المستشرق البريطاني الكابتن «بيش».

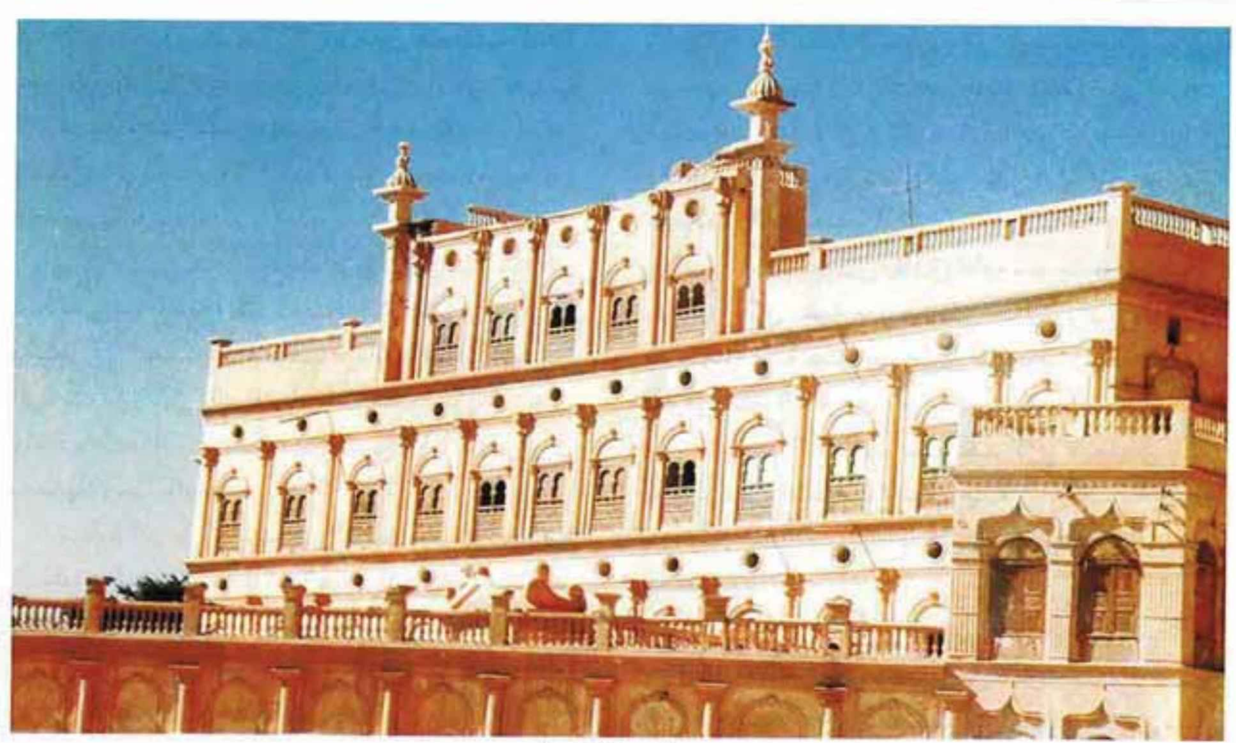
وتحدّ مدينة تريم من ناحية الغرب سلسلة هضاب تسقط على صحاري واسعة، ومن الشرق مدينة «قسم»، والمناطق التالية لها تنتهي إلى السوم التي تبعد عن مدينة تريم بنحو «٣٥» كم، وهي تكوّن مديرية أخرى، ومن الشمال منطقة دمون التابعة لمديرية تريم، والتي تنتهي إلى هضاب وسهول تختزن فيها المياه الجوفية الصالحة للشرب، ومن الجنوب المناطق والقرى التابعة للمدينة كالغرف التي كان بها موقع المطار القديم الذي ظل مواكباً لحركة الطيران حتى أُنشئ مطار سيئون الذي يوفر الخدمة حالياً لمنطقة حضرموت الداخل. وتنتهي حدود مديرية تريم في الناحية الجنوبية إلى مديرية «ساه»، وبالجملة، فإن مديرية تريم تقع في الناحية الشمالية ضمن محافظة حضرموت بالجمهورية اليمنية.

ويعرف جو المدينة بالحرارة في فصل الصيف، وبالبرودة في فصل الشتاء، وهو جاف، وخاصة في الأودية، ومتقلب بين الحرارة والبرودة من وقت إلى آخر، وقد يعتدل بعض الأحيان.

وقد اجتاحت المدينة أمطار وسيول كبيرة عام ١٩٨٧م، وخربت كثيراً من بيوتها ومدارسها.

السكان

يبلغ عدد سكان مديرية تريم مئة وستة وعشرين ألف نسمة حسب إحصاء عام ٢٠٠٠م، ويشتغل



قصر المنيصورة

أغلبهم بالزراعة والبناء العمراني والتجارة والحرف والصناعات الخفيفة، وجزء منهم في الوظائف العامة للدولة، كما يتخذ بعضهم الاغتراب في دول الجوار، وخاصة المملكة العربية السعودية، ودول الخليج العربي، موقعاً للعمل.

النشوء

يرجع تاريخ نشوء المدينة إلى ماقبل الميلاد بأربعة قرون عند بدء ظهور دولة الحميريين، وهذا ما أكدته النقوش التي وجدت في شمال المدينة في مكان يسمى شعاب الهادي على يد السائحة الأجنبية فرايا إتسارك، ويقال أيضاً: إن تريم أسست في عهد السبئيين، وهناك قول آخر: إنها اختطت في عهد أسعد الكامل وهو تابعي حميري، وتواريخ كل هذه الأقوال يقترب بعضها من بعض، وإذا أردنا أن نعرف اختطاط المدينة عند إنشائها، فإنها لم تكن كبيرة كما هي عليه اليوم، بل كانت صغيرة متقاربة الأطراف، تحيط بها سلسلة من الجبال والهضاب تكتنف أجزاءها الداخلية.

تريم في عهد الإسلام

وقد كان لتريم حضور متميز، كغيرها من المدن، في عهد الإسلام، إذ كان لحضرموت وفد لمقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أثر ذلك فقد عيّن عليه الصلاة والسلام أول عامل على حضرموت هو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، وكان استقراره بين تريم وشبام. وكانت تريم تحت دائرة الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، ثم في دولة الأمويين، ثم انتقلت إلى حكم الإباضيين بعد ثورة طالب الحق الكندي سنة ١٢٩هـ، ثم في القرن الخامس الهجري انتقلت من الحكم الإباضي إلى الحكم الراشدي، وتنتهي الدولة الراشدية، وتدخل تريم في إطار السلطنة اليمانية التي أسسها مسعود بن يماني سنة ٦٤٨هـ، وتنتهي هذه السلطنة اليمانية، وتدخل في إطار الدولة الكثيرية الأولى الممتدة من سنة ٨٠٠هـ إلى سنة ١١٣٠هـ، ثم تدخل المدينة في عهد حكم يافع الذي ينتهي ببروز الدولة الكثيرية مرة أخرى، وتدخل تريم من جديد في إطار

هذه الدولة حتى عام ١٩٦٧م حين حصلت البلاد على الاستقلال الوطني في جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية، وما لبثت كذلك حتى أعيد توحيد اليمن بشطريه في عام ١٩٩٠م، لتكون واحدة من مدن الجمهورية اليمنية.

مساجد تريم

اشتهرت المدينة، بكثرة مساجدها حتى إن بعضهم يعدها ٣٦٠ مسجداً، خاصة إذا عرفنا أن المسجد الواحد، وإن كان ذلك نادراً، يضم عدداً من المساجد، وأغلب هذه المساجد قديم وأثري وهنا نتطرق إلى بعضها، ونبدأ بأقدمها:

مسجد الوعل: ينسب إلى الشيخ علي بن محمد الخطيب المتوفى سنة «٦٤١هـ»، وقد ألحق مسجده هذا بما قبله، وهو الذي ابتناه سنة «٤٣» هجرية التابعي أحمد بن الصحابي الجليل عبّاد بن بشر، الذي دفن في قرية اللسك التابعة لمدينة تريم.

مسجد الجامع: يعود تأسيسه إلى ما بين سنة «٣٧٥ و٤٠٢هـ»، وقد أنشأه الحسين بن سلامة (أحد حكام اليمن)، ثم أقيمت عمارة جديدة للجامع سنة ٥٨١هـ، أما العمارة الثالثة فقد كانت في نحو الثمانمئة هجرية، والعمارة الرابعة للجامع كانت بعد التسعمئة هجرية، والعمارة الخامسة والأخيرة وهي الموجودة حالياً يرجع تاريخها إلى سنة ١٣٩٢هـ. وهناك خلاف في القول، فمنهم من يقول: إن هناك عمارة أخرى بين الرابعة والأخيرة، ومنهم من ينفي ذلك، ويقول: إن الجامع عُمِّر هذه العمارات الخمس المذكورة.

مسجد القوم: كان يطلق عليه مسجد بني أحمد، وحالياً يطلق عليه مسجد بني علوي، وقد ابتناه قبل تسعمئة سنة علي بن علوي الملقب بـ «خالع قسم» المتوفى سنة ٥٢٩ هجرية.

مسجد السقاف: مسجد أثري قديم أسسه عبدالرحمن السقاف المتوفى سنة ٨١٩ هـ، وهو أول من ابتكر البرك المائية بمكان الوضوء في المساجد بحضرموت.

مسجد المحضار: مسجد شهير ابتناه عمر المحضار سنة ٨٢٣هـ، وابتنى منارته من اللبن وجذوع النخل العلامة أبوبكر بن عبدالرحمن بن شهاب المتوفى سنة ١٢٦٢هـ، وقد اشتهرت هذه المنارة بالارتفاع إذ يبلغ طولها ١٧٠ قدماً، وهي محل إعجاب الزائرين لها.

مسجد العيدروس: بناه عبدالله بن أبي بكر العيدروس المتوفى سنة ٨٦٥هـ.

مسجد الشيخ علي: جددت عمارته سنة ٩١٣هـ، وهو منسوب إلى الشيخ علي بن أبي بكر.

مسجد شجعنة بن راشد: بني سنة ٥٥١هـ، وجدده الشيخ رضوان بافضل سنة ٩١٨هـ، ويسمى مسجد «فضل بامقاصير».

مسجد باجرش: جدده الشيخ عمر بامصباح سنة ٩١٠هـ.

مسجد الزهرة: بناه عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه المتوفى سنة ١١٢٢هـ.

حصن الرناد

ومن الآثار العمرانية في مدينة تريم حصن الرناد الذي بني قبل البعثة



احتفالات القنيص في بلدة قسم

المحمدية بأربعمئة عام، وبني على أنقاضه القصر الموجود حاليًا، وجدد عمارته سلاطين آل كثير سنة ١٣٥٧هـ، والذي صار مقرًا للحكومات المتعاقبة على المدينة منذ إنشائه، وربما يتحول قريباً بعد ترميمه إلى متحف أثري يضم نماذج من الصناعات الحرفية القديمة، ونماذج أخرى للعادات والتقاليد من الموروثات الشعبية.

للمدينة سور كبير يحدد مساحتها الداخلية، ويحميها من أطماع الغازيين، وقد بني سنة ٨٩٥هـ ثم خرب سنة ٩١٠هـ بأمر الحاكم آنذاك، وأعيد بناؤه سنة٩١٣هـ، وبنيت في ذلك العهد ثلاثة مداخل رئيسة للمدينة، ولم يبق من السور إلا الأثر، أما المداخل فقد أزيلت.

قصور تريم

قصور تريم في غاية الروعة والجمال، وهي خير شاهد على الفن المعماري الفريد، وكانت لأثرياء أهالي تريم، ويرجع تاريخ بنائها إلى ما قبل نصف قرن من الزمان، وما يزيد، ومثلما تفنن أربابها في طرازها المعماري تفننوا أيضاً في تسمية بعضها بأسماء عواصم وبلدان شهيرة. فمن هذه القصور: (الرياض ـ الطائف ـ أسمرة ـ التواهي ـ دار السلام ـ المنيصورة ـ قصر القبة ـ عشة ـ خميران ـ البطيحة ـ سلمانة ـ بن علي ـ بلعشر ـ بخيته ـ المدح ـ باحواش ـ حمطوط ـ الخضيب) وغيرها.

مخطوطات المدينة ثروة وقيمة علمية

اهتم كثير من الشخصيات العلمية بتكوين مكتبات داخلية في البيوت بجهود ذاتية، إذ تم نسخ



فن الزربادي



لعبة الشبواني الشعبية

الكتب أو اقتناؤها بالشراء، وهي مخطوطات نادرة جداً ذات قيمة علمية كبيرة، وضمت كلها في مكتبة واحدة في عام ١٩٧٢م، وهي مكتبة الأحقاف للمخطوطات موزعة على مكتبات الأفراد على النحو الآتي:

ـ مكتبة الحداد أسست سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م.
ـ مكتبة ابن يحيى أسست سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م.
ـ مكتبة آل جنيد أسست سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥١م.
ـ مكتبة آل ابن سهل أسست سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٨م.

- مكتبة رباط تريم أسست سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م.
- مكتبة الحسن بن عبدالله الكاف أسست سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م.
- مكتبة الحسيني والحامدي أسست سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م.
- مكتبة آل الكاف أسست سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.
- مكتبة السلطان صالح القعيطي أسست سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٣م.
- مكتبة عينات أسست سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .
- مكتبة المركز اليمني جمعت سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.
- مكتبة الحبشي جمعت سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- مصادر أخرى جمعت سنة ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م.

وتحتوي مكتبة الأحقاف على ٣١٣٢ مجلداً، تضم ما يربو على خمسة آلاف مخطوط، ويرتاد المكتبة يومياً الباحثون والمهتمون والزوار للتعرف إلى تلك الثروة العلمية، وقد قامت بعثة مصرية بزيارة المكتبة في ١٥ مايو/آيار عام ١٩٧٤م، وقامت بعثة علم الآثار التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية «آنذاك» بتصوير بعض المخطوطات بالمكتبة.

وفي ١١إبريل/نيسان عام ١٩٧٦م قامت بعثة جامعة الدول العربية «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» بزيارة المكتبة، وصورت نفائس من المخطوطات، ثم قامت بزيارة أخرى في عام ١٩٨٣م، وصورت «٣٩٤» مخطوطة.

ومن أنفس المخطوطات :

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للشيخ عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، وعلى النسخة خط المؤلف.
- التبيان في تفسير القرآن سنة ٥٩٥هـ.

وهناك نسخة من الجزء الثامن من كتاب «الإكليل» للهمداني مكتوبة في القرن الخامس الهجري. وتوجد نسخة كاملة من «قلائد النحر في وفيات أعيان الدهر» للطيب بن عبدالله بامخرمة، وتعدّ أقدم نسخة من الكتاب.

وتوجد مكتبات للقراءة العامة والمطالعة توفر الجو الملائم للبحث، ومن هذه المكتبات مكتبة الأحقاف للمطبوعات التي أسست عام ١٩٧٢م، ومكتبات أخرى استحدثت كلها في العقد الأخير من القرن العشرين.

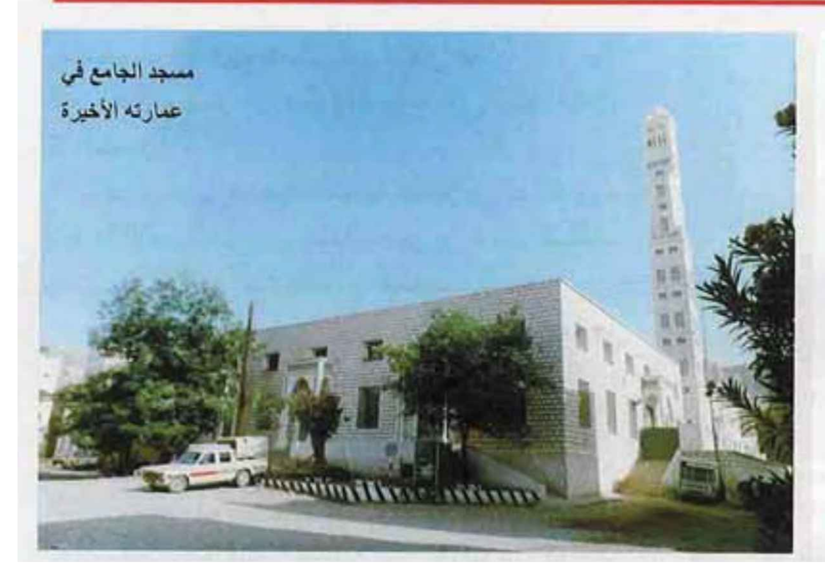
العملات والنقود

ضربت لمدينة تريم بعض العملات والنقود وهي كما يأتي:

- عملة تريم يطلق عليها «خماسي بن سهل» ضربها حسن بن سهل سنة١٢٥٨هـ- ١٨٤٢م.
- عملة أخرى ضربها حسين بن سهل، وذلك سنة ١٢٧٠هـ- ١٨٥٣م.



قصر الرئاد كان مقرا للحكومات المتعاقبة



تريم: اسم إحدى مدينتي حضرموت، لأن حضرموت اسم للناحية بجملتها، ومدينتاها شِبام وتريم، وهما قبيلتان سُمّيت المدينتان باسميهما؛ قال الأعشى:

طال الثَّواءُ على تريم،
وقد نأتْ بكر بن وائل

معجم البلدان، ياقوت الحموي
دار صادر - بيروت، ج٢، ص٢٨.

- عملة ضربها شيخ الكاف سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م.

الحركة العلمية

ضمن الحركة العلمية في المدينة أسست فيها مواقع علمية بارزة أسهمت في رفع شأن البلاد، وانفتاحها على العالم، فقد افتتح رباطها الشهير الذي عرف بأزهر حضرموت في سنة ١٣٠٤ هـ، وارتاده الدارسون من مناطق شتى من العالم، وحمل الدعاة من تريم لواء الدعوة الإسلامية إلى كثير من البلدان، وخاصة إفريقية وشرق آسيا، وقد تزوج بعضهم في المهجر، فاختلطت الدماء بعضها ببعض، فتجد ملاويين وأفارقة من أصول حضرمية، وربما تجد حالياً شخصيات كبيرة تتقلد مناصب عليا في دول المهجر لها جذور تريمية.

وفي المدينة مركز للإفتاء يؤدي مهامه للرد على الفتاوى الشرعية التي تصله بين الحين والآخر. كما افتتحت بعض مراكز التدريس الأخرى، ففي مجال القرآن الكريم وعلومه أسست قبل ستمئة عام مدرسة «قبة أبو مريم» لتحفيظ القرآن الكريم، وهي تمارس نشاطها إلى الآن. وأسست أيضاً «زاوية الشيخ سالم » لتدارس علوم الفقه، وهي للشيخ سالم بافضل المتوفى سنة ٥٨١هـ، ثم بدأ الاتجاه نحو منهجية التعليم وتحديثه، فافتتحت لهذا الشأن مدرسة «جمعية الحق» بتريم التي أسست سنة ١٣٣٤هـ، و تولى نظارتها المؤرخ الشهير الأستاذ محمد بن هاشم سنة ١٣٤٦هـ، ثم توقفت لأسباب اقتصادية، ثم فتحت مدرسة «الكاف»، ثم مدرسة «جمعية الأخوة والمعاونة» سنة ١٣٥٢هـ، ثم افتتح «المعهد الفقهي العلمي» سنة ١٣٧٧هـ، وتوالى فيما بعد افتتاح المدارس الحديثة للبنين والبنات حسبما تدعو الحاجة إليها.

وفي مدينة تريم حالياً مدارس منهجية حديثة تابعة لوزارة التربية والتعليم ومدارس أهلية، وبالمدينة كلية أهلية خاصة هي «كلية الشريعة»، أسست عام ١٩٩٥م، و«جامعة الأحقاف»، ومعهد أهلي هو «معهد الحداد» الذي يغذي كلية الشريعة المذكورة بالخريجين منه سنوياً، وفي المدينة أيضاً مؤسسة تعليمية أهلية خاصة «دار المصطفى للدراسات الإسلامية» أسست عام ١٤١٦هـ، وافتتح بها حالياً مدرسة للتعليم الأساسي والثانوي تشرف عليها وزارة التربية والتعليم، وهناك مدرسة أهلية خاصة تشرف عليها أيضاً الوزارة، وهي مدرسة «دار السقاف» التي افتتحت سنة ١٤١٥هـ.

الصحافة

للصحافة القديمة في مدينة تريم دور مهم إذ كانت تعدّ الوسيلة الإعلامية التي تكاد تكون الوحيدة في البلاد، ومع أن بعضها كان محدود التداول

ومخطوطاً إلا أنها قامت بدورها في عملية التوعية الصحفية، ونذكر من هذه الصحف على سبيل المثال لا الحصر:

ـ **حضرموت:** صحيفة خطية تصدر في مدينة تريم يديرها الأستاذ شيخ بن عبدالرحمن بن هاشم السقاف صدر منها أربعة أعداد فقط، وانقطعت فيما بعد.

ـ **عكاظ:** مجلة شهرية أدبية خطية كان يصدرها الأستاذ عبدالله بن أحمد بن يحيى.

ـ **الإخاء:** صحيفة أصدرتها جمعية الأخوة والمعاونة عام ١٩٣٨م، ثم طبعت أعدادها بالآلة الكاتبة.

ـ **الحلبة:** صحيفة خطية يدير تحريرها الأستاذ موسى الكاظم بن يحيى، وصدر العدد الأول منها سنة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م. وهناك صحيفتان تصدران في المهجر ويديرهما اثنان من أبناء تريم، وهما:

ـ **البشير:** أصدرها الأستاذ محمد بن هاشم.

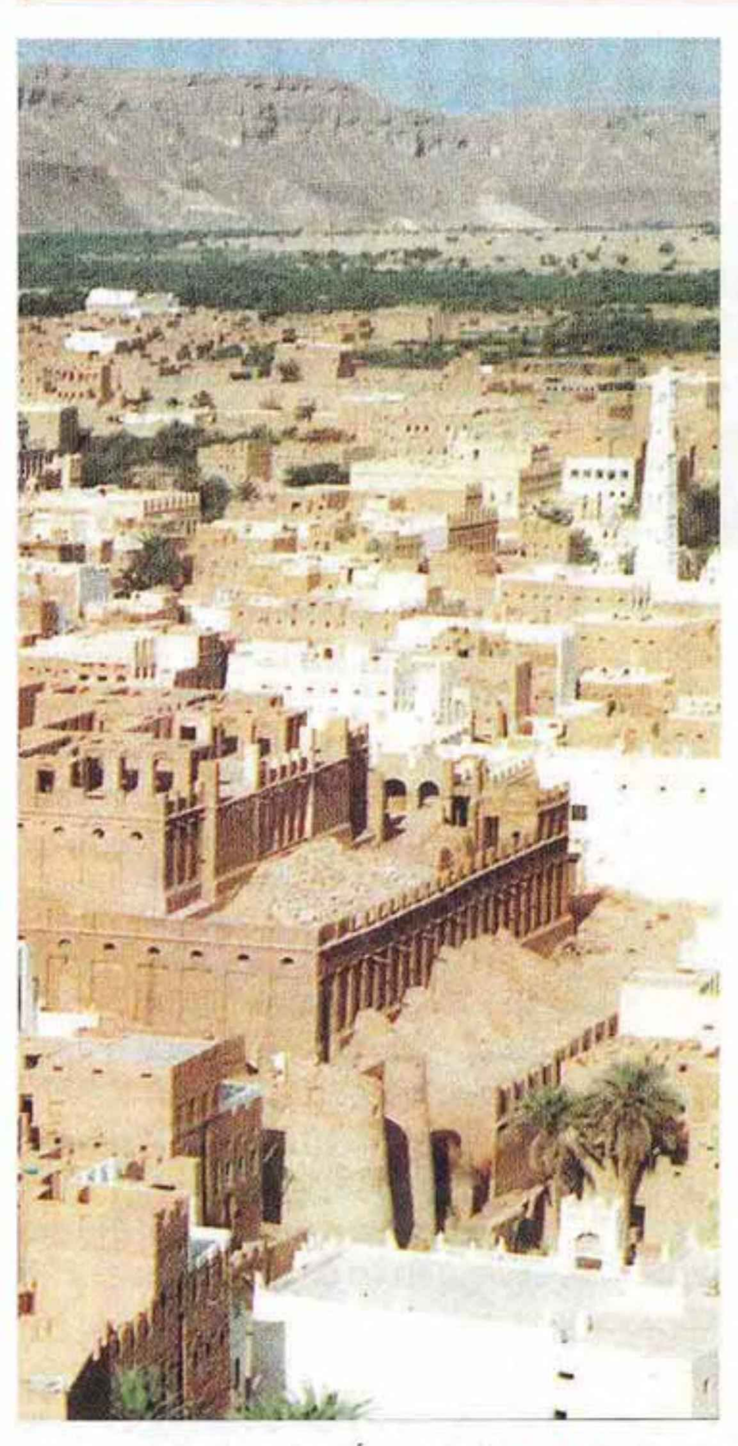
ـ **حضرموت:** صدرت في سورابايا (إندونيسيا) عام ١٩٢٠م، ويرأسها الأستاذ عيدروس عمر المشهور.

الري والزراعة والسدود

وقد تم تنظيم عمليات الري والسدود بقصد تنظيم الزراعة التي كان يعوّل عليها في تحقيق الاكتفاء الذاتي لغذاء السكان والحيوان، واشتهرت المدينة بالنخيل الذي ينتج أجود أنواع التمور، والذي كان في فترة سابقة الغذاء الرئيس للناس، وخاصة إبان الحرب العالمية الثانية. ولقد كان في العهود الغابرة اهتمام أكبر بالنخيل حتى إن الإمام محمد بن علي المتوفى سنة ٦٥٣هـ، وهو من الوجهاء المحسنين في تريم، كان يجهز في السنة الواحدة ٣٦٠ زيراً من التمر يتصدق كل يوم بزير واحد على الفقراء والمحتاجين والمعوزين.

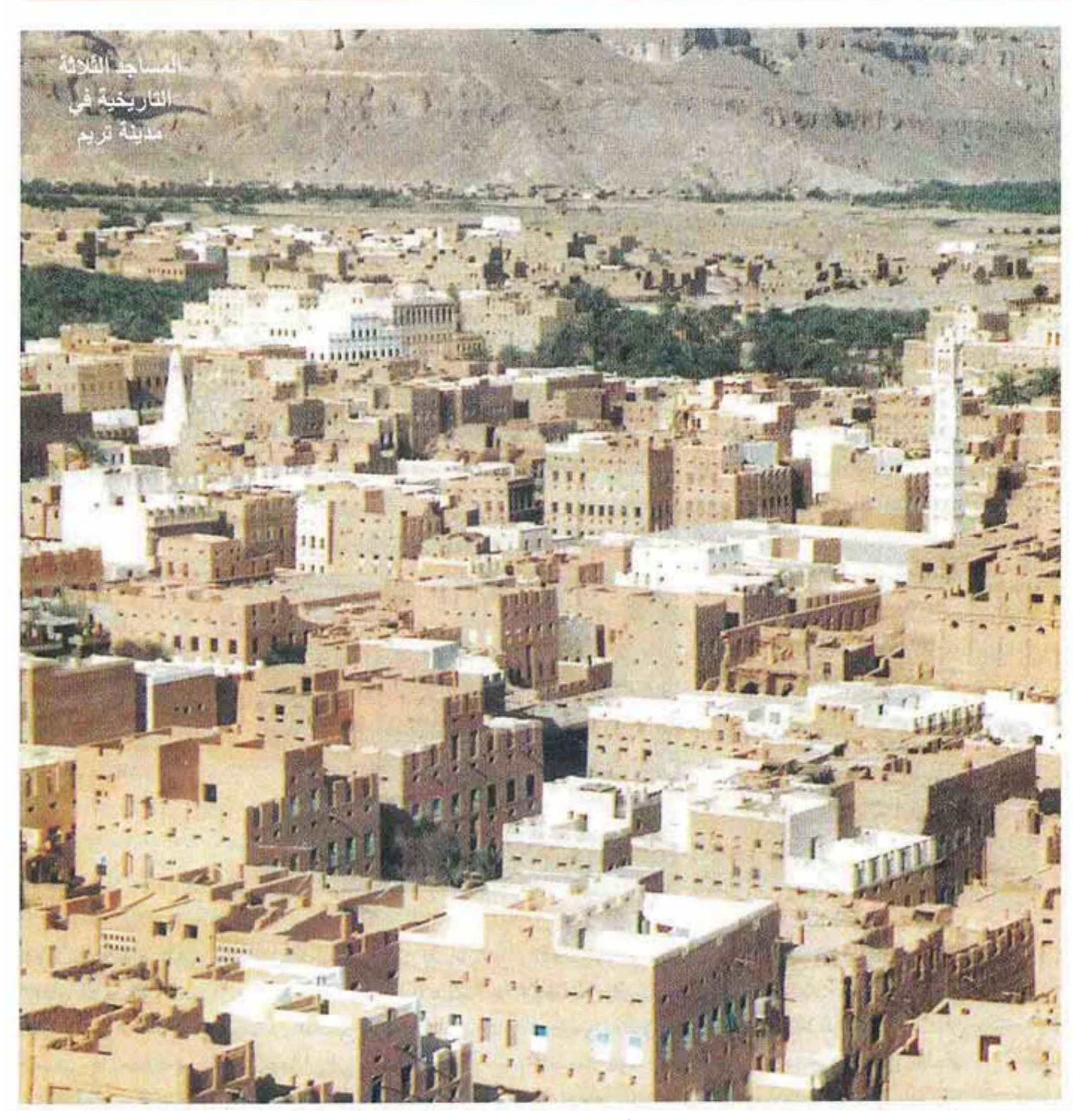
أسواق المدينة

توجد في المدينة أسواق تلبي حاجة الناس، وإضافة إلى هذه الأسواق الجديدة هناك أسواق قديمة منها:



ـ **سوق الحدادين:** وفيها يقوم أولئك ببيع منتجاتهم **الحديدية المختلفة من أبواب ونوافذ وأغراض أخرى للاستعمال المنزلي.**

ـ **سوق الخزف:** **ويعرض فيه أصحاب هذه الحرف**



المساجد الثلاثة التاريخية في مدينة تريم

الخزفية بضائعهم المختلفة التي تشمل أنواع التنانير (جمع تنور)، وأواني الشرب، والمباخر، وبعض المجسمات.

- سوق الاثنين والخميس: يعرض الباعة في هذين اليومين ما لديهم من منتوج المشاغل اليدوية للخوص وبعض المنتجات الأخرى.

- سوق الذهب والفضة: ويوجد في المدينة سوق للذهب والفضة تتم صياغتهما بأشكال فنية تلبي

الرغبة، وهذا العمل التجاري والصناعي قديم، وله محترفوه.

إضافة إلى ما مر من الحرف اليدوية هناك حرف أخرى منها: الأعمدة المدورة التي تسمى «السواري»، وهي عادة توضع على شكل أسطوانات حجرية الواحدة فوق الأخرى لتكون عموداً مستطيلاً يعتمد عليه ركيزة لسقوف المنازل، وقد ذكر الدكتور جواد علي في كتابه «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ما مضمونه: «أن هذه الأعمدة المدورة هي من صنع الجنوبية العربية، ونقلها الأحباش عنهم في معابدهم». أما الصناعات المنقرضة فتتمثل في صناعة النسيج اليدوي التي تسمى «المحايك»، فقد ذكروا أن في مدينة تريم، وذلك قبل مئة عام أويزيد، أكثر من أربعين معملاً يدوياً للحياكة على الطراز القديم، وقد تم الاستغناء عنها بسبب تكاثر الطلب، وتقدم الصناعة الحديثة، وسهولة الاستيراد الخارجي. وهناك حرفتان منقرضتان تقريباً تتمثل الأولى في عمل الدباغة لجلود الأغنام، إذ كان الطلب متزايداً في استعمال الخزان المائي المحمول من جلد الأغنام، ونتيجة لدخول المدنية الحديثة، وتقدم صناعة البرادات تم الاستغناء تقريباً عن الصناعة القديمة، أما الصناعة الثانية والتي هي من نسيج الخوص والتي كان يصنع منها السلالم، والمراوح اليدوية، والحصر، وستائر النوافذ، وسفرة الطعام، فقد زحفت الصناعة الحديثة على كل هذه الأغراض ذات المنشأ المحلي، وغدت رغبة الناس فيما ينتج من هذه المواد المصنّعة بطرائق ووسائل تقنية جديدة.



قصر القبة

اللباس والطباخة

في مدينة تريم يكاد لباس الناس يكون موحداً، وبسبب هجرة الآباء والأجداد إلى الجزر الملايوية تأثروا بلباسهم، ونقلوه إلى موطنهم الأصلي، فترى عامة الناس تقريباً يرتدون الإزار «الصاروم»، ويتقلدون المعطف (الجاكيت) القصير «القميص»، ويضعون القبعات على رؤوسهم «الطاقيات ـ الكوافي»، ويلبس الشيوخ ومن في درجتهم القميص الأبيض العربي الطويل والعمامة. وللمرأة في تريم لباسها الخاص الذي يعرف بلباس الحشمة والوقار، وأغلب النساء في المدينة ربات بيوت لايختلطن بالرجال حتى في المناسبات. ويمتاز المطبخ التريمي بالتنوع في المأكول والتفنن في الإعداد والتحضير، وترى أحياناً في المائدة الواحدة من الطعام والإدام أكثر من عشرة أنواع، أغلبها مستورد، إلا أنه بفعل التقادم الزمني أصبح متأصلاً، وفناً من فنون الطبخ والعمل المنزلي.

الشعر والقناصة والرياضة

أغلب بيوتات تريم تجد فيها شعراء على مرور

الزمان، وربما تناسلت المواهب الشعرية، فأخذها المعاصرون أبًا عن جد، وقد ذكر الأستاذ عبدالله محمد السقاف في كتابه «تاريخ الشعراء الحضرميين» كثيرًا من شعراء تريم عند ترجمته لشعراء حضرموت. ولقناصة الظباء والوعول اهتمام كبير خاصة عند الماهرين في فن القناصة فترى في أوقات فصل الشتاء جماعات ترحل إلى شعاب الجبال، وتبقى أيامًا، لغرض القنص، أما الرياضة فتتخذ لها مكاناً كبيراً في صفوف الشباب، ومازالت محل أنظار الجيل الجديد وإعجابه.

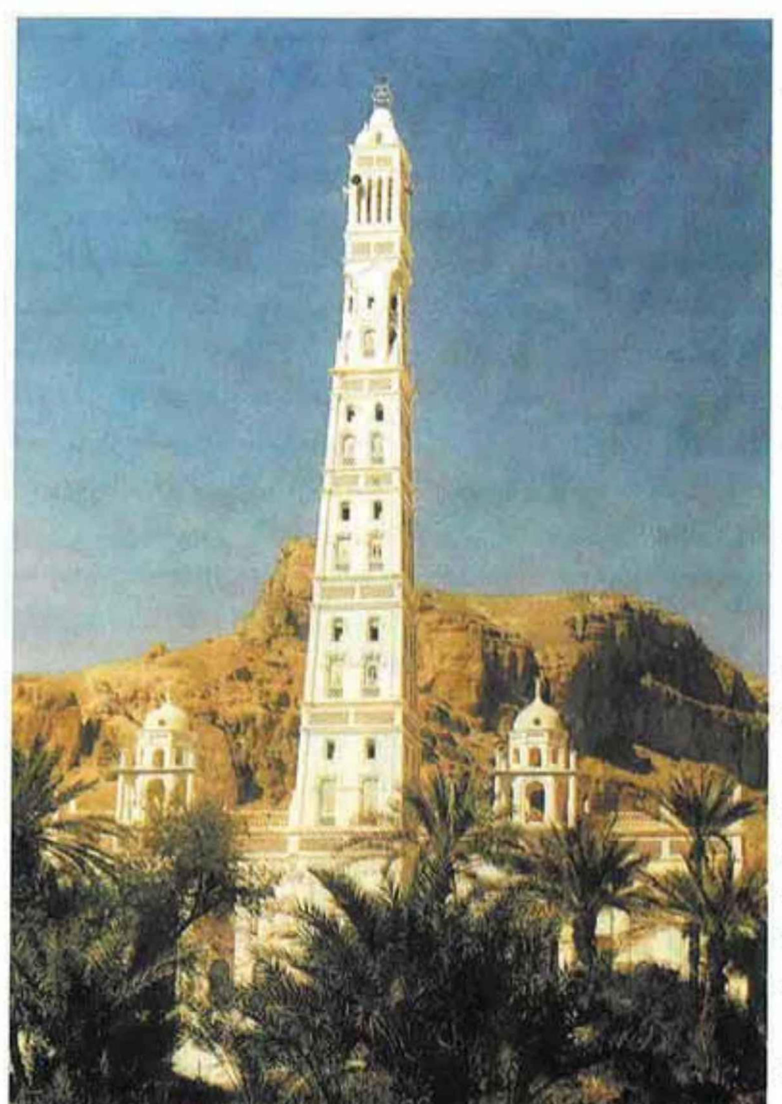
الألعاب الشعبية والفنون

وتتمثل الفنون في «الدان» الذي ترك بصمات جلية على نجاحه في صفوف المجتمع قبل أكثر من قرنين من الزمان، والنوع الآخر هو فن «الزربادي» الذي مازال يمارس منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ويؤدى في حفلات الزواج، وإن كانت هناك الفرق الموسيقية الحديثة التي تزحف على هذا الفن إلا أنه يبقى قائماً له جمهوره الخاص.

الشبواني: من الألعاب الشعبية الشهيرة الباقية إلى يومنا هذا، ولها امتداد تاريخي لعبة الشبواني، ويقال: إن أصلها من شبوة، ويحمل مؤدوها العصي يلوحون بها في الأفق، ويلبسون نوعًا خاصًا من الأردية، وعلى رؤوسهم «عمائم»، ويسيرون في الطريق على إيقاعات ونغمات شعرية معينة .

الرزيح: لعبة شعبية، وسميت بالرزيح لأن الذين يمارسون هذه اللعبة يرزحون بأرجلهم على الأرض.

النشيد: ويرجع تاريخ ظهور النشيد إلى مايقرب من ألف عام. وفيه تنوع يدل على قدمه، وهو غني يحتاج إلى دراسة وتوثيق من ذوي الشأن.



مئذنة مسجد المحضار

تريم في العهد الجديد

تم إعلان انضمام مدينة تريم عام١٩٩٤م إلى عضوية المدن الإسلامية في الدورة الرابعة عشرة للمجلس الأعلى لمنظمة المدن والعواصم الإسلامية

شهدت المدينة بعض المنجزات والمكاسب، منها: تحويلها من مركز إلى مديرية بقرار جمهوري صدر عام١٩٩٩م. وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين أدخل البث التلفازي إلى المدينة عبر شبكة داخلية لإعادة البث لقناة عدن التلفازية ثم الربط

والاستقبال المباشر، وما لبث كذلك حتى عمم البث المركزي للقناة الأولى من العاصمة صنعاء. وفي المدينة تيار كهربائي ممتد من محطة كهرباء الوادي التي أنشئت عام ١٩٨٣م، والتي تغذي كل مدن وادي حضرموت. بعد أن كان لتريم شركة كهرباء خاصة في مشروع أهلي، كما تم إنجاز مشروع مياه حديث مولته الحكومة، وقرض من البنك الدولي عام ١٩٩٩م

وأدخل الهاتف في المدينة عام ١٩٨٧م. ورصفت بعض شوارع المدينة الداخلية بخط معبّد جديد.

ويرتاد المدينة يوميًا سيّاح من مختلف أنحاء العالم للاطلاع على معالمها وتراثها وتاريخها العريق.

قصر السلام

النشاط الاقتصادي

وفي المدينة نشاط تجاري تشهده منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس، إذ تقل الحركة، بل تتلاشى تدريجيًا عند الليل، ويعتمد ذلك النشاط بقدر كبير على عائدات المغتربين من التحويلات المالية للبلاد

ولأبناء مديرية تريم اهتمام بالزراعة وتربية الحيوانات. والثروة الحيوانية في تريم تكاد تكون محصورة على الأغنام والدواجن، وتتكاثر في المزارع والمناطق الريفية بالمديرية، إذ تتوالد وتنمو بسرعة نتيجة لوجود الجو الملائم لها، ويهتم أهالي المدينة بتربيتها في البيوت، ويعتمدون على شراء غذائها من العلف والبرسيم خلاف أبناء البادية الذين يعتمدون في غذائها الأساسي على الرعي.

وتشير دلائل الاستكشافات القديمة والجديدة أن المنطقة تختزن ثروة معدنية ستسهم مستقبلاً في تحسين الأوضاع بشكل عام

عادات ومأكولات

ويجلس أفراد الأسرة يوميًا لتبادل أطراف الحديث، وشرب الشاي الذي أصبح عادة وتقليدًا عائليًا راسخًا والذي ظهر أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وهو أول ما يقدم للضيف في مدينة تريم.

وهناك عادات للترويح النفسي منذ أمد بعيد تتمثل في النزهة ليلاً ومازالت قائمة إلى يومنا هذا، إذ يتم الاحتفال، وخاصة من قبل الأطفال والشباب، فيطلعون الجبل بمعداتهم وأواني الشرب والأكل يقضون ليلتهم في فرح ومرح، وذلك يوم السابع من شهر ذي الحجة، ويومًا ثانيًا هو آخر أربعاء من شهر صفر من كل عام.

أما المأكولات القديمة التي لها امتداد سابق في عهد الآباء والأجداد، والتي يتوارثها الناس جيلاً بعد آخر فتتمثل في عملية تخزين التمر في الأزيار المصنوعة من الخزف، وكذا تجفيف قسط من لحوم الأضاحي ومزجه بالبهارات والخل حتى لايتلف، وتخزينه في بالونات لحمية «بنكرياس الأغنام» ثم استعماله كما جرت العادة ليلة رأس السنة الهجرية، ووقت الحاجة إليه في سائر أيام السنة.

وأغلب البيوت في تريم من الطين وتجصص من الداخل بالنورة البيضاء، وربما من الخارج أيضًا.

ترجمة

صعوبات في ترجمة القرآن الكريم وأولوياتها

أحمد عبدالرحمن أوكواته تشابا
دبيراسن - المجر

من يحاول ترجمة القرآن الكريم إلى أي لغة يواجه - لا شك - بعض الصعوبات، ومن واقع تجربتي أستطيع أن أشير إلى بعض النقاط التي قد تكون ترجمتها صعبة إلى اللغة المجرية أو إلى أي لغة أجنبية.

مسائل شائكة

أولاً: لترجمة القرآن الكريم - إلى أي لغة في رأيي - أهميتان: الأهمية الأولى هي حاجة المسلمين المجريين ومسلمي العالم إلى ترجمة صحيحة ووثيقة ومفيدة لكي يفهموا كلام الله سبحانه وتعالى الذي قرر فيه أوامره ونواهيه. ولكي لا يكون مسلمو المجر كما كان نصارى العصور الوسطى في أوربا الذين كانوا يستمعون إلى الإنجيل باللغة اللاتينية، وهم لا يجيدون هذه اللغة.

والأهمية الثانية: عرضه على غير المسلمين بشكل واضح كي يحصلوا على صورة إيجابية وصحيحة لهذا الكتاب الجليل.

ثانيا: مسألة كيفية الترجمة نفسها. هل تكون الترجمة صريحة حرفية أم تكون ترجمة حرة؟ يتعلق هذا الأمر بمسألة حرية المترجم ومسؤوليته.. ويوجد هنا إمكانيتان: (الأولى) إذا كان المترجم غير مسلم فهو يكتب ما يشاء.. لقد لاحظنا فيما مضى أشياء غريبة جداً في الترجمات المختلفة: تحيّز سياسي أو ديني.. ومن الممكن أن يحرّف هذا المترجم النص إمّا عن سوء نية، وإما عن سوء فهم، وإما بسبب فقده المعرفة الكافية.

باللأسف الشديد حدث هذا في تاريخ التراجم المجرية: نقرأ في القرآن الكريم: *الذين يتّبعون الرّسول النّبي الأُمّيّ*.. الأعراف: ١٥٧.

وقد ترجم هذا النص القرآني كما يأتي:

(Akik Kovetik aKuldottet a pogany Provetat..) ومعنى هذه الجملة المجرية: (الذين يتبعون الرسول النبي المشرك) أعوذ بالله سبحانه وتعالى مما يكتبون.

إذاً كلمة (الأمي) ترجمت بالكلمة (Pog`any) بمعنى (المشرك) إمّا تعمداً وإما جهلا.. وهذه الترجمة موجودة الآن بين أيدي القراء المجريين.

وفي صحيح البخاري نجد الحديث الآتي: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنا أمة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب... ويوضح الحديث معنى كلمة (أمي).. وهو من لا يقرأ ولا يحسب.. أقول: إن أميّة الأمة وأمية النبي صلى الله عليه وسلم من باب إعجاز القرآن، وكونه من كلام الله ووحيه.

والإمكانية الثانية: أن يكون المترجم مسلماً.. فهذا المترجم المسلم الجاد يعرف أن هذا الكتاب العظيم هو كلام الله عز وجل من فاتحته إلى قول تعالى: من الجنة والناس. وهو يعرف أيضاً ضرورة أنه لا يستطيع أن يضيف كلمة واحدة إلى النص، ولا يستطيع أن ينقص منه كلمة واحدة.

وعلى كل حال من الواجب أن يكون المترجم عارفاً باللغة العربية الفصحى، وعارفاً بقواعد النحو وإعراب الكلمات، وعارفاً بالمصادر اللازمة لعمله، ككتب التفسير وكتب الحديث النبوي، وعارفاً بالسيرة النبوية الشريفة، وعارفاً بأسباب النزول، وعارفاً بالمسؤولية التي تولاها، إلى أشياء أخرى كثيرة.

عدم وجود مترادفات لبعض الكلمات وعدم وجود التأنيث في اللغة المجرية من المشكلات التي تواجه من يحاول ترجمة القرآن الكريم

ماذا عن الحروف؟

ثالثاً: مسألة الحروف المقطعة في أوائل السور مثلاً: (ألم) في سورة البقرة وفي سورة آل عمران و(ألمص) في سورة الأعراف و (ألر) في سورة يونس والحروف الأخرى.

أما بالنسبة إلى هذه الحروف فمفسرو العرب يختلفون في معناها، فمنهم من يقول:

- هي أسماء استأثر الله بعلمه بفحواها فردُوا علمها إلى الله ولم يفسروها.

وطائفة أخرى فسرتها، ولكن اختلفوا في معناها، فقالوا: إن هذه الحروف هي أسماء السور (عبدالرحمن بن زيد بن أسلم) أو هي فواتح افتتح الله بها القرآن الكريم (سفيان الثوري).

- ومنهم من يقول: اسم من أسماء القرآن، وتوجد هناك تفاسير أخرى.. راجع إن شئت مجلة الفيصل العدد ٢٩١ من صفحة ٤٩ إلى صفحة ٥٦.. ولكن لهذه الحروف أهمية كبيرة في التلاوة إذ نعرف أن لها قسماً خاصاً في أحكام التلاوة: مدّها وكيفية مدّها وزمن مدّها إلخ.

وهنا أمام المترجم اختياران:

الأول أن يترجم هذه الحروف إلى لغته فيكتب المجري مثلاً a-L-m ونطقه A-El-Em. أو يكتب المترجم الإنجليزي a-l-m فنطقه ei-el-em.

والاختيار الثاني هو الأفضل: يعني أن يترك المترجم هذه الحروف في شكلها العربي ويكتبها بالحروف اللاتينيه مثلا: alif-lam-mim.

حكمة أخرى من كتابتها بالحروف اللاتينية: إذا كان لهذه الحروف معنى سرّي لا نعرفه، فلا بد أن تبدأ الكلمة بهذه الحروف، والمترجم لا يعرف هذا المعنى الخفي فلا يستطيع أن يكتب بلغته الحرف الأول من هذا المعنى.

غياب الترادف

رابعاً: مسألة ترجمة أسماء الله الحسنى في سورة الحشر: ٢٤ نقرأ:

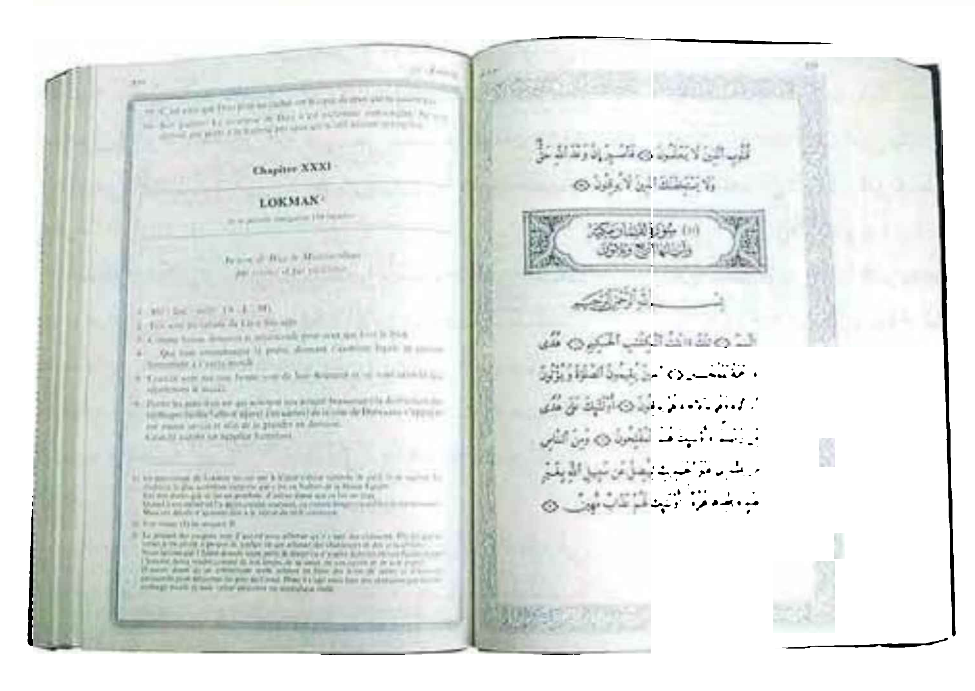
«هو اللهُ الخالقُ البارئُ المُصوِّرُ له الأسماءُ الحُسْنَى يُسبِّحُ له ما في السَّماواتِ والأرْضِ وهوَ العزيزُ الحكيمُ» كلمتان في هذه الآية الكريمة تشيران إلى معنى واحد

- الخالقُ من خلقَ يَخلُقُ.
- البارئُ من برأ يبرأ.

لكن لا يوجد في اللغة المجرية إلا كلمة واحدة لهذا المعنى وهي teremteni فماذا نفعل، وكيف نترجم اسمي الفاعل هذين؟ هل نترك واحداً منهما ونقول في التعليقة: إن في النص العربي كلمتين تدلان على معنى واحد؟

حتى في القواميس الإنجليزية نجد برأ create (said of Allah)، وخلق Create. وفي المجرية لا توجد مترادفات للفعل teremteni بالمعنى نفسه أو بمعنى مشابه.

وفي آية الكرسي نقرأ: «الله لا إلهَ إلا هوَ الحيُّ القَيُّوم..» البقرة: ٢٥٥ كلمة (القيوم) لا يمكننا



ترجمتها بكلمة واحدة بل نحن نحتاج إلى كلمتين أو أكثر، لكن النص المترجم يتغير كثيراً. ومسألة ترجمة أسمائه من الفعل نفسه مثلا: القَدير ـ المُقتَدرُ من قَدرَ يقَدرُ. العَليُّ ـ المُتعالي من علا يعلو.. وفي القاموس العربي ـ الإنجليزي هانس فير وعنوانه Hans Wehr The Hans Wehr Dictionary of modern written Arabic نحن نجد: قَدرَ يقْدرُ ـ بمعنى (to possess strength, power or ability) والمزيد الثامن (افتعل) يعني اقْتَدر يقْتَدرُ بمعني «قدر يقدر».. ولكلمة «العلي» نجد المعنى الآتي: High, elevated, the Most High, Supreme ولكلمة «المتعالي»: High elevated, the Most high, Supreme Being المعنى نفسه، لا فرق بينهما، أو الكلمتان ـ الرحمن والرحيم ـ من رحم يرحم: بالإنجليزي كلتاهما merciful - merciful، وبالمجري أيضاً كلتاهما Konyoruletes، ولكن على المترجم أن يشير إلى الفرق المعنوي بينهما:

ـ الرحمن هو لجميع الخلق الذي يرحم أهل الدنيا والآخرة.

ـ والرحيم خاصّ بالمؤمنين يوم القيامة.. إذاً، ما الطريقة لحلّ هذه المشكلات؟

إن أراد ناقل النص أن يترجم هذه الأسماء بدقة، فعليه أن يشرحها في تعاليق كثيرة.. فهاهنا تظهر مسألة التفاسير، يعني أي تفسير يؤخذ، وأي تفسير يرفض؟ من الواجب أن يفكر المترجم في التفاسير التي يريد أن يستعملها.. هل يستعمل تفسيراً كاملاً مثل تفسير ابن كثير، أو المحرر الوجيز لابن عطية؟ وهذه التفاسير تتألف من عدة مجلدات، أو يستعمل تفسيراً مختصراً، وفي هذا النوع من التفسير لا يوجد إلا المعلومات المهمّة، وإشارات لغوية، مثل مختصر تفسير ابن كثير للصابوني. والنوع الثالث هو تفسير المعاني والألفاظ، والأشهر من هذا الصنف هو تفسير الجلالين. ومجرى هذه العملية بقدر علم المترجم وبقدر معرفته.

لكن باستخدام التفاسير والتعاليق على النص المترجم لن يكون مشابهاً للنص الأصلي العربي ومعناه أيضاً قد يتغير. لذلك من الواجب أن نقول: إن ترجمتنا هي «ترجمة معاني القرآن».

أسماء الأعلام ويوم القيامة

خامساً: مسألة ترجمة الأسماء النادرة الواردة في الأماكن المختلفة وشرحها مثلا: أحمد ومحمد وإبراهيم وإسحاق ويوسف وموسى وعيسى.. معظم هذه الأسماء معروفة لدى القارئين المجريين بمعنى ما.. ولها ترجمة مجرية ـ أحمد Ahmed محمد Mohamed إبراهيم Abraham إسحاق Izsak يوسف Jozsef موسى Mozes عيسى Jezus.

لكن على المترجم أن يشرحها ويفسرها في ضوء

الإسلام، وعليه أيضاً أن يشرح - مثلاً - أن عيسى - عليه السلام - ليس ابن الله (أعوذ بالله مما يصفون)، وأن يفسر أنه نبي من أنبياء الله، وواحد من أولي العزم لكن: *لا نفرّق بين أحد منهم*. **البقرة**: ١٣٦.

المشكلة الكبرى هي ترجمة الأسماء التي ليست معروفة في الثقافة المجرية والأوربية مثلا: شعيب وصالح وعاد وثمود وقريش، وقصة أصحاب الأيكة، وقصة أصحاب الأخدود، وقصة أصحاب الفيل، وقصة أبرهة الحبشي، وأهمية عام الفيل وإلخ..

سادساً: مسألة ترجمة أسماء يوم القيامة، في سورة النازعات ٣٤ نقرأ «فإذا جاءت الطّامّة الكبرى» لماذا «الطامة» وما هي الطامة؟

الترجمة الحرة قد تجعل المترجم يحرف النص إما عن سوء نية وإما عن سوء فهم وإما بسبب عدم المعرفة

أو في سورة عبس ٣٣ نقرأ «فإذا جاءت الصّاخّة» هنا المفسر العربي يكتب «يعني الصيحة» والقارنون الناطقون باللغة العربية يمكنهم أن يبحثوا عن المعنى في التفاسير، أو في كتب الحديث الشريف، أو في ما كتب عن علامات القيامة الصغرى والكبرى، لكن القارئ المجري لا يفهم ما معنى الصاخة بالنسبة إلى القيامة، وما علاقة الكلمتين الواحدة بالأخرى. لذلك هنا، نحن المترجمين، نحتاج إلى قول السلف الصالح، وإلى الأحاديث النبوية الشريفة لكي نفسرها ونترجمها بمعنى صحيح.

التأنيث والتثنية

سابعاً: مسألة اختلاف نظام اللغتين العربية والمجرية. توجد هنا مشكلتان كبيرتان أو ثلاث:

الأولى: لا يوجد في اللغة المجرية التأنيث، إذا في لغتنا لا فرق بين «هو» و«هي» كلاهما (O) وبين «أنت» و«أنت» كلاهما (te) وإلى آخره. فإذا جاء مثلا: *قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر*. آل عمران: ٤٧. فترجمة الفعل في هذه الآية الكريمة هي: Mondta، وإذا جاء مثل: *قال ربّ اجعل لي آية*. آل عمران: ٤١. فترجمة الفعل في هذه الجملة مثل ترجمته في الجملة السابقة: Mondta والقارئ المجري إذا، لا يعرف أنّ الفعل (قالت) هو كلام مريم والفعل (قال) في الآية الثانية هو قول زكريا. فعلى المترجم أن يشير ويدقق في الفرق إمّا باستخدام تعليقة وإما باستخدام القوسين.

الثانية: لا توجد في المجرية صيغة خاصة بالتثنية فإذا جاء - مثلاً: *وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين*. **البقرة**: ٣٥.

الأفعال «كُلا» و«شئتما» و«لا تقربا» و«فتكونا» تترجم في الجمع إلى المجرية كأنها كانت في النص العربي كما يلي «كلوا» و«شئتم» و«لاتقربوا» و«فتكونوا» ومن الواجب أن نقول أو نخبر القارئين بأن الأفعال لا تدلّ إلا على شخصين.

الضمير والمخاطب

الثالثة: مسألة الضمير هل هو عائد إلى اسم مذكر، أم إلى اسم مؤنث كما في قوله تعالى: *والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهنّ فلا جُناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف والله بما تعلمون خبير*. **البقرة**: ٢٣٤.

وأعني الكلمات التالية: «منكم« و«بأنفسهن» و«أجلهن» و«عليكم» و«في أنفسهنّ» وإلى هذه المشكلات تضاف مسألة فهم النص، وفهم الآية، وأحياناً فهم السورة كلها، وأقصد بهذا الكلام مثلاً سورة العاديات الآيات ١ - ٥ حيث قال الله سبحانه وتعالى: والعاديات ضبحًا، فالموريات قدحًا، فالمغيرات صبحًا، فأثرن به نقعًا، فوسطن به جمعًا.

في هذه الآيات لا نعرف ما هي «العاديات» و«الموريات» و«المغيرات». إذا في هذا القسم القرآني

وأمثاله صعوبة كبيرة خلال الترجمة. أكثر المفسّرين يقولون: إن الله عز وجل أقسم بالخيل.

وفي الآيات: ألَمْ يجدكَ يتيماً فآوى، ووجدكَ ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنَى.

من المخاطب في هذه الآيات الكريمة؟ القارئ العربي يقول هو النبي صلى الله عليه وسلم، لكن المسلم المجري أو أي مسلم أسلم قريباً، لا يعرف شيئاً عن حياة رسولنا صلى الله عليه وسلم.. لذلك كان مجرد ترجمة القرآن الكريم، في رأيي، ليس بكاف، بل من الواجب أن يكون مع النصِّ المترجم شرح مختصر من أجل إيضاح الآيات.

ثامناً: شيء مهم جداً وهو تقسيم الكتاب: فمن مهمّة المترجم أن يخبر القارئين بأن المقطع الأوّلي والأساس الرئيس في القرآن الكريم هو الآية، ولا يوجد فيه قصص طويلة باستثناء سورة يوسف، وهي قصة واحدة طويلة تقصُّ لنا حكاية يوسف وعائلته.

إن لم يخبر ناقل النص بهذا الأمر فسيبدو القرآن الكريم كأنه أجزاء متعددة مقطوع بعضها عن بعض، لا علاقة بين آياته. عليه أيضاً أن يفسر هذا من جهة العقيدة الإسلامية التي تقول: أنزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة، وأنزل على محمد صلى الله عليه وسلم خلال السنوات الكثيرة. هنا يمكن أن يذكر مسألة أسباب النزول ومسألة الرجال والنساء الذين أنزل فيهم قرآن.

مشكلات أخرى

حتى الآن لم أذكر إلا بعض الأشياء البسيطة، لكن توجد مشكلات كثيرة أسرد منها بعضها:

مسألة الأسماء التي ذُكرت مرة واحدة أو الكلمات الأجنبية «زمهرير»، «زنجبيل»، «بابل»، لا نستطيع أن نبحث عن معناها في آية أخرى، وعلى المترجم أن يقرأ كتاباً فيه شرح هذه الأسماء مثل: «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي. هذه الأسماء تسمى في العلم الغربي hapax legomenon بكلمة إغريقية.

مسألة الآيات المتشابهات والمحكمات التي قال الله تعالى فيها: *هُو الَّذي أنزل عليْك الكتاب منهُ آياتٌ مُحكمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخر مُتشابهاتٌ*. آل عمران:٧.

مسألة القرآن قليل الكلمة وكثير المعنى. هذه المشكلة هي الكبرى وحلها الأصعب على المترجمين، وهنا أقصد: فهم النص كله وتدبره وترجمته.

مسألة الأسلوب اللغوي، ومنهاج الترجمة اختيار الكلمات المستخدمة.

مسألة ترجمة كلمة «الله» هل تُترجم هذه الكلمة أم تكتب Allah بالحروف اللاتينية؟

مسألة اختيار المعجمات، لأنه لا يوجد معجم عربي ـ مجري.. وواجب علينا أن نستعمل معجمات

المسلمون المجريون في حاجة ماسة إلى إعداد معجم عربي ـ مجري أو إلى معجمين: معجم للغة العربية الفصحى فيه ألفاظ القرآن الكريم ومعجم للغة الحديثة

باللغات الغربية إنجليزي فرنسي ألماني.. لنستطيع أن نقول إن المسلمين المجريين في حاجة ماسة إلى إعداد معجم عربي ـ مجري أو إلى معجمين.. معجم للغة العربية الفصحى، فيه معجم ألفاظ القرآن الكريم، ومعجم للغة الحديثة.

عرضت هنا أسئلة والجواب عنها على المترجمين في المستقبل.

ختاماً أقول: إذا عرف الناس حقيقة هذا الكتاب العظيم، وتقبلوا مبادئ الإسلام الخالصة والقيمة فيكون هذا الكتاب الجليل ـ حتى المترجم ـ عيناً يشرب بها المؤمنون، فستكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى بإذن الله سبحانه وتعالى ومشيئته.

وأخيرً أدعو الله عز وجل أن يوفقنا لهذا العمل.

التصحر في دول مجلس التعاون الخليجي

عدنان هزاع البياتي
الفجيرة - الإمارات

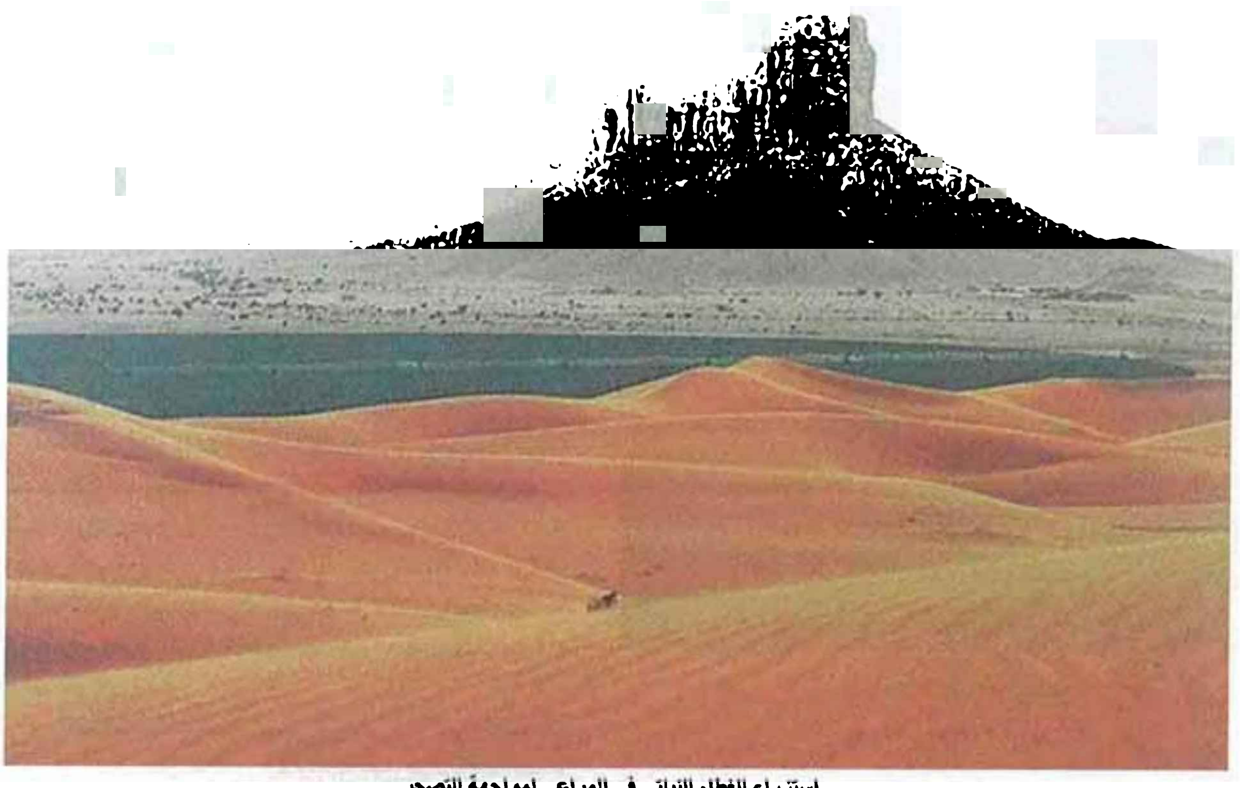
يحافظ النظام البيئي على توازن محكم بين شتى مكوناته، مادام الإنسان لم يتدخل فيه بصورة غير عقلانية، لكن هذا التوازن قد يختل نتيجة لسوء استعمالات الإنسان للأرض، فيفقد النظام البيئي توازنه تدريجيًا، ويكون التصحر نتيجة لخلل النظام البيئي.

ومصطلح التصحر يثير بعض اللبس، ولقد عرّف مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالتصحر في عام ١٩٧٧م هذا المصطلح بأنه انخفاض أو تدهور قدرة الإنتاج البيولوجي للأرض، مما يؤدي في النهاية إلى خلق أوضاع شبه صحراوية، وهو أحد جوانب التدهور الشائع الذي تتعرض له النظم البيئية، مما يتسبب في انخفاض أو تدمير الإمكانات البيولوجية (الإنتاج النباتي والحيواني) في وقت تشتد فيه الحاجة إلى زيادة الإنتاج لتلبية احتياجات السكان الذين يتزايدون باستمرار ويتطلعون إلى تحقيق التنمية.



والواقع أن هذا التعريف غير ملائم، ولا يكفي من الناحية العملية عندما بدأت محاولات في أجزاء مختلفة من العالم لتنفيذ التوصيات المختلفة لخطة العمل لمكافحة التصحر، ولإجراء التقويمات الكمية للتصحر. وقام العلماء، كما قامت المؤسسات العلمية، بوضع مجموعة من التعاريف للوصول إلى تعريف أكثر دقة. كان منها التعريف الذي اعتمد الأعمال التحضيرية لمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في البرازيل الذي عرف التصحر بأنه تدهور الأرض في المناطق الجافة وشبه الجافة، والمناطق الجافة شبه الرطبة، والناتج أساسًا من آثار بشرية معاكسة.

وتشمل الأرض في هذا المفهوم التربة، وموارد المياه المحلية، والغطاء النباتي والمحاصيل، ويعني التدهور خفض إمكانات الموارد من



استزراع الغطاء النباتي في المراعي لمواجهة التصحر

خلال عملية أو مجموعة من العمليات التي تؤثر في الأرض، كالتآكل بواسطة المياه والرياح، والترسيب بواسطة هذه العوامل، والانخفاض الطويل الأجل في كمية الغطاء النباتي الطبيعي أو تنوعه. وكلما تعلق الأمر بالملوحة وزيادة نسبتها.

ويعني التصحر - لأغراض اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر - تردي الأراضي في المناطق القاحلة وشبه الجافة، والجافة شبه الرطبة، نتيجة عوامل مختلفة من بينها الاختلافات المناخية والأنشطة البشرية، أما مصطلح مكافحة التصحر فيعني الأنشطة التي تشكل جزءاً من التنمية المتكاملة للأراضي في المناطق القاحلة وشبه القاحلة، والقاحلة شبه الرطبة، من أجل التنمية المستديمة، والتي ترمي إلى منع تردي الأراضي أو خفضه، وإعادة تأهيل الأراضي التي تردت جزئياً، واستصلاح الأراضي التي تصحرت.

ويحدث التصحر نتيجة لاختلال العلاقة التوأمية بين الإنسان وبيئته بعد تحقيق حاجاته ومتطلباته، ويتبلور التصحر في أشكال ومظاهر كثيرة، منها:

- تعرية التربة بفعل الرياح والمياه.
- تدهور الخواص الفيزيائية والكيماوية والأحيائية للتربة.
- فقدان الغطاء النباتي الطبيعي (مراعي - غابات).
- زحف الرمال وتكوين الكثبان الرملية.
- تملح الأراضي وانخفاض إنتاجيتها.
- حدوث ظاهرة الغبار والعواصف الغبارية.

ويمتاز التوازن البيئي في دول مجلس التعاون الخليجي بحساسيته المفرطة الناتجة من الخصائص المناخية والهيدرولوجية المتميزة، والتي تنتج نماذج إيكولوجية حرجة حساسة، تكون دوماً معرضة لشتى أنواع التراجع والتدهور اللذين يصيبان المناطق الجافة، إلا أن هذا التوازن يمكن أن يضطرب بسرعة نتيجة سوء استغلال هذه الأنظمة من قبل الإنسان.

وعلى الرغم من الدور الذي تؤديه الظروف المناخية السائدة في هذه المنطقة في حدوث ظاهرة التصحر، إلا أن تلك الظروف ما هي إلا عوامل مساعدة لتصعيد هذه الظاهرة، علماً بأن الظروف المناخية في هذه المنطقة لم يطرأ عليها تغيير منذ انتهاء الحقبة الرطبة قبل عشرة آلاف سنة تقريباً، أي أن المناخ ليس هو فقط الذي يؤدي إلى اضطراب الساعة الإنتاجية للمياه التي تلبي الحاجات المختلفة للإنسان، فلقد كانت المنطقة تنعم بتوازن بيئي حساس، لم يتعرض للخلل أو التراجع إلا في العقود الأخيرة، فبدأت المشكلة تأخذ أبعاداً قاسية في هذه المنطقة عندما نشطت يد الإنسان محدثة الخلل غير المقصود في التوازن الإيكولوجي، ومن ثم تدهورت طاقة الأرض البيولوجية، مما نتج منه تراجع في قدرتها الإنتاجية. لذا فإن العامل الأساسي يكمن في إفراط

الإنسان باستخدام الأراضي الجافة استخداماً سيئاً في هذه المنطقة.

ولقد انطلق الغرض العلمي لهذا المقال من حقيقة مضمونها أن للتصحر بعض الآثار الاقتصادية، وأن الاستثمار في مكافحة التصحر هو أساس تحقيق التنمية المستديمة في دول مجلس التعاون، وسنحاول معالجة هذا الموضوع من خلال المحاور الآتية:

أسباب التصحر في دول مجلس التعاون

تبلغ مساحة دول مجلس التعاون ٢٤٧.٥٢٥ ألف هكتار، وفيها تجتمع كل عوامل التصحر ومظاهره، وعلى الرغم من سيادة الجفاف في هذه المنطقة. إلا أنه يعد ظاهرة طبيعية تعلم سكان المنطقة كيفية التكيف معه بإستراتيجيات قديمة العهد.

ويعدّ الإنسان هو العامل الرئيس للتصحر، وهو ضحيته في الوقت نفسه، فلقد أدت زيادة الطلب على الإنتاج إلى ضغط على الأراضي المنتجة، ودفع بحدود الإنتاج إلى الأراضي الهامشية، فهناك اتجاه مستمر للتوسع في الري بحيث يشمل الأراضي الديمية، بينما تزحف الزراعة الديمية على أراضي المراعي الأفضل حالاً، فيتجه الرعاة إلى الانتقال إلى مناطق أكثر جفافاً، يصاحب هذه العملية معدلات متزايدة لتدهور التربة.

إن الاستخدام المفرط للأراضي الزراعية والمراعي واجتثاث الأحراج والنحات بفعل الرياح والمياه والتملح، هي عوامل ناتجة أساساً من زيادة السكان ونشاطاتهم في البيئة، وزيادة أعداد الماشية والرعي الجائر؛ بالإضافة إلى الإدارة غير السليمة للمزارع والمراعي، وزاد من ذلك الهجرة الجماعية لسكان الريف في المناطق المتأثرة بالتحصر، فأهملت الأرض. ولما كانت النظم البيئية فيها حساسة وهشة، لذا نجد أن عملية تدهور الأرض فيها كانت ملحوظة بدرجة كبيرة.



المساحات المتأثرة بالتصحر في دول مجلس التعاون

تبلغ مساحة الأراضي المروية في دول مجلس التعاون ٤٦٣ ألف هكتار، منها ١٩٠ ألف هكتار، تشكل ٤١٪ من إجمالي المساحة المروية، تعد أراضي غير معرضة للتصحر، أو معرضة للتصحر الطفيف، بينما تبلغ مساحة الأراضي المروية المتصحرة بدرجة معتدلة ٢١٣ ألف هكتار، تشكل ٤٦٪ من إجمالي المساحة المروية، أما مساحة الأراضي المروية المتصحرة بدرجة شديدة أو شديدة جداً فتبلغ ٦٠ ألف هكتار، تشكل ١٣٪ من إجمالي الأراضي المروية.

وتبلغ المساحة الكلية للأراضي المحصولية المطرية ٧٧٠ ألف هكتار، منها ٣٠٦ آلاف هكتار، تشكل ٣٩.٧٪ من الأراضي المحصولية المطرية، غير متأثرة بالتصحر أو أنها متصحرة بدرجة طفيفة، بينما تبلغ المساحة التي تأثرت بتصحر معتدل ٤٢٣ ألف هكتار، تشكل ٥٥٪ من إجمالي الأراضي المحصولية المطرية، أما المساحة التي تأثرت بتصحر شديد أو شديد جداً فتبلغ ٤١ ألف هكتار، تشكل ٥.٣٪ من إجمالي الأراضي المحصولية المطرية.



الاستثمار في مكافحة التصحر هو الحل الأمثل للحفاظ على بيئتنا الجافة



التصحر يؤدي إلى تدهور إنتاجية الأرض

ونصل مساحة أراضي الرعي في دول مجلس التعاون إلى ١٣٥.٤٦٤ ألف هكتار. منها ٢٤.٧٤٩ ألف هكتار غير متأثرة بالتصحر أو متأثرة به بدرجة طفيفة، و٦٦.٥١٢ ألف هكتار منها متأثرة بالتصحر بدرجة معتدلة، و٤٤.٤٠٣ ألف هكتار متأثرة بدرجة شديدة أو شديدة جداً.

وبهذا فإن مجموع الأراضي المروية والمطرية والرعوية المتصحرة بدرجة معتدلة فما فوق في دول مجلس التعاون يبلغ ٦٥٢ ١١١ ألف هكتار، تشكل ٨١.٧٪ من مجموع مساحة هذه الأراضي.

الخسائر الاقتصادية

لما كان التصحر يؤدي إلى تدهور إنتاجية الأرض في المناطق الجافة، وهو في الغالب ناتج من تأثير معاكس للإنسان، فإن هناك علاقة قوية بين درجة فقدان الإنتاجية ودرجة التصحر وطبيعة استخدام الأرض.

ويلاحظ أن العلاقة طردية بين فقدان الإنتاجية والتصحر، وتصل النسبة المئوية لفقدان إنتاجية الأرض أقصاها في الأراضي المتصحرة بدرجة شديدة جداً، وتتباين هذه النسبة تبعاً لطبيعة استخدام الأرض، فهي تراوح بين ٥٠ و١٠٠٪ في الأراضي المروية والأراضي المحصولية المطرية، وبين ٧٥ و١٠٠٪ في الأراضي الرعوية، أما في الأراضي المتصحرة بدرجة معتدلة، فإن هذه النسبة تراوح بين ١٠ و٢٥٪ في الأراضي المروية والأراضي المحصولية المطرية، وبين ٢٥ و٥٠٪ في الأراضي الرعوية.

وفي ضوء الأرقام الإرشادية التي قدرها برنامج الأمم المتحدة للبيئة للخسائر المباشرة للدخل المفقود سنوياً بسبب التصحر في المناطق المتأثرة بدرجة معتدلة من التصحر فما فوق والتي تصل إلى ٢٥٠ دولاراً للهكتار سنوياً من الأراضي المروية، و٣٨ دولاراً للهكتار سنوياً من الأراضي المحصولية المطرية، و٧ دولارات سنوياً للهكتار من أراضي الرعي، والأخذ في الحسبان الأرقام ذات الصلة بالمساحات المتأثرة بالتصحر بدرجة معتدلة فما فوق، ثم حساب مجموع الخسائر السنوية المباشرة التي تتكبدها دول مجلس التعاون بسبب استشراء ظاهرة التصحر، إذ تبلغ ٨٦٢.٣ مليون دولار سنوياً.

وإذا أضفنا الخسائر الاقتصادية غير المباشرة التي تسببها ظاهرة التصحر، والتي تراوح بين ٢ ـ ١٠ أمثال الخسائر الموضعية المباشرة، فإن الخسائر غير المباشرة التي تسببها ظاهرة التصحر في دول مجلس التعاون تصل سنوياً بين ١٧٢٤.٦ و٨٦٢٣ مليون دولار.

تكاليف الاستثمار في مكافحة التصحر في دول مجلس التعاون

إن الاستثمار في مكافحة التصحر هو الحل الأمثل للحفاظ على بيئتنا الجافة، وإن أي سياسة إنمائية سيكتب لها الإخفاق إذا لم تضع في كل مفرداتها أن تدهور الأرض هو جزء من المسألة الإنمائية، وأن مكافحة التصحر هي الأساس للتنمية المستديمة.

ولما كانت الوقاية خيراً من العلاج، وأقل تكلفة منه، لذا فإن الهدف المباشر لخطة عمل التصحر هو منع امتداد التصحر ووقفه، واستصلاح الأراضي المتصحرة، واستعادة إنتاجيتها حيثما كان ذلك ممكناً، أما الهدف النهائي لها فهو إحياء خصوبة الأراضي والمحافظة عليها في حدود الإمكانات البيئية المتوافرة في بيئتنا الجافة، ويتطلب ذلك جملة إجراءات يمكن حصرها في ثلاثة

مستويات هي:

ـ تدابير وقائية لمنع تردي الأراضي أو خفضه، ويتم استخدام هذه التدابير في الأراضي غير المتصحرة، أو التي تصحرت بدرجة طفيفة، وأهم هذه التدابير:

• مراقبة نوعية المياه والتربة والمراعي.
• تحسين إدارة المياه والتربة والمراعي.
• إدخال أصناف المحاصيل المحسنة والتكنولوجيات المناسبة.

ـ تدابير تصحيحية لإعادة تأهيل الأراضي التي تردت جزئياً، وتستخدم في الأراضي التي تصحرت بدرجة معتدلة، وهي تستخدم مع استخدام التدابير الوقائية الواردة فيما سبق. وأهم هذه التدابير:

• توفير الصرف الملائم.
• إدخال الزراعة الحراجية.

ـ تدابير لاستصلاح الأراضي التي تصحرت وإعادتها إلى الاستخدام الإنتاجي، وهي تستخدم في الأراضي المتصحرة بدرجة



تدابير لاستصلاح الأراضي ومواجهة التصحر

شديدة أو شديدة جداً، وتتضمن هذه التدابير إضافة إلى التدابير الوقائية والتصحيحية ما يأتي:

• تكثيف عمليات الصرف.
• الاستصلاح البيولوجي للأرض.
• المعالجة الكيماوية للأرض.
• تثبيت الكثبان الرملية.
• تبوير الأرض من أجل انتعاش النبات الطبيعي وتوفير الحماية الكاملة له.
• استزراع الغطاء النباتي في المراعي.

وتتباين هذه التدابير تبعاً لطبيعة استخدام الأرض، وتتطلب مبالغ مالية ضخمة، وتتباين التكاليف الاقتصادية لمكافحة التصحر وفقاً لدرجة التصحر، وطبيعة استخدام الأرض. ولقد قدر برنامج الأمم المتحدة للبيئة تكاليف التدابير المباشرة لمكافحة التصحر على أساس تحليل عدد كبير من المشروعات ذات الصلة بأجزاء مختلفة من العالم، ولقد تم الاعتماد على هذه التقديرات في تقدير تكاليف التدابير الوقائية والتصحيحية والتجديدية لمكافحة التصحر في دول مجلس التعاون، والتي تراوح بين ٢.٩ و٥.٩ مليارات دولار.

إن موازنة بسيطة بين إجمالي الخسائر الاقتصادية المباشرة وغير المباشرة التي تسببها ظاهرة التصحر في دول مجلس التعاون، ومتوسط تكلفة التدابير المباشرة لمكافحة هذه الظاهرة، توضح لنا أن المبالغ التي تستثمر في مكافحة التصحر يمكن أن تسترد، كما أن هذا المبلغ المقترح لمكافحة التصحر يبدو ضئيلاً لو قوبل بقيمة الفجوة الغذائية السنوية التي تعاني منها دول المجلس، بالإضافة إلى أننا نحافظ على بيئتنا الجافة، ونحقق التنمية المستديمة.

ولقد قامت دول مجلس التعاون بعدد من الإجراءات لمكافحة التصحر، منها:

ـ إصدار التشريعات الخاصة في مجال حماية الموارد الأرضية والمائية.

ـ التخطيط والتنفيذ لعمليات تشجير مكثفة، كمصدات وأحزمة خضراء حول المدن والحقول وطرق النقل.

ـ القيام باستصلاح وإعداد الأراضي الزراعية وتوزيعها على الفلاحين.

ـ تقليل الضغط على المراعي؛ وذلك بتنظيم مناطق الرعي، ووضع أسس علمية لإدارتها، والتوسع في زراعة الأعلاف وتوزيعها بأسعار رمزية على مربي الحيوانات.

ـ إقامة مناطق محمية ووضع القوانين الخاصة بتنميتها والمحافظة عليها.

ـ اختيار طرائق للري تتناسب ونوع التربة ودرجة ملوحتها.

ـ تثبيت الكثبان الرملية.

ـ الاهتمام بالتشجير والتخضير.

ولقد أدركت دول مجلس التعاون أن النجاح في مكافحة التصحر يتطلب تحسين فهم أسبابه وآثاره، لذا عملت على إنشاء عدد من مراكز البحوث المتخصصة لدراسة العلاقة بين التصحر والمناخ والتربة والمياه والنباتات والحيوانات، كما خصصت الأموال لتنفيذ برامجها الوطنية لمكافحة هذه الظاهرة.

ولأجل إنجاح برامج العمل الوطنية لدول مجلس التعاون لا بد من الأخذ في الحسبان:

ـ انضمام دول مجلس التعاون إلى اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة التصحر.

ـ إصدار أطلس للبيئة الجافة لدول مجلس التعاون.

ـ حماية التكنولوجيات والخبرات التقليدية التي أثبتت فاعليتها عبر القرون في مكافحة التصحر.

ـ زيادة البرامج الإعلامية في مجال مكافحة التصحر والحفاظ على البيئة.

نباتات تأكل اللحوم!

عبدالرحمن سليمان الحبيب
الرياض - السعودية





«اقتلْ كي تعيش!!». قبل أن تُكتبَ الحروفُ، خَبَرَ الإنسانُ القتالَ، وحين يَقتلُ لم يكنْ يتوانى عن التمثيلِ بالضحايا. كان فتَّاكاً عبوسا، عهده الخشونة واللين. بعد ظهورِ المعارف والعلوم، اقتحمَ الإنسانُ المعركةَ، طوَّرَ الحربَ، أشعل في الصدرِ ناراً، واستمرأ التدميرَ وفلسفه وسطَّر المبررات: العدوانُ وسيلتُنا للدفاع عن الحبِّ، الصراعُ أساس التطور، القويُّ مجبولٌ على استئصالِ الضعيف... وعلى النقيض، انبرتْ طائفةٌ من الأخلاقيين تنادي بأن الحربَ والعدوانيةَ نادرتان في الطبيعة. ومالتْ نظرياتُ السلوكِ إلى أخلاقِ النبات، ففيها النُبلُ الفذُّ، بالعدلِ تتقاسم، وبلا عدوانيةٍ تتنافس حتى في بيئةٍ شحيحةِ الموارد.

على أن علماءَ الطبيعة الذين أسبغوا على النبات صفات ساميةً ذهلوا، بعد الرسالة التي كتبها جون إليس في العقد الثامن من القرن السابع عشر. كانت الرسالةُ موجهةً إلى عالمِ الطبيعةِ المعروف

لينوس حاملةَ الفاجعةَ: وصفٌ دقيقٌ لسلوك نبات خنّاق الذباب وهو يقتنص فريستَهُ بخديعة الإنسان في الإيقاع بالطرائد، وبوحشية الحيوانات المفترسة في الغابات. فأين النباتُ من هذا وذاك؟.

العلاقات الاجتماعية في عالم النبات

يدرك جُلّ الناس أن لا حياة لإنسان أو حيوان من دون النبات، لذا فأفراد المملكة الحيوانية بطبيعتهم مجبولون على



أنياب حادة في انتظار الفريسة



ذبابة على نبات مفترس لا تعرف أنها تمضي إلى حتفها

التطفل على النباتات. لكن هل جميع النباتات التي تقدر بأكثر من نصف مليون نوع بهذا السمو والنبل؟ الحقيقة أن هناك مئات الأنواع النباتية ذات الممارسات العدوانية الشرسة. فمثلاً في بعض الغابات الاستوائية تنمو أشجار من أنواع التين تقوم بخنق عائلها!! فهي تنمو بادئ الأمر ككرمة بريئة متسلقة على جذع إحدى الشجر، وعندما تغطي جذع الشجرة المضيفة تلتف حوله تعتصره حتى الموت. وفي غضون ذلك تستمر جذور الشجرة الخانقة في النمو والتصلب مكونة قوائم راسخة في الأرض شامخة نحو السماء، معتدة بنفسها ومعتمدة ذاتها، كأن شيئاً لم يكن، على الرغم من الآثار الخارجية الدالة على ماضيها في القتل.

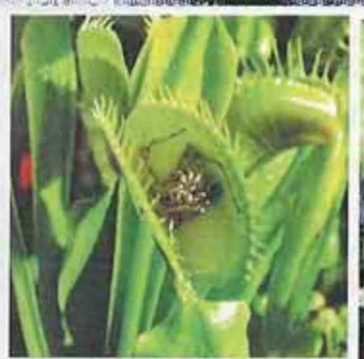
يقول الباحث جيمس بونر، عن النباتات: «إنها كثيراً ما تشترك في علاقات اجتماعية تشبه ما نعرفه في الحروب وأساليب التعاون». وعدا عن النباتات الخانقة هناك نباتات تحارب بأسلحة كيماوية، إذ تهاجم غيرها من أنواع النباتات المنافسة عبر بث سمومها في محلول التربة مما يؤدي إلى تسمم النبات الخصم. أما أشهر النباتات العدوانية فتلك المتطفلة التي لا تصنع غذاءها وتتغذى معتمدة على غيرها من النباتات من خلال ممصات خاصة فوق أو تحت سطح التربة تمتص عبرها خيرات ومجهود النباتات العائلة حتى تموت تلك الأخيرة فينتقل المتطفل إلى عائلة أخرى. ويمكن أن نهدئ من روع أولئك الذين راعتهم تلك الوحشية، بأن نقول لهم إن تلك الأنواع العدوانية من النباتات تشكل نزراً يسيراً من عدد النباتات الخضراء، ونقول لهم إن لكل قاعدة شواذ، والنادر لا حكم له. وبالمقابل فهناك علاقات تعاون وتكافل بين أنواع نباتية مختلفة بل وحتى أنواع نباتية مع حيوانية. وفيما يأتي سنتناول إحدى الظواهر الاجتماعية المثيرة في مملكة النبات، وهي النباتات المفترسة.

النباتات المفترسة بين الخرافة والعلم

يروي الدكتور كارل ليشي (١٨٧٨م) أن سكان أدغال جزيرة مدغشقر يقدسون شجرة نصفها العلوي كسعف النخيل ونصفها السفلي كورق الموز، ويعدّها بعضهم إلهاً يعبد. ويزعم أنهم يقدمون لها قرباناً كل سنة، والفاجعة أن هذا القربان فتاة يافعة! هذه الشجرة يُروى عنها شر مستطير، فالويل والثبور لمن يمس الجزء السفلي منها، إذ



خناق الذباب.. هدوء ثم انقضاض



تخطفه بغتة وتحضنه بين أوراقها الضخمة، وتغرز فيه أشواكاً سامة، ثم تعتصره، ثم تمتصه، فما تلبث إلا بضع دقائق حتى تفرج عن أوراقها فتتساقط بقايا الجثة من عظام نخرة وشعر بال. ويستمر مسلسل الحكايات عن نباتات تفترس الحيوانات الكبيرة والإنسان. وتكاد لا تخلو المكتبات الكبرى من كتب إثارة تروي عجائب وغرائب في عالم النبات، سائقة أمثلتها المرعبة كيفما اتفق، ودون منهج علمي. والمصدر في تلك الحكايات يستند إلى تقارير قديمة غير دقيقة، أظهرت المسوح الجديدة بطلانها، أو على أقل تقدير لم تثبت صحتها.

وإذا عدنا إلى كوكب الواقع وغاباته، هل ران على فكرك، عزيزي القارئ، أن بمقدور نبات زهري ناعم التهام حشرة وهضمها؟ وهل نمي إلى سمعك يوماً أن نبتة متوحشة بأنياب شرسة اقتنصت حيواناً وافترسته؟ لعلك تخال الأمر محض دعابة؟ حسناً، دعني أقول لك إن الأمر ليس خيالاً جامحاً، ولا قصة خرافية؛ فهناك نباتات تفترس الحشرات والحيوانات الصغيرة. في القادم من القول سنختطف لمحات لأحدث ما عرف عن هذه النباتات وصفاً وسلوكاً وتربية على أرضية علمية تجلو ما تعلق بالنبات المفترس من أوهام وأحاديث خرافة.

النباتات المفترسة Carnivorous أو آكلة الحشرات Insectivous هي كجميع النباتات الأخرى تنتج غذاءها

ذاتياً من طريق تحويل الطاقة الضوئية (الشمس) إلى طاقة كيماوية (في وجود الماء وبعض العناصر)، ولكن لديها أعضاء متحورة تمكنها من اقتناص بعض الحشرات والحيوانات الصغيرة ومن ثم افتراسها لتكون مصدراً إضافياً للتغذية. والأساس البيئي لذلك هو أن هذه النباتات تنمو في ترب ومستنقعات فقيرة في النتروجين الميسر، فتحورت بعض أعضائها خلال أزمنة سحيقة وعبر الانتخاب الطبيعي، لتتمكن في نهاية المطاف من التهام الفرائس الصغيرة معوضة النقص في احتياجاتها النتروجينية. وأهم ما تتصف به هذه النباتات هو مقدرتها على هضم جسد الفريسة.

حتى نهاية العام المنصرم، قدر المهتمون في علم النبات عدد النباتات المفترسة التي أمكن التعرف إليها أو هُجنت بواسطة الإنسان بنحو ٦٠٠ نوع وتحت نوع. هذه المئات تشكل قدراً ضئيلاً من النباتات الخضراء التي يربو عددها على ٥٥٠ ألف نوع. وتنمو النباتات المفترسة بصورة عامة في المستنقعات أو ما شابهها ذات المناخ الرطب، المعتدل الحرارة صيفاً، والخالي من الصقيع شتاءً. وتنتشر هذه النباتات في شتى أصقاع العالم وعلى وجه الخصوص في أمريكا وإندونيسيا وأستراليا.

الوجبات المفضلة للنباتات المفترسة

تختلف المفترسات الخضراء في طبقها المفضل، فبعضها مثل حامول الماء شره لبعض الحشرات المائية كيرقات البعوض وبرغوث الماء. أما جنس جنليس فتتفتح شهيتها بالبروتوزوا، بينما تتلذذ نباتات الندية بالحشرات مثل الذباب والعثة. وهناك أنواع أخرى Sarracenia, Nepenthes, Cephalotus تقوم بصيد الحشرات التي تبحث عن غذائها في الأزهار ولا سيما الذباب والعثة والدبابير والفراشات والخنافس والنمل. ويقتنص خناق الذباب أي كائنات زاحفة مثل العناكب. وفي أحيان نادرة جداً، قد يقع بعض الفقاريات المريضة كجرذان أوطيور صغيرة في فخاخ نباتات مفترسة كالنبنثس.

الإغراء ثم الوقوع في الفخ

لا فخ بلا إغراء! هكذا تنجح الطعوم الشهية السامة حين نقاوم بها الآفات كالفئران. هكذا تقوم الدول المتعادية ببث الفاتنات بين عتاة الجواسيس للطرف الآخر! وقبل ذلك بملايين السنين تفننت النباتات المفترسة بعدد من الحيل والإغراءات للإيقاع بفرائسها. فالألوان الزاهية، والرائحة السكرية المغرية تجذب الحشرات البريئة التي تأتي طائعة مختارة لمكمن حتفها. النملة الغافلة المتهادية حول ورقة نبات مفترس لن تسلم من مصيدة التصاق أو انزلاق جهزه النبات فبمجرد اللمس تنزلق المسكينة إلى قبرها، أو يطبق عليها المفترس ولن تستطيع الفريسة فكاكاً. ولكن ليس دائماً ثمة إغراء فهناك نباتات تفترس من خلال الحرب المباغتة بأشواك عاضة، أو كيس امتصاص به مركبات مخدرة.

هل يمكنها مهاجمتنا؟

قد يسأل المرء أينبغي أن نخشى ونحذر هذه النباتات الآكلة اللحوم؟ أليس من المحتمل أن تلتهم أو تعض تلك النباتات المتوحشة أطفالنا الرضع؟ أيمكنها إيذاؤنا؟



جنس السلوى من أكبر النباتات المفترسة حجماً

الواقع، أن تلك نباتات صغيرة الحجم، وحتى المتمدد منها عدة أمتار فالعضو المفترس لا يتعدى حجمه حجم راحة الكف أو الإصبع. أضف إلى ذلك أن هذه الأعضاء لينة ورقيقة باستثناء قليل منها. وفي كل الأحوال فالأعضاء المفترسة لهذه النباتات هي فخاخ لا تتحمل أكثر من ضفدع مريض ضئيل الحجم. بل نقول إن العكس صحيح، فالخطر على هذه النباتات قادم من طغيان الإنسان، فأغلبها في طريقها إلى الانقراض نتيجة التلوث واقتلاع البشر لها للاحتفاظ بها في المنازل على أنها نباتات زينة، مع أنها سرعان ما تموت في البيوت نتيجة صعوبة العناية بها.

وإذا أخذنا أكبر النباتات المفترسة حجماً، فإن جنس السلوى Nepenthes يعدّ الأول، فقد تمتد كرمته إلى عشرة أمتار. وأنواعه توجد في إندونيسيا وأستراليا ومدغشقر. وفي كرمات هذا الجنس توجد شراك أو فخاخ لتوقع فرائس نصل إلى حجم الضفدع. بل إن بعضها، وفي حالات نادرة جداً، قد يقتنص طيوراً وقوارض، إلا أن هذه الضحايا تكون ضعيفة جداً، نتيجة علّة ما، لا تتمكن من التخلص من الفخ الذي تقع فيه، فالفخ بذاته لا يملك القوة الكافية للإمساك بضفدع أو فأر صحيح البدن.



منظر جميل لا ينبيء عن وحشية!!

ويعدّ خناق الذباب على صغر حجمه الأكثر رهبة في وحشية الأداء، ومن ير أنيابه (فصوص) الورقية وهي تطبق بسرعة وبطريقة مرعبة على أسر الفريسة يعتقد أنه إزاء فك نمر كاسر. الهجوم الخاطف المرعب في سرعته هو ما تقوم به تلك المفترسات المنتمية إلى النباتات المائية في جنس حامول الماء التي تمتص الفريسة خلال جزء من ثلاثين جزءاً من الثانية. وفي كلتا الحالتين المفترس النباتي ضئيل الحجم رقيق الأنسجة ضعيف الإمساك قياساً، فلا ترهبوها.

إطباق النباتات على الفريسة

التجارب التي أجراها العالم دراون على الحركة في النباتات ملأى بالمفاجآت، لعل أطرفها ما تبين له في نبات الندية، من أن مثقالاً ضئيلاً بمقدار ثمانية من الألف من الجرام كاف لالتفاف الورقة (وهي العضو المفترس) على الجسم!! ويلح علينا السؤال: كيف تتحرك تلك النباتات وتطبق على الفريسة بسرعة مذهلة ونحن نعرف أنها لا تملك أنسجة عضلية؟ هناك طريقتان لذلك؛ الأولى هي حركة نتيجة التبدل المفاجئ في ضغط الماء، فعندما تلمس الفريسة الفخ تقوم خلايا الجدر الداخلية بنقل الماء إلى الجدر الخارجية فينتج تقلّص حاد وسريع؛ والثانية تنتج عبر نمو الخلايا في أحد جوانب المجس أسرع من الجانب الآخر مما ينتج منه إطباق الجانب النامي. وسندرج هنا بعض الأمثلة لطريقة الافتراس لأشهر النباتات المفترسة.

عشبة الأباريق أو البوقية Sarracenia: أول تسجيل لهذه العشبة تم في فترة مبكرة من القرن الثامن عشر، من قبل أحد أطباء البلاط الملكي الفرنسي Serrasin، الذي قام بجمع عينات منه في شمال شرق أمريكا. وتخليداً لصنيعه الفذ أطلق على النبتة اسمه مع قليل من التحوير لتتفق مع أصول الاسم العلمي، بل أصبح اسم الفصيلة كلها مشتق من اسمه Sarraceniaceae. في هذه العشبة الأوراق متحورة على هيئة أنبوب وعاني (إبريق أو قدر) يصل

عمقه إلى ٣٠ سم. في طرف هذا الأنبوب يفرز رحيق لجذب الحشرات، فعندما تقبل حشرة دنا مصيرها المحتوم، وتحط على حافة الأنبوبة من الداخل تنزلق بسبب سائل أملس، وقلما تنجح الحشرة في التخلص، فتغرق في العصارة الهاضمة.

والمحيِّر أنه ـ على الرغم من وجود الحشرات الميتة وبقاياها في قاع الأنبوب ـ يكون الماء المتجمع رائقًا وصافيًا. بل يذكر أن الصيادين حينما يبلغ بهم العطش مبالغه يشربون منه، ولم يعرف أن أحداً تضرر من جراء ذلك، لذا تدعى هذه الأوراق المتحورة «أكواب الصيادين». والغريب أيضاً أن هناك نوعاً من البعوض تضع أنثاه البيض في ماء الأنبوب ثم تخرج بطريقة الهليكوبتر دون أن تمس الجدران!! ومثل ذلك يفعل نوع من الذباب، حتى إذا ما فقس البيض تغذت اليرقات على الولائم الدسمة من المصيدة، فإذا نمت قامت بثقب جدار الأنبوب فوق مستوى سطح الماء، ثم ولت هاربة دون عودة!

خناق الذباب Venus Flytrap (Dionaea): أثار هذا النبات الكثير من المخيلات، وحظي بالكثير من الاهتمام، لطريقته في الاقتناص. وهو لا يوجد إلا في المستنقعات أو الحقول الساحلية في كارولاينا في جنوب شرق أمريكا. في هذا النبات ينشطر الجزء الأعلى من كل ورقة إلى شطرين كأنه كتاب مفتوح. وعلى حافة كل صفحة عدد من الشوكات الحادة كالمسامير، في سطحها من الداخل نقط حمراء تمثل أطراف الغدد الهضمية. وقرب الوسط ثلاث شعيرات فائقة الحساسة للمس، فإذا ما حطت ذبابة شارف أجلها أو بعوضة تعسة طبق الشطران في لمحة خاطفة، وتشابكت الأشواك (الأنياب) فيستحيل هروب الحشرة، فتغرق في العصارات الهاضمة المفرزة من الغدد.

النديّة Drosera: هي نبتة صغيرة على أوراقها شعيرات لزجة، تلتف عند الملامسة حول الفريسة. فإذا ما أقبلت فراشة صغيرة تتهادى ورغبت في التمتع بألوان النبتة ورحيقها التصقت أرجلها، وكلما صارعت الحشرة للفكاك والتملص تتحفز الشعيرات، وتلتف أكثر، حتى تتخذ الورقة هيئة قبضة محكمة الإغلاق، ولا سبيل للنجاة. وفي تلك الأثناء تذوب الضحية في العصارة الهاضمة، وحين تعاود الورقة الانفتاح لا يبقى عليها سوى بقايا الفريسة كالأجنحة والأرجل بعد أن ذابت المسكينة في العصارة الهاضمة. ومن أنواعها: الندية البرتغالية، والندية المدورة D.rotundifolia التي توجد على منحدرات التلال الرطبة الممتدة من جرينلاند إلى كاليفورنيا ومن ألاسكا حتى فلوريدا. كذلك هناك أنواع تنمو في أستراليا.

حامول الماء Pladder (Utricularia Pygmaea) Wort: على ساق هذا النبات توجد أكياس صغيرة كالمثانة، لكل منها فتحة ذات مصراع كالزناد حساس للملامسة.



أوراق تمثل فخاخًا تتأهب لافتراس الضحية

عندما يكون الفخ منصوباً والكمين جاهزًا، تكون جدران الكيس مقعرة، فحين تعبر حشرة سابحة غافلة قرب الفتحة، ينفتح الباب سريعاً ويتمدد الكيس فيندفع داخله بعض الماء جارفاً معه الحشرة المغدورة التي ما تلبث أن تهضم بألف هناء وشفاء. ومن المدهش أن باب الكيس الذي يفتح إلى الداخل لا تسمح له مفصلته أن يفتح إلى الخارج، فبعد اندفاع الماء بما فيه من صيد يقفل الفخ.

كيف يمكن لنبات هضم وجبة حيوانية؟

لا يمتلك النبات المفترس جهازًا هضميًا، إذن كيف تسنى له هضم



عشبة الأباريق تخدع الحشرات برحيقها الأخاذ



جسم حيواني فيه بروتين ودهون؟ معظم النباتات المفترسة تقوم بهضم ضحاياها من خلال إفراز أنزيم محلل. ولكن بعضها يعتمد على أنزيمات تنتجها البكتيريا، تقوم بتحليل الفريسة فيمتص النبات الجزيئات المتحللة. بالمقابل هناك مفترسات تعتمد على كل من إفرازها للأنزيمات وعلى تحليل أنزيمات البكتيريا. هذه العلاقة بين النبات المفترس والبكتيريا تسمى علاقة تكافلية Symbiotic، إذ تنعم البكتيريا بمكان مغر، بينما يتمتع النبات بالعصارة اللذيذة من مرقة الفرائس. ومن الطرائق الأخرى الغريبة، ما يسمى البق الحشاش الذي يزحف حول فخ النبات المفترس، ويتناول وجبة دسمة من الحشرات المأسورة في الفخ، دون أن يقع، ثم يلقي بغائطه في الفخ فيقوم النبات بامتصاصه لكونه وجبة متحللة جاهزة الهضم.

نباتات مفترسة في منزلك وفي طعامك

أما طرق ذهنك إمكانية استعمال النباتات المفترسة لأغراضنا الحياتية، مثل الأكل والزينة؟ كما قد تتوقع فالإنسان مفترس المفترسين، لم يعد هذا النبات وشأنه. ففي منغوليا يستخدمون بعضها لتخثير الحليب، بينما تضاف للأرز المطبوخ على البخار في الفلبين، وهي تضاف إلى الطعام لتحليته في أستراليا. وبعيداً عن طاولة الطعام نجد في إندونيسيا أنه يصنع منها حبال. وقد تستخدم أيضاً كنباتات زينة. وهناك بعض الاستعمالات الطبية غير المثبتة علمياً، فلا داع للتطرق إليها. قد يتبادر إلى ذهن الكثير منا أن تربية هذه النباتات في منازلنا قد تعمل على تقليص أعداد البعوض والذباب، فهل هذا صحيح؟ بالنسبة إلى البعوض يقول الخبير بيري ميرس-زايس (٢٠٠١) إن البعوض لا تجذبه النباتات المفترسة، بل على العكس قد تزيد تربية النباتات المفترسة من عدد البعوض لأن البيئة الرطبة المبتلة لهذه النباتات هي في الوقت ذاته بيئة مناسبة لتكاثر البعوض. أما من ناحية الذباب فقد يجدي قليلاً تربية نباتات مثل الندية، ولكن لا يمكن التعويل عليها.

هل ترغب في تربية نباتات مفترسة؟

والآن بعد أن عرفت أن هذه النباتات المفترسة لن تحاول جـرحك أو إيذاءك، وأنهـا لـن تتـمكن من عض طـفلك الصـغيـر؛ هل فكرت في تربية نبـاتات آكلة الحشـرات في منزلـك؟ لن يكون الأمـر سـهـلاً على الإطـلاق، ولكن إن كنت ذا مـثابرة وتصـميم مع هواية وحب لتـربية النبـاتات، فـقد لا يكـون الأمر عـسيـراً. لنتـابع الآن أهم الخطوات الأساسية من الحصول على المفترس اللطيف حتى إكثاره.

أين تجد النباتات المفترسة؟

من يرغب في شراء نبـاتات مفتـرسة فـإنه من الصعب أن يجدها في المشاتل في الدول العربية. أما ذلك المغرم في اقـتنـاء هذا النوع من النبـاتات أو بذورها فـيـمكنه عـبـر الإنترنت الحـصول على بعض العناوين. ويمكن للمغـامر أو السـائح الحـصـول على نبـاتات مـفتـرسـة من الغـابات الطبيعية، في كثيـر من الأماكن حول العالم. ففي بريطانيا يكثـر صـائد الذباب Buttewor في المـستنقـعـات، بينمـا تنتشر أنواع جنس الندية Drosera في شتى أنحاء العالم، وكـذلك مـثله جنس Utricularia. وتعدّ الولايات المتـحـدة من أكثر دول العالم التي يتوافر فيها نباتات مفترسة، فمثلاً شمـال كارولينـا وجنوبها تجـد خناق الذباب في المتنزهات والغابات، ولكن، انتبه !! صدر آخـر تعديل السنة الماضية (عام ٢٠٠٠م) بخصوص قانون حمـاية النباتات المفترسة من الانقـراض؛ وهو يمنع التـقـاط هذه النبـاتات ويضع غـرامـة قد تصل إلى ألفي دولار للمخـالـفين. ومع ذلك فبعض الأنواع تباع في المشـاتل في تلك البلاد. وحـتى في هذه الحـالة ينبـغي أن تعـرف أن بعض الأنواع مـثل Sarracenia jonesii لابد أن يحمل بائعها ترخيصاً بذلك أو سيحال المشتري والبائع إلى المحكمة.

تنمية النباتات المفترسة ورعايتها

هذه النباتات – كما ألمحنا – نشأت أصلاً في المستنقعات والسبـخـات، لذا فـهي تحـتـاج إلى تـوافـر الرطوبة والري المستمر. كما أن ري بـعضها ينبـغي أن يكون بالماء المعلب أو المقطر، لأن الكلور الموجـود في مـياه الشـرب العادية قـد يضـر بهـا. ويلاحظ في الأيـام الأولى بعـد إحـضـارها من المشتل أنه يفـضل تغطيتـها بالزجاج منعـاً لجفافها. ويمكن وضعها على حـواف الشرفات غير المشمسة وغـير الجافة في حـوض زجـاجي مـبـرد. وأيضـاً، بالإمكان شـتلهـا في حديقـة المنزل في المناطق الرطبة المعتدلة الحـرارة. أما في حـالة زراعـة هذه النبـاتات بالبذور، فـبـعد تجـهـيـز طبق الإنبات، ومـزج كمـية مـتساوية من التـراب (رمل وطين) مع سـماد عـضـوي وإشبـاعهـا بالماء، توضع البـذور على سطح المزيج مـع ترك مـسافـة بين البـذور قـدر الإمكان، ويغطى الطبق للحـفاظ على الرطوبة. وتتفـاوت البذور في احتـيـاجـاتها البـيئـية إلى الإنبـات، فبذور عشبـة الأباريق تحتاج إلى ظلام لكي تنبت، علـى النقيض من نبات الندية. وهناك بـذور لا تنمـو إلا في ظروف باردة عـدة أسـابيع، فتزرع في الشتاء أو نهـايته حسب طول الموسم البارد. بعد إنبـات البذور تنقل البـادرات الصـغيـرة إلى أحواض فـيهـا مـزيج التـربة نفسـه. ولتـوفيـر الرطوبة، ينبـغي تغطيـة الحوض مؤقتاً حتى تنمو البادرات بضعة سنتيمترات.

ولتـغـذية هـذه النبـاتـات الآكلة الحـشـرات، يفـضل: البـعـوض الصـغـيـر، والذباب، واليـرقـات، والعناكب؛ ولا يفضل النمل، والـفراش، والخنافس والحشـرات الخشنة أو الكبيرة التي يـزيد حجـمهـا على ثلث حـجم الفخ. وينبـغي التذكيـر أنه عند وضع البعوض الميت في فخ النبـات فقد لا ينفـتح الـفخ إلا بعـد سـاعـات وربما من الغـد، لذا يفـضل البعوض الحي مـع عدم الإكثار منه لأن ذلك سيـعمل على إغلاق الفخ ساعات طويلة.

المتعـة جلية، والطرافة مـتنوعة، كما يقـول المجربون في تربية النباتات المفترسة. فلن تمل مع إنعام الملاحظة، سـواء من الأحـجـام الـتي يسـتطيع النبـات تـلقـفهـا، أو تجاوب العضو المفترس مع اللمس، أو طريقة امتصاصه وهضـمـه لقطعـة حـشـرة أو حـيـوان دقـيق. وفي كل الأحوال فـإن مع الجـانب التشـويقي جانبًا علميًا لا يقل طرافة، ذا قـيمـة معـتبرة في السلوك النباتي والعـلاقات الاجتماعية بـين مملكة النبات ومملكة الحيوان. إنه عالم يزخر بالفوضى والنظام، بالقسوة واللين، وبالدهشة غير

المراجع

1- The Carnivorous Palnt FAQ, http://www.sarracenia. com/faq.html (2001).

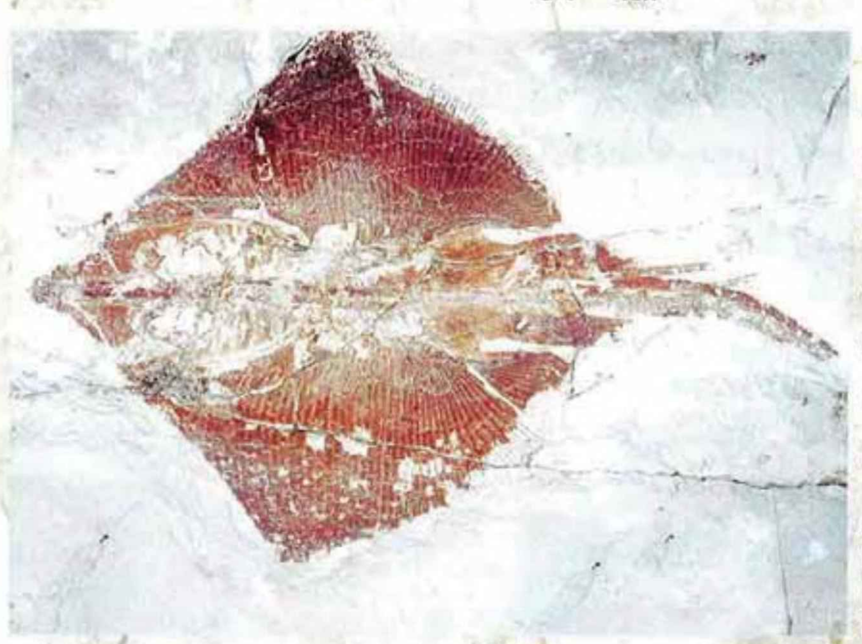
2- Plant Physiology, http://www.hoflink.com/~house/pltphys.html. (2001).

٣. جوانب مثيرة في حياة النبات، د. غنيم، ك. مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر (١٩٩٠م).

٤. حياة النبات، مجلة العلوم الأمريكية، دار المعارف بمصر، (١٩٦١م).

الأسماك المتحجرة في لبنان بين منقرض ونادر

جوزف باسيل
بيروت ـ لبنان



يشكل لبنان بتاريخه القديم، وما يحتويه من آثار أحد معالم التراث والحضارة العالميين. لكن يبدو أن طبيعته الجيولوجية التي حافظ عليها منذ عشرات ألوف السنين خصّته أيضًا بميزتين تثبتان أقدميته وغناه البيولوجي هما: العنبر المتكون في جباله حاويًا خصائص بيولوجية حيوانية ونباتية تساعد العلم على اكتشاف جينات حيوانات أو حشرات منقرضة، والمتحجرات من أصداف موجودة في ظهر البيدر، وأسماك عاشت في البحار منذ ملايين السنين، وبعضها انقرض.

أما الأسماك المتحجرة، وهي موضوع بحثنا اليوم، فموجودة في غير منطقة لبنانية، والمكتشف منها على الأقل، مثل حجولا وساحل علما وحاقل، وهي الأوسع شهرة والأكثر إنتاجًا. قصدناها لتحديد موقعها والاستفهام عن أوضاعها.

حاقل ومتحجراتها

تبعد حاقل عن بيروت نحو ٥٧كم وتعلو ٧٥٠م عن سطح البحر، أي إنها منطقة جبلية متوسطة الارتفاع، والطريق إليها ضيقة، كثيرة الالتفاف والانحدار، وعلى الرغم من ارتفاعها وبعدها تطل على البحر عبر أودية متلاحقة. إنها قرية صغيرة في لحف جبل تشكل صورة لمعظم القرى اللبنانية.

أصل اسمها في اللغة الآرامية حقل، وبالسريانية

Haqel، ومنها تسميتها. وقد صنفت عالميًا كأحد أماكن المتحجرات الأكثر شهرة. واكتشفت متحجراتها في أواخر القرن الثامن عشر، وأقيم أول معرض لها عام ١٩٩١م، وافتتح معرض لمتحجراتها في سوق جبيل القديمة.

يقدر علماء الطبيعة وجود الأسماك في البحار منذ ٤٢٥ مليون عام، ويعدّ القرش أحد أقدم الأسماك التي ما زالت موجودة. وفي متحجرات حاقل وجدت أسماك منقرضة أو نادرة في بحار العالم، مما يدل على قدم المرحلة التي تحجرت فيها هذه الأسماك التي تبلغ نحو ٣٥٠ نوعًا.

وقد حدد العلماء أسماء بعض الأسماك المنقرضة باللاتينية مثل: Forsmosissumus - Eomirus - Bipomystus - Eterothrissa - Vexilifer - Euryphollis - Aipichtys ولم يتمكنوا من تحديد أسماء بعض الأسماك المنقرضة؛ لأنها غير معروفة لديهم.

وفي الخلفية التاريخية للمتحجرات أن أسقف فلسطين في القرن الرابع الميلادي أوذيب دوسيزاري، عدّها شاهدًا على طوفان نوح، مع أن الدراسات التاريخية للآثار ترجّح حدوث طوفان نوح في بلاد ما بين النهرين.

كذلك ذكرها مرافق الملك لويس التاسع خلال الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر، ويدعى جوانفيل، وحمل سمكة متحجرة من جبل لبنان إلى الملك الذي أعجب بها كثيرًا.

يقدر عمر الأسماك المتحجرة بما يراوح بين ٨٠، و١٠٠ مليون سنة، أي خلال المرحلة الجيولوجية المعروفة بالطبشورية.

قراءة للتاريخ

وهناك رواية عن أسباب تكون هذه المتحجرات تفترض أن بحر التتيس كان يغمر لبنان فنمت ملايين الكائنات الحيوانية والنباتية المجهرية (عوالق) فوق سطح البحر، واستهلكت كمية كبيرة من الأوكسجين وأفرزت مواد سامة أضرّت بكائنات أخرى، ومنها الأسماك التي نفقت واستقرت في قاع البحر. فغطتها الترسبات وحفظتها صلبة على مرّ الزمن.

وفي مرحلة لاحقة تقدر بنحو ٤٠ مليون سنة حدث زلزال كبير تكونت فيه جبال لبنان فتراجع مستوى البحر، وبقيت المتحجرات في الجبال. لكن هذه الرواية لا تقنع بانحصار هذه المتحجرات في بقعة صغيرة جدًا بينما الحديث عن تكون جبال لبنان كلها.

بدأ التنقيب عن المتحجرات فعليًا خلال القرن التاسع عشر على



الموقع الذي تستخرج منه الأسماك المتحجرة في حاقل



سمكة متحجرة كبيرة



سمكة من الأنواع التي تعدّ منقرضة

إن استخراج المتحجرات ليس بالأمر السهل، أولاً: لتحديد أماكنها، وثانيًا: لاستخراجها دون تعريضها للكسر أو التلف. فاستخراجها يحتاج إلى دقة عالم الآثار، وإلى أنامل نحّات. كما أن الأدوات المستعملة دقيقة يحتاج استعمالها إلى تمهل وروية. تقول برناديت: عليك أن تحدد مكان المتحجرة، ثم تقطعها عن أصلها الصخري الصلب دون أن تعرضها للتلف، ثم تفلق الصخر المقتطع فلقتين كي تظهر السمكة المتحجرة مطبوعة على صفحتيها. وكلما كبرت السمكة ازدادت المشقة.

وتضيف برناديت أنه كلما تعمق الحفر في الجبل، وجدت أسماك أكثر ندرة أو مما يعيش في أعماق البحر، ومن ثم تغتني المجموعة.

المعرض غرفة مستطيلة قديمة البناء متسعة وضعت فيها خزائن زجاجية، وصنفت فيها الأسماك المتحجرة بحسب أنواعها، ورتب المنقرض منها في خزانة واحدة.

يد بعثات أجنبية ألمانية وفرنسية وإنجليزية وأمريكية، ومازال التنقيب مستمرًا. وبصدد هذا الموضوع تقول برناديت رزق الله نوهرا - زوجة أحد ملاّك الأرض التي اكتشفت فيها المتحجرات: إن مساحتها لا تتعدى خمسة آلاف متر مربع في لحف الجبل. وهذه الأرض تملكها عائلة نوهرا من أبناء عمومة مجتمعين لذلك لاحظنا وجود أكثر من معرض للأسماك المتحجرة.

أحجام مختلفة، وأشكال متعددة تؤكد غنى هذه المجموعة من الآثار المتحجرة. ولمن يريد أن يقتني من هذه المتحجرات غرفة خاصة تباع فيها بأسعار تختلف بحسب أحجامها.

الرحلة إلى حاقل في الأيام الربيعية ماتعة، والأكثر متعة أن تدرك ما في الطبيعة من جمال، وما يزخر به لبنان من آثار تاريخية وعلمية مفيدة تشكل ميزة له بين الدول.

قصة بناء المسجد الأموي

سعد بشير قنصة
دمشق - سورية

«يا أهل دمشق.. إني رأيتكم تفخرون على الناس بأربع: بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس».

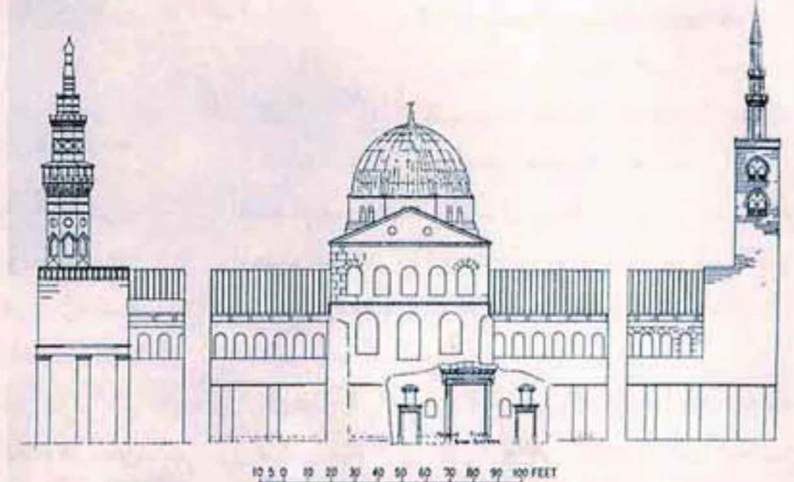
الوليد بن عبدالملك

كان المسجد الأموي بدمشق، ولا يزال، من أهم المعالم الدينية والأثرية والسياسية عبر التاريخ، وهو يمثل مدرسة حقيقية للفن والعمارة الإسلامية، وقد تداولته المراجع بالتأريخ والوصف المستفيضين، ونال حيّزاً كبيراً من الاهتمام والتوثيق.. ولن تأتي السطور الآتية بجديد في وصفه، وإطراء محاسنه، وزخارفه، وروعة بنيانه، فالمراجع والنصوص القديمة والمحدثة لم تدع مجالاً إلا وعمدت إلى وصفه وشرح أدق أركانه بإسهاب.. وتقدم السطور القادمة فصولاً غامضة وغير معروفة للقارئ عن قصة بناء هذه الأبدة التاريخية الهائلة بمساحة بنيانها، وعمق تأثيرها، وأهمية دورها الذي يختصر ثقافة الإسلام ببعديه الديني والسياسي، في أحد أبرز أماكن العبادة في العالم.. قديماً.

وثائق الآثار ونصوص المؤرخين

يبتدئ العمري(١) بوصف المسجد الأموي بالسطور الآتية:

«مسجد عظيم، ومعبد قديم، لا يُعرف على الحقيقة بانيه، ولا زمن بنائه، فتح المسلمون الشام وهو كنيسة لأهل دمشق، يُتعبد فيها زمن الروم، وقد كان قبلهم معبداً لأمم مختلفة».



مخطط المسجد من الجدار الجنوبي ،على اليمين مئذنة عيسى الشرقية، وعلى اليسار مئذنة قايتباي الغربية، وفي الوسط قبة النسر

لقد أوضح العمري نقلاً عن الرواة أن على أرض المسجد الأموي مرت معابد مختلفة الأقوام والعقائد، وأقدم وثيقة تشير إلى قدسية المسجد الأموي بوصفه مكاناً للعبادة، هو الحجر البازلتي الأسود الذي نقش عليه الأسد المجنح الآرامي(٢) الذي اكتشف في أثناء أعمال الترميم عام ١٩٤٩م في أحد جدران الأموي، وهو الشاهد الوحيد على مملكة دمشق الآرامية، ومكانة الأموي المقدسة في الألف الأول قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

لقد كان هناك معبد مشيّد مكان الأموي الحالي اليوم لعبادة الإله الآرامي «حدد»



مشهد عام للمسجد وسط دمشق القديمة

أو «هدد» إله العواصف والصواعق الرهيب، وأكبر الآلهة عند الآراميين. إلى أن جاء عام ٣٣٣ قبل الميلاد عندما فتح الإسكندرية المقدوني والمعروف بذي القرنين، سورية والشرق، فتحول إلى معبد خاص للإله الإغريقي «زيوس» أكبر الآلهة عند الإغريق، وبعد سقوط أثينا، وانهيار الإمبراطورية الإغريقية سياسياً وعسكرياً، أقام ورثتهم الرومان إمبراطوريتهم على جذوتها الفكرية وامتدادها الجغرافي، وتحول المعبد إلى إله جديد هو «جوبيتر» ولا تزال آثار المعبد ماثلة إلى اليوم عند مدخل المسجد، حيث تظهر الأعمدة والزخارف الحجرية في محيطه الشمالي والغربي.

وبعد قيام الإمبراطورية البيزنطية على أنقاض الرومانية تحول المعبد إلى كنيسة مسيحية باسم «يوحنا المعمدان» في عهد الإمبراطور «تيودوس الأول» ٣٧٩ ـ ٣٩٥م نسبة إلى المقام الماثل إلى اليوم، والذي حافظ عليه المسلمون فيما بعد لكونه يحفظ رأس النبي يحيى بن زكريا عليهما السلام.

وعندما فتح المسلمون دمشق عام ٦٣٥م دخل أمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ بالأمان من غرب البلد، ودخل خالد بن الوليد بالسيف من شرقه، فكانت دمشق نصفين، والكنيسة كذلك، ويقال بأن خالداً قد أقام الصلاة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمعبد، وليس ببعيد عن الكنيسة، وبصلاة الصحابة فيه باتجاه القبلة، كان هذا الموقع أول مسجد في الشام، وفيه أقيم أول محراب مازال يحمل اسم الصحابة، وفيما بعد حول المسلمون الجزء الشرقي الذي فتح عنوة مسجداً يصلون فيه، وتصلي النصارى في الجزء الآخر الذي فتح صلحاً، فتأذى المسلمون لمجاورة النصارى لهم في مكان تعبدهم، وكرهوا قرع النواقيس لإيذانهم.

ويذكر «العمري» أن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك كلف رجلاً بالأذان في الكنيسة العظمى «بالقسطنطينية» يوم الأحد والملك فيها وكل أتباعه، فأمسكوا به وسألوه: «من أنت.. وما حملك على ما صنعت؟ فقال: أما أنا فرجل

من المسلمين من أهل دمشق، وأما ما حملني على ما صنعت، فأنشدك الله، أيها الملك هل ساءك ما فعلته وكرهته أم لا؟ فقال: نعم. فقال: ونحن في معبد في شطره النصارى نسمع نواقيسهم، ونساء بمجاورتهم، فأراد أمير المؤمنين أن يعرفك أننا نُساءُ بذلك، كما ساءكُم ما فعلت.. فخلوا عنه، وكانوا قد هموا بقتله».

مفاوضات الوليد بن عبدالملك مع النصارى

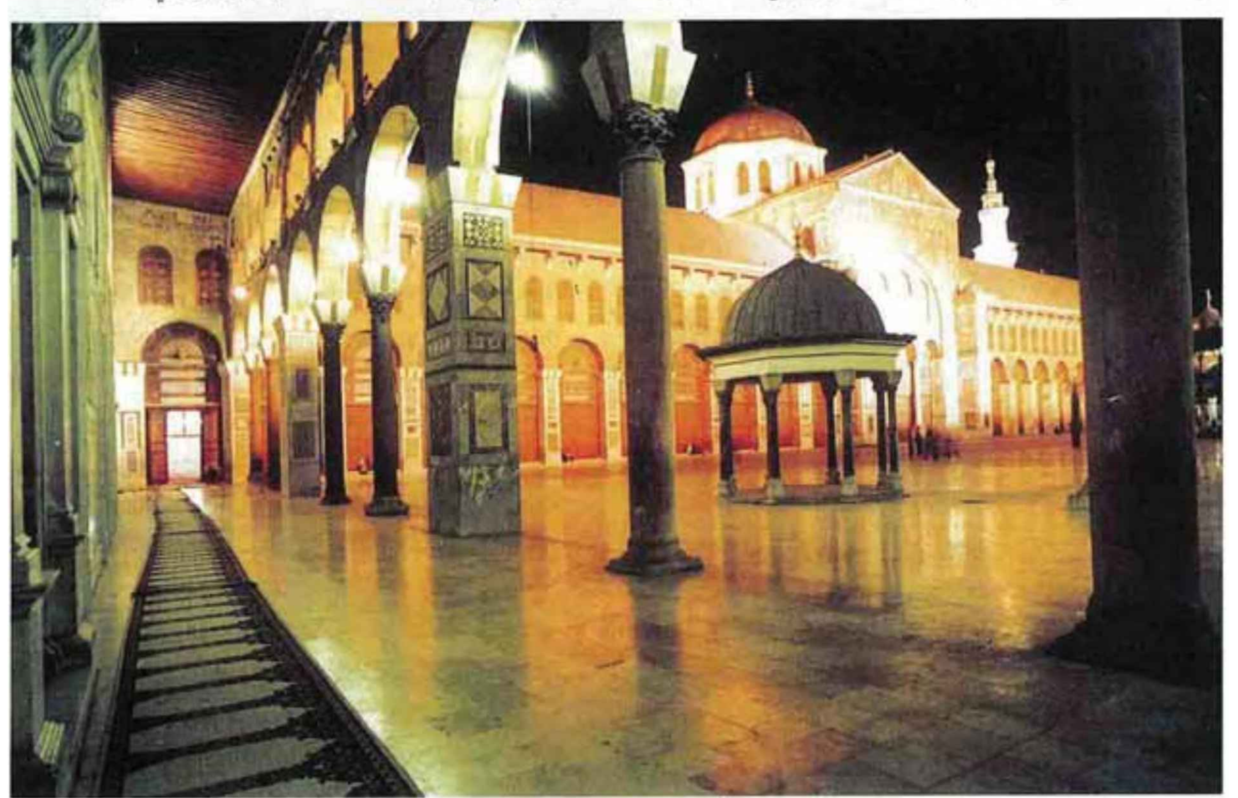
أبى سكان دمشق النصارى أن يبيعوا أرض كنيستهم للوليد ليقيم عليها مسجداً هائلاً كان يفكر فيه، ويليق بدولته، ويستوعب المصلين، وبدأ التفاوض مع النصارى سنة ٨٦هـ، وكان قد أقطعهم أراضي مجاورة ليبنوا كنائسهم عليها، وبذل الأموال في سبيل ذلك.. فامتنعوا حتى اقترح عليهم أحد مواليه وهو «المغيرة» أن يقاس بدقة أي موضع بلغه خالد بن الوليد فاتح دمشق بالسيف، فإذا دخل في نطاق المسجد فهو حق للمسلمين.. وهكذا كان، فبعث الوليد لأركان النصارى، وقال لهم: «هذا حق قد جعله الله عز وجل لنا لنصلي فيه، لم يصلِ المسلمون في غضب ولا ظلم، نأخذ حقنا الذي جعله الله لنا».

فطلبوا منه أربع كنائس فأعطاهم كنيسة «حميد بن درة»، وكنيسة أخرى إلى جانب سوق «الجبن»، وكنيسة «المصلبة»، وكنيسة «مريم».

بدأ الوليد بوضع مخطط للمسجد الجديد والذي هو تطوير للمخطط القائم، ويروى أنه أول من شرع في هدم الكنيسة في موقع المذبح الذي يعتقد أن مكانه ما يعرف الآن بقبة الخزنة.

ويروي «النعيمي»(٣) أن الوليد عندما هم بهدم الكنيسة قال له جماعة من نجاري النصارى: «ما نجسر على هدمها يا أمير المؤمنين نخشى أن نُجنّ أو يصيبنا شيء فقال الوليد: تحذرون وتخافون، يا غلام هات المعول، ثم أتى بسلم فنصبه على محراب المذبح، وصعد فضرب بيده المذبح حتى أثر فيه أثراً كبيراً، ثم صعد المسلمون فهدموها».

ويروي «العمري» نقلاً عن السماع، أن القساوسة قالوا للوليد: إن من يهدم كنيستهم يصاب بالجنون، فتناول المعول بيده وهمَّ بهدمها قائلاً: «أنا أحب أن أجن في سبيل الله».



صورة ليلية للرواق الشرقي مع واجهة الحرم

وكان أول من هدمها، وقد اتفقت المصادر جميعها على هذه الرواية.

هندسة المسجد

أبقى الوليد على الجدران الأربعة وجعل مخططه يقوم على البناء داخل هذه الجدران، ومما يذكر أن خطة الوليد قامت على تصور هندسي فريد، فقد تصور البناؤون والمهندسون المسجد مثل نسر باسط جناحيه، وبين الجناحين الرأس (القبة) التي ما تزال تحمل اسم قبة النسر إلى الآن.

الرسالة الخطيرة

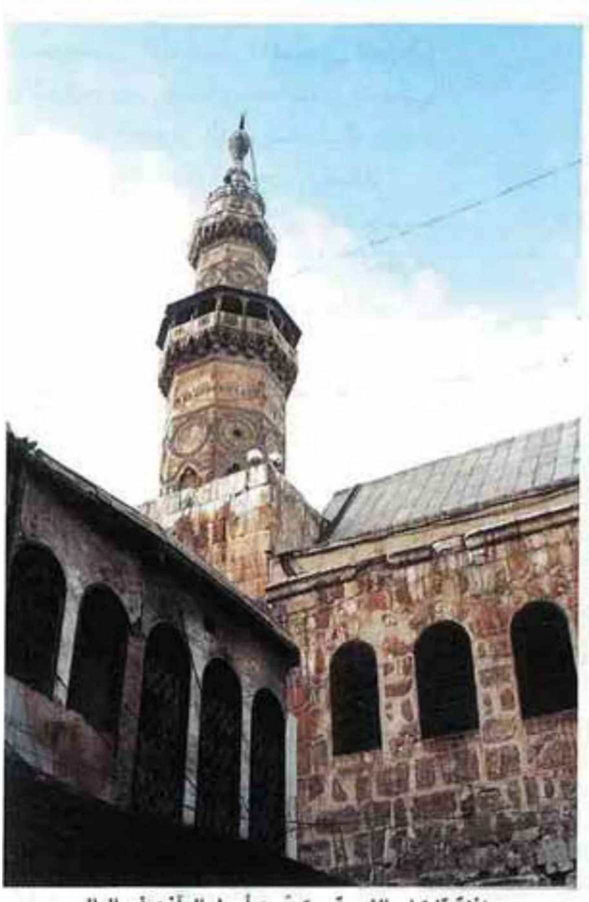
عندما بلغ إمبراطور الروم (بيزنطة) أن الخليفة الوليد بن عبدالملك جادٌ في هدم الكنيسة وبناء المسجد بعد أن أرسل إليه الوليد رسالة يطلب فيها صنّاعاً، وفيها تهديد صريح بالغزو إذا لم يفعل.. أجابه الإمبراطور البيزنطي: «إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان حقاً، فقد خالفت أباك، وإن كان باطلاً فقد أخطأ أبوك، وإني لمرسل إليك ما طلبت من الصنّاع».

فأجابه «الوليد» برسالة حثه عليها الشاعر «الفرزدق» من نص القرآن: *فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا*. الأنبياء:٧٨.

سقوط قبة النسر

واجه الوليد عند بناء القبة التي أطلق عليها اسم قبة النسر التي ترتفع عن سطح الأرض ٤٥ متراً، ويبلغ قطرها الحالي ١٦ متراً مشكلة سقوطها أول الأمر؛ فعرض عليه أحد البنائين حلاً، وطلب من «الوليد» ألا يسأل عنه. ويذكر «النعيمي» نقلاً عن الرواة «أنه حفر موضع الأركان حتى بلغ الماء ثم بناها، فلما استقلت على وجه الأرض غطاها بالحُصر وهرب عن الوليد، فأقام يطلبه، ولم يقدر عليه، فلما كان بعد سنة، لم يعلم الوليد إلا وهو على بابه، فقال له: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قال: تخرج معي حتى أريك؛ فأخرج الوليد ومعه الناس حتى كشف الحصر، فوجد البنيان وقد انحط حتى صار مع وجه الأرض فقال: من هذا كنت تؤتى، ثم بناها ببنائها الذي هي عليه حتى قامت».

لقد واجه البناؤون إشكالاً هندسياً عند بناء القبة بسقوطها بادئ الأمر أول مرة، لقد انهارت بسبب رطوبة التربة التي انخفضت بالثقل الكبير، فجاء هذا البناء وحفر



مئذنة قايتباي الغربية، وتعدّ من أجمل المآذن في العالم

الأساس ودعمه بالحجارة، وبمواد عازلة أخرى، وعاد بعد سنة حتى استوى في مكانه. ثم عزم الوليد على أن يغطي القبة بالذهب فنهاه العقلاء وأروه أن ذلك يستفرغ خزائن المال، ولا ينفع شيئاً، فأمر أن تغطى بالرصاص.

وأراد الوليد بعد بناء القبة أن يبني حرم المسجد على أعمدة إلى السقف، فاقترح عليه البناؤون أن يبني على أعمدة تعقد أركانها، ثم تجعل أساطين، ثم يبني عمداً أصغر وتعقد فوق العمد قناطر تحمل السقف، وتخفف عن العمد ثقل البناء، وتجعل بين كل عمودين ركناً.. ويقول «النعيمي»: وبني كذلك.

المآذن

تشير المصادر إلى أن الزوايا الأربع في مساحة المسجد - قبل أن يصار إلى بنائه - كانت معمرة بأربع صوامع، تهدمت صومعتان من القديم، ولم تجددا وبقي أساسهما، وهما الشماليتان. ولما بنى الوليد المسجد رفع فوق

الصومعتين الأماميتين المئذنتين الغربية والشرقية، وبنى مئذنة وسط الجدار الشمالي، وهي مئذنة العروس التي رُصفت بالفسيفساء الزجاجي المذهب من أعلاها إلى أسفلها.

أما المآذن بشكلها الحالي فقد جددت مرات عدة، ولكن أقدمها على الإطلاق المئذنة الشمالية، وأحدثها المئذنة الغربية التي أحدثها السلطان الأشرف «أبو النصر قايتباي المحمودي»، بعد حريق أصاب الجامع عام ١٤٧٩م، وفق الأسلوب المعروف في مصر، وحملت سمات الفن والطراز المملوكيين، وتعد من أجمل المآذن في العالم إذ تنوعت ألوان الحجر والنقوش والمقرنصات فيها.

أما مئذنة العروس أو الشمالية، وهي الأقدم في زمن الوليد وكانت تتلألأ وتبدو للناظر من أعلى جبل «قاسيون» في دمشق وكأنها العروس بلون فسيفسائها المذهب، وقناديلها التي كانت تنار في المناسبات الدينية، وقد جددت مرات عدة؛ فقسمها العلوي مجدد في العهد العثماني، والأوسط في العهد الأيوبي، وقسمها الأسفل هو الأقدم.


واجهة الحرم

أما المئذنة الشرقية والمسماة بمئذنة عيسى عليه السلام، فقد جددت أكثر ما جددت وهي تحمل سمات عصرين هما: برج من العصر الأموي، ومسلة من العصر العثماني.

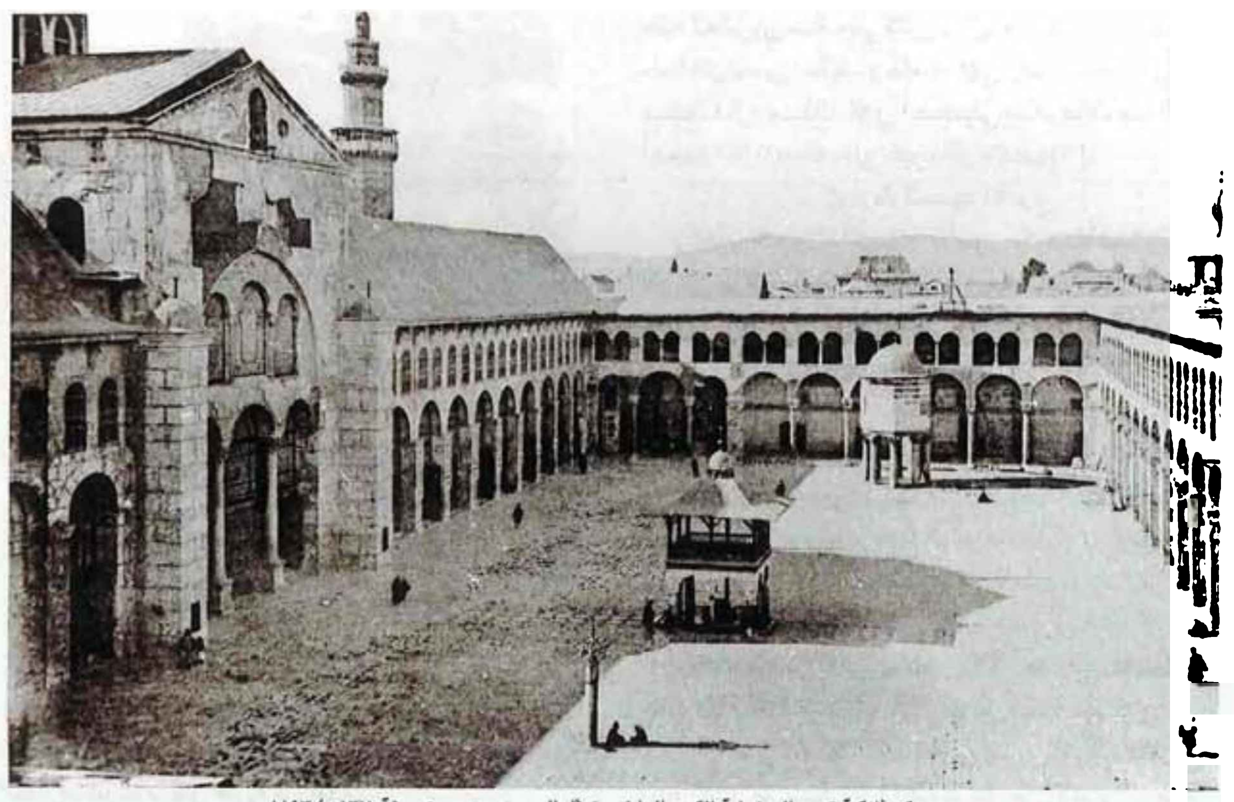
ولما فرغ الوليد من بناء المسجد قال له بعض أولاده: لقد أتعبت الناس في طينه كل سنة، ويخرب سريعاً، فأمر أن يسقف بالرصاص، فطلب الرصاص من كل بلد فوصل إليه. ويتابع «النعيمي» أنه بقي موضع لم يجدوا له رصاصاً إلا عند امرأة يهودية طلبت بيع الرصاص بوزنه ذهباً، فكتبوا للوليد بذلك، فقال لهم: «خذوه وزناً بوزن» فلما وزنوا للمرأة قالت: «هو هدية مني للمسجد، وإنما طلبت ذلك ظناً مني أن الخليفة يظلم الناس في بنائه، ويأخذ أموالكم، فلما رأيت الوفاء علمت أنه لم يكن يظلم فيه أحداً، ويبتاع وزناً بوزن، ولما علم الوليد بهذه القصة أمر أن يعمل على صحائفه الله».

ويتابع أنه بلغ مسامع الوليد أن الناس يقولون: إن الوليد قد أتلف ما في بيوت أموالنا في نقش الخشب، وتزويق الحيطان، ثم كأنّا به قد حرمنا عطاءنا واعتلّ علينا بذهاب المال وقلته.. فصعد المنبر وقال: «يا أيها الناس قد بلغني مقالتكم، وانتهى إليّ ما خفتم من حبس إعطائكم ودفعكم عن حقوقكم، وليس الأمر كما ظننتم، أما وإني أمرت بإحصاء ما في بيوت الأموال فأصبت عطاءكم فيه ست عشرة سنة مستقبلة من يومي هذا، ثم نزل».

وقيل أيضاً: إنه قال:

«يا أهل دمشق.. إنني رأيتكم تفخرون على الناس بأربع: بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس».

كان شقيق «الوليد» سليمان بن عبدالملك يتولى أمر الصنّاع. وذكر عدد من المراجع(٤) أن الخليفة سليمان تولى إكمال المسجد الأموي بعد وفاة شقيقه «الوليد».



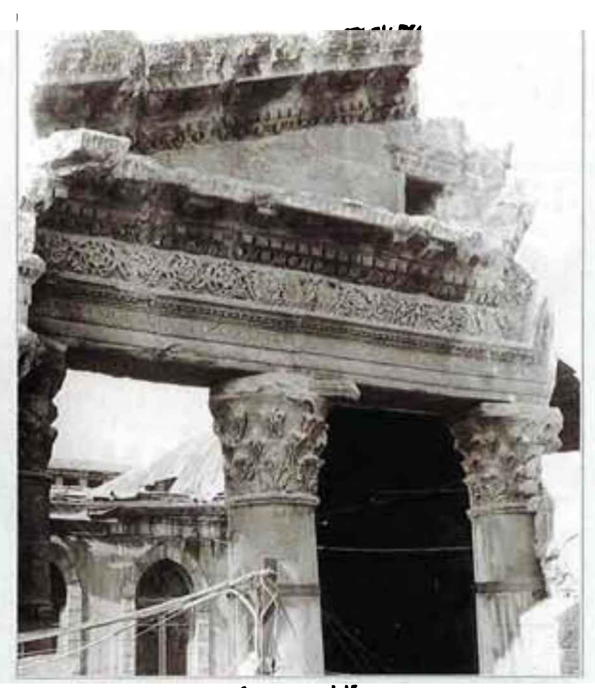
صورة وثائقية تعود إلى نهاية القرن الماضي تمثل المسجد بعد حريق سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م

المسجد الأموي وعمر بن عبدالعزيز

اتفقت المصادر جميعها على أن عمر بن عبدالعزيز عندما تولى الخلافة، وبسبب زهده وتقشفه فكر جدياً في إزالة كل علائم الترف والرفعة المبالغ فيها، والتي زُيّن بها المسجد الأموي، ونُقل عنه أنه قال: «رأيت أموالاً أنفقت في غير حقها، فأنا مستدرك ما استدركت منها، فراده في بيت المال، أعمد إلى ذلك الفسيفساء والرخام فأقلعه وأطينه وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً، وأنزع تلك البطائن.. وأبيع كل ذلك».

فبلغ ذلك أهل دمشق، فخرج إليه أشرافهم، وفيهم وجيه يدعى خالد القسري، الذي قال للخليفة عمر: «بلغنا يا أمير المؤمنين أنك قد هممت بكذا وكذا.. قال: نعم. قال: والله مالك ذلك. فقال عمر: لمن هو؟ قال: لأمك الكافرة (كانت نصرانية). فقال: إن كانت كافرة فقد ولدت مؤمناً. فقال: صدقت. قال: فما قولك ماذاك لي؟ قال: لأنا كنا معشر أهل الشام وإخواننا من أهل مصر والعراق نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزاً بالصغير من فسيفساء، وذراعاً في ذراع من رخام، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب، ويستأجر على ما حملوه إلى دمشق، ويحمل أهل حمص إلى حمص فيستأجر على ما حملوه إلى دمشق، ويحمل أهل الشام ومن وراءهم حصتهم إلى دمشق. فذاك قولي: ماذاك لك. فسكت عمر».

عدل عمر بن عبدالعزيز عن رأيه فيما بعد، عندما وفد إليه من بيزنطة وفد مؤلف من عشرة أشخاص نزلوا بدمشق، واستأذنوا بدخول الأموي، فعندما مر رئيسهم بالصحن رفعوا رؤوسهم نحو القبة، خرّ رئيسهم مغشياً عليه، وعندما سأله رفاقه حين أفاق: ما قصتك؟، قال: «كنا معشر أهل رومية نتحدث عن بقاء العرب قليلاً فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها، فلذلك أصابني ما



بقايا معبد جوبيتر

أصابني» وعندما أخبروا عمر بهذه القصة ممن كان يعرف لغة أهل رومية قال: «لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على الكفار». فترك ما كان همَّ به من أمره.

ذكر لا ينقطع لبني أمية

بعد حين من الزمن قدم الخليفة العباسي «المهدي» إلى دمشق، ودخل مسجده، وبرفقته كاتبه «أبو عبيد الله الأشعري» فقال له: «يا أبا عبيدالله سبقنا بنو أمية بثلاث. قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا البيت «يعني المسجد»، ونبل الموالي، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم، وعمر بن عبدالعزيز لا يكون فينا مثله أبداً»(٥).

ولما دخل «المأمون» المسجد ومعه «المعتصم»، و«يحيى بن أكثم» قال لهما: «ما أعجب ما في هذا المسجد؟ قال المعتصم: ذهبه وبقاؤه، فإنا نجعله في قصورنا فلا تمضي عليه العشرون سنة حتى يتغير. قال: ما ذاك الذي أعجبني منه؟ قال يحيى: تأليف رخامه، فإني رأيت شيئاً ما رأيت مثله. قال: ماذاك الذي أعجبني منه. قالا: ما الذي أعجبك؟ قال: بنيانه على غير مثال متقدم»(٦).

كوارث المسجد الأموي

ارتبطت كوارث المسجد الأموي بكوارث دمشق من حرائق وزلازل وغزاة غيرت من معالمه، وعلى الأخص الحريق الأكبر الذي أتى على جميع محاسن الأموي الموجودة منذ أيام الوليد، وكان عام ٤٦١هـ ـ ١٠٦٩م. ولكن الحرائق والزلازل تتالت عليه، واستمر كذلك حتى عهد الملك «الظاهر» الذي أعاده مسجداً للعبادة والعلم، بعد أن ناله الإهمال طويلاً، كما فعل بإصلاحه قبله «صلاح الدين الأيوبي»، وغيرهما كثر من الملوك والسلاطين والأتابكة الذين مروا بدمشق فكان الأموي دائماً موضع الاهتمام إلى أن جاء الحريق الأكبر الثاني سنة ١٣١١هـ ـ ١٨٩٣م، فرممه أهالي دمشق، وكان عدد قليل منهم قبل عقود قليلة أحياء وشهوداً لهذا الحريق الكبير، ويذكرون أنه خلال ساعتين ونصف الساعة من ضحى يوم السبت رابع ربيع الآخر من سنة ١٣١١هـ، لم يبق من الأموي إلا جدار الحرم ومشهدان عند باب البريد ورواق الصحن. أما القبة والسقف بكامله فلم يبق منه أثر، وتأثرت المئذنة الغربية بالحريق وتضعضعت. وعند ظهيرة هذا اليوم كانت النار لا تزال بقاياها في أرجاء المسجد، كان أهالي دمشق يرفعون الصلاة في صحن المسجد وهم يركعون ويقولون: الله أكبر.. الله أكبر من الجامع، فإذا ذهب الجامع فالله باق.. والصلاة باقية، لا يشغل المؤمن عن صلاته شيء في الدنيا مهما كبر، لأن الصلاة لله، والله أكبر(٧).

المراجع والهوامش

١. شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مؤرخ ولد بدمشق سنة ٧٠٠هـ، ومات فيها سنة ٧٤٩هـ. من مؤلفاته المهمة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

٢. محفوظ اليوم في قسم الآثار الشرقية في متحف دمشق الوطني، ويعده الأثاريون الشاهد الوحيد على مملكة دمشق الآرامية. الحوليات الأثرية عام ١٩٦٣م دمشق.

٣. النعيمي ـ محيي الدين أبو المفاخر عبدالقادر بن محمد بن عمر بن يوسف بن عبدالله بن نعيم، تولى نيابة القضاء الشافعي بدمشق، واشتهر بالتاريخ والحديث والتصوف، توفي سنة ٩٢٧هـ من مؤلفاته «الدارس في تاريخ المدارس».

٤. تاريخ ابن عساكر.

٥. ٦. العمري.

٧. نقلاً عن رواية الشيخ علي الطنطاوي من كتابه «الجامع الأموي في دمشق». وأول مرة بعد مرور مئة عام على الحريق الأخير تتاح إمكانية عملية لإصلاح هذا المسجد وتطويره على يد اللجنة التي شكلت بقرار من حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية السابق، وقد استهدفت هذه العملية رفع الأخطار التي يتعرض لها المسجد مهما كانت معيبة أو مموهة. وقد تمت الإصلاحات الشاملة، وقام الرئيس الراحل الأسد وجماهير غفيرة من الرسميين والشعب بافتتاح المسجد الجديد بعد إصلاحه.

ديوان من بيرو يتغنّى بالأندلس العربية

عبداللطيف عبدالحليم (أبو همّام)
الجيزة - مصر

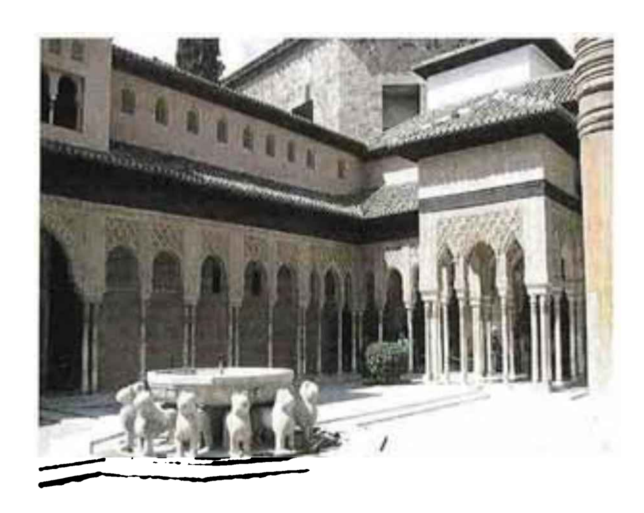
ماركو مارتوس شاعر من بيرو، خنق الخمسين، يعمل أستاذًا لأدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية في كلية الآداب والفلسفة، بجامعة سان ماركوس في عاصمة البيرو «ليما».

يجمع ماركو بين الشعر والدراسة الأكاديمية، وهو جمع عسير، غير معهود بتواتر في القرائح الإنسانية؛ لأن الشعر حاكم مستبد، ومشغلة عن غيره، لكن صاحبنا استطاع التوفيق بين ملكتيه النقدية والشعرية، فلم يُصَبْ شعره بما يصاب به شعر العلماء، فيخرج لا مائية فيه، عسر الرونق والبهاء.

والعجب أن الجمع بين الملكتين - ونبه عليه قديمًا سهل بن هارون - رأيته في ليما، مشاركًا في مهرجان شعرها العالمي، في خريف العام قبل الماضي.

وللأستاذ ماركو إسهامات نقدية مهمة، وبخاصة دراسته عن جيل الستينيات من شعراء بيرو، وقد أخرج طائفة من الدواوين، من أبرزها هذا الديوان «شِعْر بيرنيثي المستعار» أو «باروكة بيرنيثي» إن شئنا الكلمة الأعجمية، وقد ترجم شعره إلى الفرنسية، هو في صدارة شعراء جيله الآن.

يبرز في هذا الديوان الاهتمام بالأندلس العربية، أو بما هو شرقي عمومًا، بجانب الشعر الوصفي والتأملات، وكان مفاجأة بالنسبة إلى أن أطالع قصائده عن الأندلس، لبعد الشقة، لكن يبدو - إن لم نسرف في التخيل - أن الشاعر ربما يتحدر من الأصلاب الموريسكية التي هاجرت إلى أمريكا اللاتينية بعد زوال الحكم العربي



بالأندلس، لكنه تخيل تعوزه الأسانيد التاريخية، وإن لم تعوزه - في رأيي - معالم الوجه والأعضاء.

وقد ألف أن أقرأ عن الأندلس العربية لشعراء من إسبانيا (الأم)، مثل مانويل ماتشارو الذي يفخر بأنه: «من جنس عربي قديم، جنس صديق قديم للشمس، أولئك الذين غنموا كل شيء، وخسروا كل شيء» كما يقول في قصيدته «الدفلى»، ومثل فرانسسكو بياسبيسا، وأطلقت عليه شاعر الحمراء، لاشتمال شعره على دواوين كاملة عن غرناطة والحمراء، كما صنع نظير له غرناطي قديم هو ابن زمرك، ومثل خوسيه أورثكو، وأنطونيو جالا شعرًا ومسرحًا، وغيرهم كثير.

لكن أن يفرد شاعر من بيرو قسطًا كبيرًا من قصائده للأندلس العربية، فهو أمر لافت للنظر، ولعل

الشاعر كان يتنفس من رئة الأندلس همومه القومية الإنسانية.

ومعلوم بالضرورة أنه لا ينظم حوادث تاريخية، وإلا كنا في غنية بالتاريخ عن شعره، لكنه التقط حوادث التاريخ ليقيم معها حوارًا أو جدلاً حاضرًا دون أن يقع فيما يقع فيه نظراؤه من أوربا المفتونون بجو ألف ليلة وليلة، وحين نظم على لسان مخترع الموشحات مقدم بن معافى القبري الضرير نسبة إلى Cabra من أحواز قرطبة، ركب طريقة الموشحات في الأغصان والأقفال، وكانت تبرز القافية فيها بروزًا معجبًا بالأصل الإسباني بالطبع، ولم يقع الشاعر في مباءة الرموز المستغلقة، بل كانت لغته وصوره سهلة وعميقة في الوقت ذاته.

ولعل ترجمة هذه الطائفة من قصائده تكون منزلة التحية ردًا على تحيته التي حيا بها أسلافنا وتاريخنا العزيز في الفردوس المفقود.

١. وجهان من ولادة

(يفضي ابن زيدون بحبه لولادة)
فيك وجه يتولد منه نور جميل،
ينتثر على الدنيا، محزون المشيئة،
ثم يسكن، متأملاً أيامًا وليالي عارية من السكون،
يتغلغل في فؤادي، يطهره من الدنس،
أبقى مسلوب الإرادة أمام عينيك.
وفيك وجه آخر من ظل صاف،
لا يدري أحد من أين، لكنه يومض ملتمعًا،
نور وظل يمتزجان تلقائيًا،
دفقة ظل، ودفقة نور، تفنيني،
حب غريب شديد الشفافية، لا يبين
عندما ترمقينني.
فيك وجوه، وجهان على الأقل
أفهمك فهمًا ضئيلاً عابرًا، سيكتمل حين تنقضي الدنيا.

٢. رسالة إلى ابن زيدون

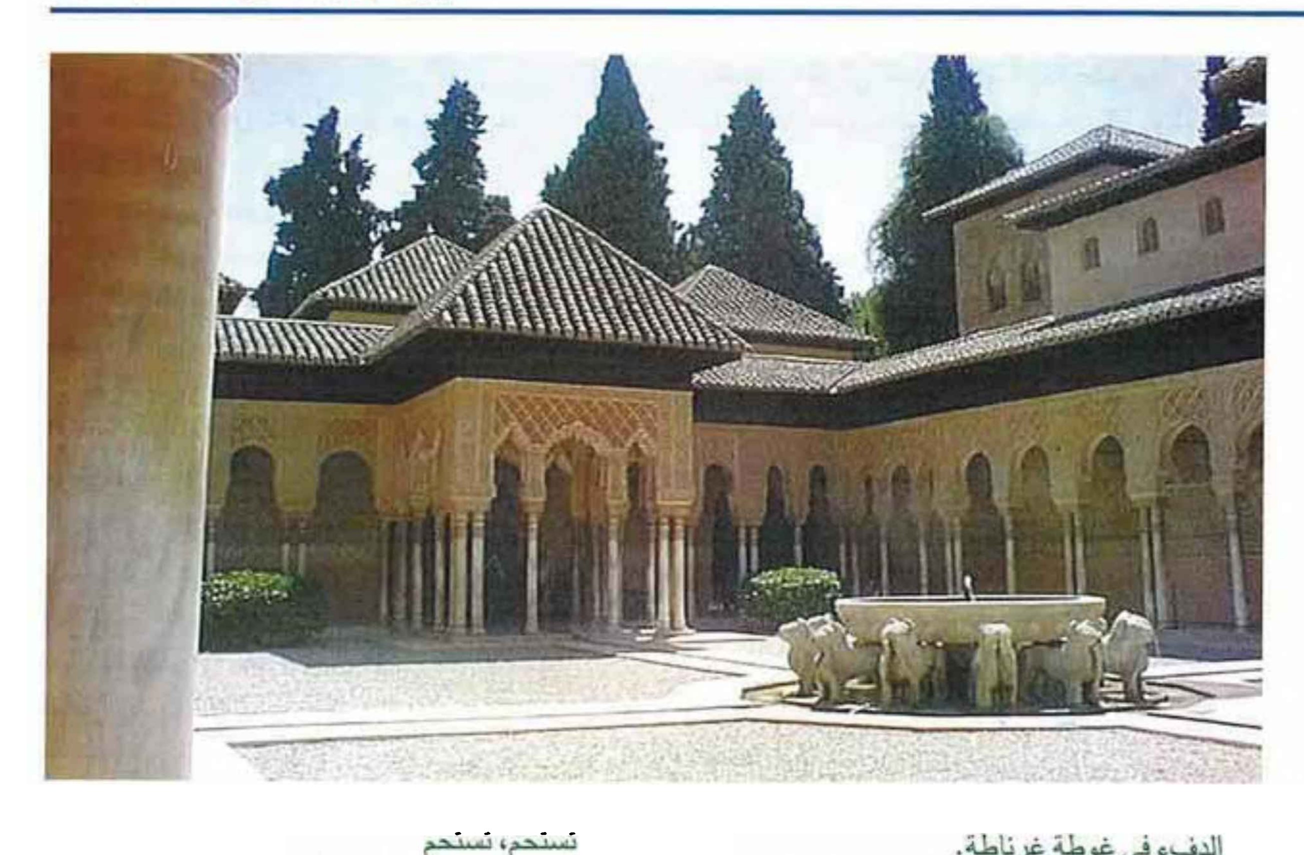
(من الأميرة ولادة)
الحب الذي تعترف به محمود، يناجز القدر،
ويستأهل اسمًا مقدسًا،
يلون الممكن والمستحيل حبًا كهذا الحب،
يقترنان في فن واحد، وحين ينظم شعرًا
يشكل قوس قزح في السماء اللامتناهية الصافية،
انظر يا بن زيدون:
السماء بسحبها المسفّة، هذا الغيث الهامر
فوق الغوطة، وفوق الجبال القصية.
انظر هذه الزرقة الصافية الآن،
والألوان السبعة المتواشجة
إنها تشبه قصائدك يا بن زيدون
إنها الغبطة لفؤادي الوحيد.

٣. سجن الحب

(يكتب ابن زيدون إلى الأميرة ولادة)
لقد لمحتك يا ولادة في السوق، وفي البرج
أحاول أن أطري سحرك وعذوبتك.
لقد لمحتك تصنعين أمورًا بسيطة،
لسعادة ناسك، ومتعة دارك:
أخلاط معجونة، لكنها لذيذة،
رقى طيبة، تجلب السعادة، لا الألم.
وقد تركتني مسحورًا بمشطك وبسمتك،
بحبك الآسر الذي أوهن قواي،
مأخوذًا في السوق والبرج،
أحاول أن أعبر عن سحرك وفتنتك،
أو أنظم شعرًا، ربما يأسو جرح الحب الذي جرعتنيه

٤. فتاة غرناطة

تحلم بساحة الأحواض في الحمراء،
بباحة البحيرة، بقاعة الأسود
حيث نوافير المياه البللورية،
قرة عين أبي عبدالله.
مثل عمود رقيق من المرمر الحي
مثل ماء دافئ عبر أنابيب وقنوات سرية،
مثل سيدة في بلاط أبي عبدالله
حيث شهوة المتعة الكسلى، متعة



الدفء في غوطة غرناطة.
مثل حلم يقيد الزمن، مثل كلمة ينطقها أبوعبدالله.
«أبوعبدالله منفي إلى المغرب، ليس يدري،
سيموت في السجن، ليس يدري
سيكون آخر ملك مسلم لغرناطة
شيء من هذا يدريه».

٥. موشحة

(لمقدم بن معافى القبري الضرير)
تستحم الفتاة، تستحم، تستحم.
بياض ناصع، ولون قرمزي،
يتضوع العطر الرقيق من الحب
تستحم، تستحم
من الماء الفوار
يسمع في الخارج جيداً، الصدى والمجاذبة
تستحم، تستحم
ماذا أصنع هنا في الخارج
أريد لمس خاصرتها فحسب

تستحم، تستحم
أسمع خرير الماء الذي لا أراه
حسبي أن أتشهى
تستحم، تستحم.
تتوهج مع الخرير
رغبتنا حب من رجل وامرأة
يستحمان، يستحمان.

٦. مدينة الزهراء

نور أندلسي، فوق مدينة الزهراء
شجر البرتقال والزيتون
برك وحمامات، وقاعات مذهبة
أوانس، أوانس قبل كل شيء
عطور نساء
طنافس، وحرير، في قصر عبدالرحمن الثالث
ملذات عبدالرحمن الثالث
في النهايات العربية
من زمن سحيق في الأندلس

بعيداً في جبال قرطبة
بعيداً عن المؤذن الذي يدعو الله الرحمن الرحيم
تقدست ذاته.
إلى إله النصارى، فيليبي الثاني
في سان لورنثو بالإسكوريال
ماذا صنع ملك إسبانيا
بحاسته الشهوانية؟.

٧. ساعة عبدالرحمن الثالث الأخيرة

(قرطبة سنة ٩٦١)
تموت الشمس فوق مسجد قرطبة
يولد ليل في فؤادي، لا شيء سواه
غداً يؤوب النجم إلى مداره
ليس هناك قلب في الظلام السرمدي
أسطرلابات، ساعات رملية
تجاعيد وجهي، تقاويم الفيل
ذواكر الخاشعين، جنود تشهر سيفي،
الكل يعرف، ويحكي كيف تسربت
قطرات خمسين عاماً من الإمارة والخلافة
ذخائر، أمجاد، لذائذ،
كل هذا ملكته، وكله بددته.
الأعداء والأعيان يقدرونني، يخشونني،
يحسدونني، يقبلون - طبقاً لآيين البلاط -
الأرض بين يدي، يصعدون خاشعين إلى أريكتي.
كل ما يتمناه الرجال وهبته العناية الإلهية لي.
يهبط المساء، تسقسق الطيور.
عبر ذلك العمر الطويل البائن الجذل، حاربت
في طليطلة، وفي ماردة، وفي سرقسطة،
وحققت النصر في كل غزواتي، وأخمدت
كل الفتن المبيرة ضد الخلافة،
وكل حسان الأندلس ابتسمن في فراشي
كل صباح.
يهبط المساء
تكف الطيور عن السقسقة،
قبل أن أقضي أود أن أعد أيام السعادة
تتفحص ذاكرتي الماضي: إنها أربعة عشر يوماً
يتدبر المؤمنون والشهداء عظمة الكون والحياة
معي.
يهبط المساء
كان اسمي عبدالرحمن الثالث
هذه كلمتي الأخيرة.

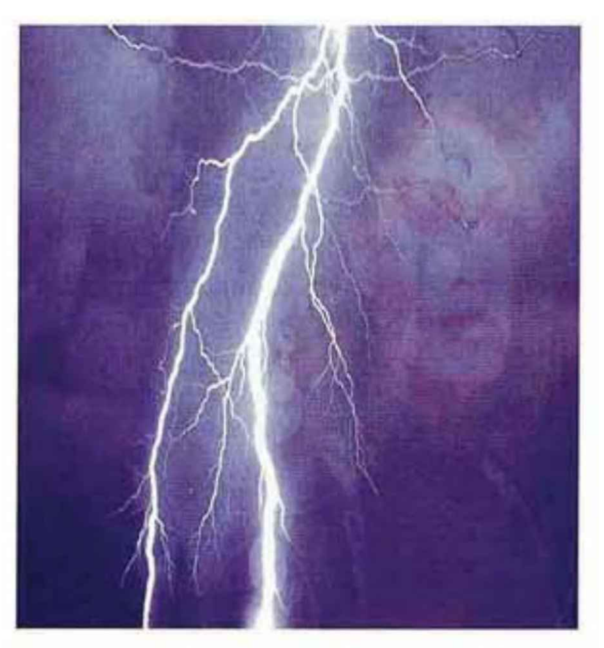
٨. فأل سيئ يحط على زرياب

قرطبة، قرطبة الخلافة،
قاعة المرايا في قرطبة الخلافة،
بجانب البابة المؤدية إلى جيان،
في قاعة المرايا في قرطبة الخلافة،
بجانب البابة المؤدية إلى جيان.
زرياب، الموسيقيّ المغني يلعب الشطرنج
مع صديق أندلسي، يتأمل لعبته ملياً
يمسك طابية بأصابع يده اليمنى،
يحلم ببغداد، بمحجتها الدائرية، بمسجدها،
بسوقها الحافلة، الممتدة وراء الأسوار،
بنخلة، بنخلة وحيدة، تنشر ظلالها
قصيدة حب.
الطابية ذاهبة في الهواء، النصر وشيك،
بغتة يتحطم الزجاج في قاعة المرايا
في قرطبة الخلافة،
بجانب البابة المؤدية إلى جيان،
لم يمت الشاه، فأل سيئ يحط فوق زرياب،
ها هي ذي يده تفتر، يخسر اللعبة،
خسر زرياب الجولة؟.
هل سيلحق النحس به في قرطبة الخلافة؟
أيموت في هاته الأرض دون أن يحقق المجد والشهرة
أم ستسقط قرطبة؟
تسقط في يد النصارى الذين سيدمرون
قاعة المرايا، وبابتها المؤدية إلى جيان.
ماذا سوف يحدث؟
كيف ستتحرك القطع اللانهائية
في جولة الشطرنج؟.

إلى الأحبة في الخليج

قاسم السامرائي
لايدن - هولندا

برقٌ تلألأ فاستفاضَ دُموعا
بربا الخليج فما استطعتُ هُجوعا
شوقًا وقد قرُبَتْ ديارُ أحبَّتي
منِّي بأرض الرافدين دَفوعا
وأشدُّ ما يلقى المحبُّ من الجوى
قربُ الديارِ ولا يُطيق رُجوعا
وتلفَّتتْ عيني لعلَّ خيالَهمْ
بعدَ الوداع يكرِّرُ التوديعا
قد كِدتُ من فرْطِ الصبابة والنوى
أدَعُ الحياءَ فما أكفُّ جَزوعا
ما كنتُ من حلو الزمان ومرِّهِ
جَزِعًا فصيَّرني الفراقُ هلوعا
فلقد يهلُّ من التذكُّرِ مَدْمَعٌ
ويبيتُ مكلومُ الفؤادِ صَديعا
فيثوبُ مفؤودٌ وتسكنُ لوعةٌ
ويقرُّ قلبٌ ما يزال وَجيعا
فصبرت والشوق المبرِّحُ قاتلي
فأزلت من حرِّ الشجون دموعا
ولو أن صبرَ المرءِ يمنعُ غُصَّةً
لشريت صبرَ العالمين جميعا
ماذا أقولُ وقد ملأتْ جوانحي
حبًا شرى مني الشغافَ فبيعا
ماذا أقولُ لخافقٍ لا ينثني
شوقًا لأيامٍ مَضَيْنَ سَريعا



ماذا أقولُ وقد تملَّكني الهوى
فأحالني بعدَ النفارِ وديعا
فأطعتُهُ رغْمًا وليْتَ عصيتُهُ
إذ كنتُ متبوعًا فصرتُ تَبوعا
يا أهلَ وِدِّي قد تركتُ بداركمْ
روحًا تحنُّ وخافقًا مفجوعا
يا أهلَ ودي هل لنا من عودةٍ
نحوَ الخليج فقد مللتُ نُزوعا
شوقًا إلى أرض الخليج وأهلهِ
والحبُّ أجملُ ما يكونُ شفيعا
فنرى السفينَ الحالماتِ هواديًا
فوقَ الخليج وقد نشَرْنَ قُلوعا

إكرام الضيف

الحطيئة*

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرْمِل
بِبَيْداء لم يُعْرَفْ بها ساكنٌ رَسْما(١)
أخي جَفْوةٍ فيه من الأُنس وَحْشَةٌ
يرى البؤسَ فيه، من شَراسته، نُعْمى(٢)
تفرّد في شِعب عجوزاً إزاءها
ثلاثةُ أشْخاص تخالُهم بُهْما(٣)
حُفاةً عُراةً ما اغتذَوْا خُبزَ ملّةٍ
ولا عرفوا للبُرِّ ـ مُذ خُلِقوا ـ طَعْما(٤)
رأى شَبَحاً وسْطَ الظلام فراعَهُ
فلمّا بدا ضيفاً تشمّرَ واهتمّا(٥)
تروّى قليلاً ثم أحجَم بُرْهةً
وإنْ هُو لم يذبحْ فتاهُ فقد همّا(٦)
وقال ابنُهُ، لمّا رآه بحيرةٍ
أيا أبتِ، اذْبحْني ويسِّرْ له طُعْما
ولا تعتذرْ بالعُدْم، علَّ الذي طرا
يظنُّ لنا مالاً فيوسِعنا ذمّا(٧)
فقال: هيا ربّاه، ضيفٌ ولا قِرًى
بحقّك، لا تحرِمْه تا الليلةَ اللّحْما(٨)
فبَيْنا هُمُ عنَّتْ على البُعد عانَةٌ
قد انتظمتْ من خلف مِسْحلها نظْما(٩)
ظِماءٌ تريدُ الماءَ، فانْسلَّ نحوها
ألا إنّه منها إلى دمِها أظما!
فأمهلها حتّى تروّتْ عِطاشُها
فأرسل فيها من كِنانته سَهْما
فخرّتْ نحوصٌ ذاتُ جحْش فَتِيَّةٌ
قد اكتنزت لحماً وقد طُبّقتْ شحْماً(١٠)
فيا بِشْرَهُ إذ جرّها نحو أهله
ويابِشْرَهُم لمّا رأوا كَلْمَها يدمى(١١)
وبات أبوهم من بشاشته أبا
لضيفهمُ، والأمُّ من بِشْرها أُمّا
وباتوا كراماً قد قضَوا حقّ ضيفهم
وما غرِموا غُرْماً وقد غنِموا غُنْما

الهوامش

*الحطيئة: اسمه جرول بن أوس، والحطيئة لقب له؛ لأنه كان قصيراً قريباً من الأرض. واشترك في الجاهلية في حرب داحس والغبراء، وأسلم ووفد على الرسول وأنشده، وهدأ الحطيئة في خلافة أبي بكر في اليمامة. وفي أول خلافة عمر رأيناه يحمل شعره إلى العراق والحجاز مدحاً وهجاءً، وألقى به عمر في السجن، ثم أخلى سبيله، وأخذ عليه عهداً ألا يهجو أحداً من المسلمين، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم يستغني بها عن الهجاء. وفي أيام عثمان بن عفان ذهب إلى الكوفة ثم عاد إلى المدينة. أما في أيام علي فقد انزوى، ولكنه برز في أيام معاوية في المدينة.

والحطيئة من فحول الشعراء ومتقدّميهم وفصحائهم، مكثر متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والفخر والهجاء والنسيب والوصف مجيد في ذلك كله.

١. الطاوي: الذي بات على الطوى (الجوع) ثلاث ليال. عاصب البطن: قد ربط بطنه (ليمنع معدته من الحركة) فلا يشعر بالجوع. مرمل: فقير (قد امتلأ ماعون بيته بالرمل لفراغ ذلك الماعون من المؤونة مدة طويلة). لم يعرف بها ساكن رسماً: لم ينزل بها أحد منذ زمن طويل.

٢. أخي جفوة: غليظ الطبع. فيه من الأنس وحشة: ألف الانفراد حتى لو رأى إنساناً لاستغرب منه واستوحش.. يظن أن ضيق العيش الذي ألفه وتعوده رفاهية.

٣. عاش منفرداً في شعب (طريق في الجبل، بعيداً عن الناس) مع امرأته العجوز وثلاثة أولاد لهما تظنهم بهما (صغار الغنم) لنحولهم وهزالهم.

٤. الملّة: الرماد الحار. خبز ملة: العجين الذي يخبز. البر: الحنطة، القمح.

٥. تشمر للأمر: تهيأ، استعد (لخدمة الضيف وإكرامه). اهتم: أظهر الاهتمام؛ حزن (إذ لم يكن لديه طعام لهذا الضيف).

٦. تروّى: فكر ملياً (في ذبح ابنه). أحجم: تأخر، امتنع. البرهة: المدة. هم: كاد يفعل.

٧. العدم: الفقر. طرأ: أتى من مكان بعيد.

٨. ولا قرى: وليس عندي طعام للضيف. تا مؤنث ذا (اسم اشارة).

٩. فبينما هم (في ذلك) عنت (ظهرت، بدت). عانة (قطيع). انتظمت: وقفت في صف مستقيم. المسحل: (الحمار الوحشي الذي كان يسير على رأس ذلك القطيع).

١٠. النحوص: الأتان التي لا ولد لها ولا لبن (ويكون لحمها أسمن وأطيب) ولكن الحطيئة يجعلها ذات جحش (أم ولد).

١١. البشر: تهلل الوجه (الفرح). الكلم: الجرح. يدمي: يسيل منه الدم.

قصة قصيرة

حمائم إيليا

هانس بيندر°

ترجمة: علي عودة
إربد ـ الأردن

كان مُلازمي جائعًا على الدوام، فهو، حينما لا يُطلقُ النارَ، يكونُ بين أسنانه قطعة خبز، خبز مع سجق، خبز مدهون بالشحم، لحم أو شحم خنزير، إلاّ أنّه كان يفضل أكل الحمام على أي شيء آخر.

ولما كُنا نسير عبر القرى، وما إن تظهر حمامة في الجو أو على أحد الأسطح، حتى يُبادر بإطلاق النار عليها. وقد راق لي ذلك أيضاً.

كانت لديّ بندقية مع مقراب التصويب، وقد أصبت الهدف دوماً. غير أن مقذوف سلاحي كان في حقيقته كبيراً على الأجسام الصغيرة، مما أدى إلى تطاير الريش بين أكوام العشب، وغالبًا ما تمزّق الجلد تماماً.

لقد كنت صبيّ الملازم. وكان عليّ كذلك أن أحمّر الحمائم. وهنا لي أسلوبي الخاص: أنظفها، أنتف ريشها، وأضعها في الحلّة التي ذابت فيها الزبدة، مضافًا إليها الملح والفلفل، وشيء من البقدونس من الحديقة التي في الجوار.

بعد عشر دقائق تأخذ الحمامة بالطشطشة، فأقوم بتقليبها. وبعد مضي عشرين دقيقة تكون قد تحمّرت من كلا الجانبين، والبخارُ يرفع الغطاء.

أضعها في صحن وأقدمها للملازم، أمّا أنا فأنظف جدران الحلّة وقاعها بقطعة خبز!

في (سفاستوبول) كان لدينا منذ الأيام الأولى حوادث كثيرة، ولما كان عددنا اثني عشر أخرجنا القائد، وأرسلنا إلى الساحل المقابل للقرم، وقمنا باتخاذ موقع آمن. إذ ينبغي علينا أن نسترد قوانا.

في القرية (أوزوفيني) نزلنا من المركبات. على الشارع كان يقوم أحد البيوت الروسية المطلية بالأزرق، نوافذه لامعة. وكنتُ على الدوام حينما أبحث عن نُزل أنظر إلى زجاج النوافذ لأن زجاج النوافذ يدل على السكان والحجرات.

ونظر الملازم أيضاً إلى البيت كالمنوم مغناطيسياً.

(انظر هناك) قال، وهو يشير بعصا صغيرة إلى السطح: على الخشبة الصغيرة ثمة ما يقارب الدرزنين من الحمام المُسمن بذيولها المنقوشة.

قال لي: (هنا سنبقى)، وخاطب الآخرين: ابحثوا لأنفسكم عن شيء في الجوار!

تركنا مركبتنا، عربة صغيرة يسحبها حصانان، ووقفنا أمام باب السور، وأنزلنا الحقائب، ودلفنا إلى الباحة.

يقوم البيت إلى اليسار، وإلى اليمين ثمة حديقة فيها شجيرات الورد وأحواض البطاطا ونبات البصل. إلى الأمام في الوسط ينتصب موقد المطبخ وبجانبه وضعت طبقات من روث البقر الجاف. ففي القرى يستخدمون الروث لإشعال النار؛ لأنه لا يوجد غابات هناك.

عثرنا على المرأة في المطبخ. فتحت لنا باب الممر بعد أن فهمت مقصدنا، ثم دلفت إلى الداخل، وراحت ترتب الغرفة. غرفة واسعة فيها منضدة وكراسي وسريران حديديان مكتظان بالوسائد.

على الحائط تُعلق مرآة مُزينة بورق الورد، أيقونات، مصباح وصور قديمة.

نزعنا المعاطف والسراويل ورمينا بأنفسنا على الأسرة.

أيقظني الملازم بهزة: إنني جائع.

نهضت وأخرجت حللي من الحقيبة.

سأل الملازم: هل رأيت الحمائم؟

ـ طبعاً.

ـ لنقل أربع حمائم. ثلاث لي وواحدة لك.

ـ إذن أربع حمائم.

ـ رد قائلاً: نعم، أربع حمائم.

حينما أتيت إلى الباحة كانت المرأة تقف على ركبتيها أمام الموقد، وتمسك بحلّة حديدية فوق النار، تُحمر فيها كميات غير معروفة من مختلف الخضراوات. راقبتها، تحدثت بضع كلمات كانت كفيلة بإضحاكها، إلاّ أنها لم تضحك.

أتت فتاة من البيت، ابنتها، تارزيا، ذات الاسم الرائع، وأتى برفقتها أخوها الشاب نيكولاي: كيف كانوا يحدقون فيّ؟!

قالت المرأة، إن بإمكاننا تلقي شيء منها. قلت: شكراً، لدينا ما هو أفضل! الملازم وأنا نشتهي مساء اليوم حماماً.

وجوه متسائلة مندهشة. ماهذا؟ تحدثتُ الروسية على نحو ما، إلا أنني لم أكن أعرف كلمة حمام.

ولأنهن كن يرفرفن، لم يكن بوسعي أن أشير إليهن، لهذا قمت برسم حمائم.

لقد حالفني النجاح هنا وهناك في تقليد الحيوانات عند الاحتفال بعيد الميلاد في السرية، أو في مساءات الضباط في الكازينو، غير أن تقليد حيوانات أخرى كان أسهل بالنسبة إلي من تقليد الحمام، وقد حاولت مع ذلك.

كنت أجلس القرفصاء، أضع أصابعي الممدودة على العجيزة فيما يشبه الذيل، أنط هنا وهناك، أنفخ أوداجي، وأبدأ بالهديل، غير أن ثلاثتهم لم يضحكوا، وحينما أيقنوا تماماً ما أعني، راحوا يصخبون كالوحوش.

سألت: ما السيئ في ذلك؟ ألم يحضر جنود آخرون، كانوا هنا سابقاً، ما يمنعهم؟ إنها الحرب أخيراً.

قالت تارزيا: يسمح لك بأخذ كل شيء نملكه، ما عدا الحمائم. فهي ليست لنا، إنها من أملاك أخي إيليا. إنه يقاتل في زيفا ستوبول.

لا شك أنني كنت شديد التأثر، ولكن ماذا عليّ أن أقول للازمي؟ قد أظهرت لهم تفهمي. أجل، أجل، حمائم إيليا، أنا.. لا.. حمائم إيليا.

الضابط! هل لكم أن تفهموا؟ الضابط يريد أن يأكل حماماً!

ذهبت إلى مخزن الغلال المشرع، لأصعد السلم إلى الخشبات، كي أصوب من هناك. حدقت المرأة بي. هرولت نحوي، وبقوة أمسكت بقوائم السلم من الخلف. حاولتُ إبعادها، ولكن دون جدوى. عيناها أبدتا مقاومة أعنف.

أدرك نيكولاي أيضاً نيتها، تناولت المحشة من الأرض، فتراجعت.

في الصباح التالي وصلت أوامر بحفر خنادق على امتداد الشاطئ. قضى الملازم جميع اليوم على الطريق. عاد منهكاً عند المساء.

كنتُ قد قنصت حمامتين من على سطح آخر، وقمت بتحميرهما، بينما كانت حمائم إيليا تحوم حولي.

أحببت وكرهت هذه الحمائم. إنها تخصُّ أحد الناس، يعيش حقيقة الظروف نفسها التي كنتُ أعيشها. كان جندياً وبعيداً عن المنزل. ولأجله اهتمت والدته بحماية الحمائم.

كلا، ليس بمقدوري أن أذبح أياً منها، حتى إنها كانت تلاحظ ذلك.

فقد تمتعت بالجرأة والغرور، فكانت تهبط من فوق الباحة، وتجلس أمام قدمي، تتذلل وتهدل وتسجع.

قبل الضربة قصدت الرفوف الخشبية، ثم حلقت عائدة، جلست على روث البقر وراحت تنظر إلى الحلة، التي تُقلى فيها الحمائم التي كانت في الجوار. اثنتان أو ثلاث من بينها تمكنت من الانقلاب في أثناء الطيران. لقد كانت حمائم رائعات، يافعات، بريّة من ذوات الحوصلة، ومن النوع التركي.

حينما سافر نيكولاي إلى (باكسي) ذات صباح ـ إذ كنا نسكن في المنزل منذ ما يقارب عشرة أيام ـ أراد أن يزور أقارب له هناك وأن يحضر معه كيس خضراوات.

كانت المسافة إلى (باكسي) أربعين كيلو متراً. وهي بلدة كبيرة، فيها قيادة أركاننا، ومستودعات المؤن. وكانت سيارة المؤن قد أخذت نيكولاي معها.

وحين عاد عند المساء، جرى عبر الباحة إلى المطبخ، في الداخل كان ثمة صراخ، تلاه بعد ذلك بقليل قدوم السيدة إلى حجرتنا للمرة الأولى منذ نزلنا هناك.

تحدثت بكلمات وحركات كثيرة بما يفيد أن نيكولاي شاهد إيليا في (باكسي)! (إنه أسير في أيدي الألمان) ـ وهو الآن في أحد المعسكرات في (باكسي).

ـ في (باكسي)! إنه قريب من هنا! بالتأكيد أن بمقدور السيد الضابط إعادة إيليا إلى البيت.

أريد أن أرى عزيزي إيليا، أضمه إليّ ولا أدعه يذهب ألبتة.

سأعطي الضابط كلّ شيء يتمناه، أعطيه الديوك والماعز والبطاطا والطحين، ورحيق الورد والشاي الأذربيجاني، وكذلك الأيقونات التي أخفيتها، والتي يرغب الضابط فيها، ومنديلاً حريرياً، وبرشاً ذهبياً، والحمائم، أجل، حمائم إيليا. ترجمت كل ذلك، فقال الملازم لي: ماذا علينا نحن ـ النور ـ أن نفعله من أجل الحمام!

وتوجه إليها مخاطباً: توقفي أيتها العجوز، ستحصلين على ابنك إيليا.

غداً هو الأحد، سنسافر ونحضره إلى هنا. أجل إلى هنا. وفي تلك الأثناء تكونين قد جهزت الحمائم الجميلات، مفهوم؟

كانت قد استوعبت الكلمات، غير أنها لم تستوعب نبرتها، فهوت أمام الضابط على الأرض، وراحت تنوح، وتقبل حذاءه.

أرتنا (تارزيا) صور إيليا. كان يرتدي زي ملاح البحرية، قميص مخطط بلونه الأزرق والأبيض وبزيه مع إشارة أسطول البحر الأسود. عظام وجنتيه بارزة، وله عينا بحار جسورتان ذابلتان.

أقنعتُ الملازم، وقلت: قد يكون بإمكاننا طلب إيليا كمساعد طباخ أو كعامل في موقع البناء.

ردّ قائلاً: أنت يا مثالي.

أجل، لقد كنت مثالياً! كانت تراودني أفكار جنونية ليلاً، وفي الصباح في أثناء السفر إلى (باكسي).

أردت تحرير إيليا بحيلة وبأي عمل، لو لم يكن الملازم حقيقة نذلاً، إذ كانت هذه الأمور بالنسبة إليه بمنزلة تسلية.

كان الصباح مهيباً في القرم. سماء صافية، ظلال باردة،

وأشعة شمس متوهجة. إلى الغرب تقبع دوماً جبال (جايالا) كالأضراس.

قام نيكولاي بمرافقتنا أيضاً، إذ توسل إلى الملازم من أجل هذا. وكان قد اغتسل، فكان يمرر المشط في شعره المبتل.

في (باكسي) علمنا أنهم كانوا أربعة آلاف أسير. أسكنوهم في المدرسة السابقة. أحاطت بسورها الأسلاك الشائكة، ونصبت البنادق الآلية.

توقفنا. نزع مني الملازم زمام الأمر وقال:

ـ انزلوا، إنكم أحرار في البحث عن الفتى، وسوف أعود بعد ساعة.

ـ أذاهب حضرتك إلى القائد؟

ـ تخيّل كلّ شيء بمنتهى البساطة، قال وهو ينهال ضرباً على الخيول: كان قد أنزلنا، أنا ونيكولاي أمام مدخل المعسكر. البوابة مسلحة بالقضبان الحديدية. إلى الجوار ثمة حاجز، حارس من إحدى بطاريات المراقبة، رجل سمين بزي رسمي قذر، ينتعل حذاء برباط، ويرتدي سروالاً طويلاً.

ـ ماذا تريد؟ بادرني بالسؤال.

ـ عليّ أن أذهب إلى المعسكر لأبحث عن أسير.

ـ «ممنوع».

ـ من غير المألوف، أن يكون الأخ الأصغر هناك في المعسكر. إنه يريد أن يراه فقط.

أخذ الحارس ينقر بسبابته على الجبين.

ـ ماذا دهاك؟

ـ رئيسي الآن لدى القائد، وسوف يلحّ عليه بطلب الأسير ليشغل عاملاً.

حتى هذا اليوم لم يؤثر فيه، فرحتُ أكيل له الشتائم. أحضر ضابط الصف من عند الحاجز، فقام هذا بطردنا. سرنا ببطء بمحاذاة الأسلاك الشائكة، وعثر نيكولاي على أخيه. ولمّا تعرّف هذا إلى نيكولاي، نهض واتجه صوبنا.

هتف نيكولاي بالأخبار المثيرة عبر السور. لم يتحدث إيليا إلا القليل.

كان يبتسم أحياناً.

سأل: كيف حال حمائمي؟

حالها حسن، حسن جداً، ردّ نيكولاي. جميعها على قيد الحياة. أراد الضابط أن يأكلها، غير أن (ماموشا) لم تسمح له بذلك.

قال إيليا: غذيها جيداً، وإذا لم أعد، فإنها ملكك.

عاد الملازم بعد ساعة، وكان قد شرب حتى ثمل. وهو يثمل دوماً حينما يحضر إلى مخزن المؤن.

ـ «أنتما الاثنان، تحركا»، هكذا بدأ معنا. وسافرنا!

ـ وماذا عنه؟

ـ عن من؟

ـ إيليا علينا أن نصحبه معنا. لا يجوز لنا ترك إيليا.

ـ إيليا! إيليا! دعوني أسترح من هذا أخيراً.

ـ «إنها وعدت والدته».

ـ وعدت، نعم، ولكن لا يُطلق سراح الأسرى. علاوة على ذلك فإنهم سيُرحلون الليلة. إنهم ذاهبون إلى الرايخ. قد يكون هناك في وضع أفضل.

هل تفهم يا نيكولاي، أخوك ذاهب إلى ألمانيا، لا أحد يعترض، إنه البيت الألماني.

قال نيكولاي: إني أفهم أيها الملازم.

ومن وراء الأسلاك أدرك إيليا الأمر أيضاً. فاستدار وسار ببطء داخل مبنى المدرسة.

كانت والدة إيليا وتارزيا تقفان أمام الباب، حينما حضرنا. وهما ترتديان هندام الأحد. تحدث إليهما نيكولاي عن كل ما حصل.

فككتُ وبطنتُ وبللتُ ومسحتُ الحذاء، اغتسلت، ومنحت نفسي وقتاً كافياً.

بعدئذ ذهبتُ أولاً إلى الحجرة. كان الملازم يجلس على المنضدة ويلتهم الحمائم. حمائم إيليا. على الطبق أكثر من (درزن)، كانت الأم قد ذبحتها ونظفتها وحمرتها. وفي الكومودينو وجدت الأشياء التي وُعد بها.

قال الملازم: لو أنك تأكل حماماً، إنها شهية.

لم أجبه.

ـ ألا تشتهي أيضاً؟

ـ كيف؟

ـ كيف؟ كيف؟ إنك تريد حقاً أن أشعر بالتقزز، أجل؟

سألتك، إن كنت تشتهي، لأنني لا أستطيع أن آكل ذلك وحدي.

ـ لا، لا أشتهي هذه الحمائم. ولا أدري إن كنت سأعاود أكل الحمام عموماً؟

في اليوم التالي كان عليّ أن أحزم للملازم الحمائم المتبقية في ورقة جريدة، وأن أدسها في حقيبة كرتونية. لقد أرادها لغذائه في الموقع خارجاً.

وهو في طريقه إلى هناك، وفي منطقة مضطربة قتله الفدائيون بالرصاص كما قبل.

الهوامش

. هذه القصة مأخوذة من مجموعة الكاتب الألماني هانس بيندر المعنونة «عودة الذئاب» والصادرة في عام ١٩٧٢م عن دار نشر كيب بكلام المجموعة تشتمل على ثماني قصص.
وبيندر كاتب معاصر ولد في مول هاوزن في عام ١٩١٩م، وقد كتب الشعر والقصة والرواية. وتوقف عن دراسة الفن والتاريخ والأدب بسبب الحرب، وقضى فترة في الأسر في الاتحاد السوفييتي.
ونشر مجموعته القصصية الأولى في عام ١٩٥٦م بعنوان «الذئاب والحمام»، ومن أهم رواياته «شيء كالحب» ونشرها في عام ١٩٥٤م، و«ثمن الحرية» وصدرت في عام ١٩٥٩م.

ثمار المدينة

عبدالله محمد حسين
الرياض - السعودية

تصرمت ساعات الصباح المحتملة، التي تسمح للأكف الصغيرة بالتقاط ما يصلح من قطع الحديد، فهذه الأرض التي بهرت قلوبهم سمعتُها لم تَجُدْ عليهم بأكثر من هذا. هياكل سيارات مهشمة، علب فارغة، قضبان حديد صدئة. وغيرها من ثمار المدينة الفاسدة، وسماء تتلاقى فيها أعمدة الدخان لتكسو وجهها شحوباً وشمس تنقض بعنفوان على المحرقة لتحيلها سعيراً تتلظى منه كائناتها. عندها ينطلق نداء الوالد مشفقاً داعياً طفلتيه وهو متوجه إلى الكوخ يترنح تحت حمل ما جمعوا:

ـ هيا يا بنات لقد استوت الشمس.

لا تكترث الطفلتان؛ لا برقة نداء الوالد؛ ولا بقسوة الشمس الزاحفة بتثاقل نحو كبد السماء بحركة أشد بطئاً وكأنها تريد تأكيد هيبتها من خلال ما تودعه في قطع الحديد من اتقاد يحيلها جمراً لا تقوى على لسه أكفهما الصغيرة بأصابعها المثخنة بالجروح، فترجئان جمعه إلى العصر أو صباح الغد، وتمضيان قفزاً من تلة إلى أخرى، بنشاط لم ينل منه لا حر الصيف، ولا البحث الدؤوب بين تلال القمامة الناهضة حولهما تنز منها روائح نتنة. تحملهما بخفة ورشاقة كالأجنحة أقدام حافية صغيرة، مدربة لا تخطئ مواطئها. بمهارة تحاذر حد علبة متآكلة، أو زجاجة مشظاة.. تخترقان سدف دخان شاحب تتصاعد نحو السماء، وتتكاتف لتخفي برج محطة التلفزيون الناهض غرب المدينة، لا تتوقفان إلا عندما تبلغان الشاحنة الخضراء التي ربما جلبت معها غنماً.

تنظران إليها وهي تتراجع إلى الخلف متباطئة كي تفرغ قمامتها الطازجة من نفايات المدينة، تظلان ترقبان السيارة مستبشرتين عن قرب، وهي تستفرغ حمولتها فضلة موائد باذخة، علب أطعمة لم يمهلها أمد التاريخ أن تصير زاداً للنهم الإنساني، تتناثر حولها موجات راسمة ملامح وجه بشع لمدينة عصرية. يُقبل صالح فتشرق عيونهما بابتسامة امتنان لما يجلبه معه من رطب، كلما تجشم دخول المحرقة ليأخذ مجلات مصادرة أو كاسدة اكتفى الموزعون بإعادة أغلفتها على ناشريها. ينتقي منها مجموعة، ويمضي إلى مزرعتهم الملاصقة للمحرقة ليتصفحها مع أخيه ساعة الظهيرة. مجلات تطفح أغلفتها بمشاهد دامية من أحداث أيلول الأسود أكثر بشاعة من وجه هذه المحرقة. تلوحان له مبتسمتين دون أن تهمسا بكلمة واحدة بسبب الخجل الطفولي، فهما تبدوان توأمتين رغم فارق العمر بينهما فسعدى ابنة الاثني عشر ربيعاً تكبر أختها بسنتين على الأقل. مرحتان دائماً عيونهما وشفاههما لا تغادرها الابتسامة.

يمر صالح بكوخهم الواقع في الطرف الجنوبي من المحرقة بقرب سياج المزرعة، هيكل سيارة شائخ من جنرال موترز استكمله والدهما بصفائح وأخشاب، ثم بطن جدرانه بقطع الكرتون، وزينته طفلتاه بصور فنانات ومناظر طبيعية أخذت من المجلات التالفة. أشرع باب الكوخ ونافذته على خضرة المزرعة اليتيمة، التي تطرز شحوب هذا الفضاء القاحل بخضرة تذكي



في ذاكرتهم خضرة جنوبهم فتشتجر في القلب، كلما ربت تلال قمامة المدينة المتضخمة. تلك الخضرة النقية التي نأوا عنها بعيداً عندما شطت بهم الأحلام ذات يوم فنزحوا من الجنوب الأخضر إلى مدينة الدمام مع من نزحوا تحدوهم آمال باسمات في عيش رغيد. ظن أبو محمد أن المدينة النفطية ثمرة ناضجة ستسقط في كفه بمجرد أن يهز جذعها فيلتقطها؛ ويتقاسمها مع أسرته في عيشة راضية؛ لكن المدينة لم تفتح لهم صدرها الرحب الذي تعودت أن تفتحه للقادمين، والجنوب البسيط لم يدس في كف أبي محمد مفتاح خزائن المدن، ولم يهمس في أذنه بكلمة سر تشرع ما أوصد أمامه من أبواب. بفظاظة طردتهم عن وجهها، فلصقوا بظهرها. في الجهة الغربية شيدوا لهم مأوى من صفيح وأخشاب، لكن هذا المأوى لم يعرف الاستقرار، ظل ينزح كلما تمطى نحوه إسمنت المدينة بعدوانيته الشرسة التي اعتدت على البر والبحر على خلاف كوخ المحرقة المنسي عند حافتها. في زاوية منه ينفض أبو محمد تعب الجسد كل ظهيرة بعد ما يتناول ما يسد الرمق وبعدما تنجح نصائحه وتوسلاته التي يلح فيها على حمل طفلتيه للجوء إلى الكوخ على الرغم من قناعته أن الشمس لن تنال منهما أكثر مما نالت، يقدم لهما زاد الغداء، ثم يظل يتأمل وجنتيهما المتوهجتين حمرة وهما تمضغان ببطء ما أعدته الأم. يبتسم لهما، ثم يدخل بيسر قيلولته الهادئة غير عابئ بكركراتهما، إذ لا يعكر صفوهما إلا شخيره المتقطع الذي يتطاول عليه أحياناً فيوقظه من نومه لتفيض عيون طفلتيه بضحكات مكتومة، فيعاود مد نصف جسده العلوي داخل الكوخ، ويطوي رجليه الناحلتين بجوار نعليه المتنافرتين في الحجم واللون خارج الكوخ، ليفسح لطفلتيه وعرائسهما القدر الأكبر من الظل، حيث تنفقان الساعات المتقدات تديران عالم الدمى التي عثرتا عليها بين أنقاض القمامة الناقصة الأطراف المشوهة الملامح لتصنعا منها ذلك العالم الذي رسمت القرية بعض حدوده: أمهات يدرن شؤون البيت، أطفال محظوظون يتلقون العلم في المدارس، وآخرون أقل حظاً يمضون مع الآباء إلى الحقل أو المرعى، وتكمل عبارة الوالد خريطة ذلك العالم تلك العبارة التي يكثر من ترددها كلما نال التعب والحر منهما، أو كلما سمع والدتهما تحاول انتزاعهما من النوم باكراً كل صباح:

ـ لولا العازة لما خرجتما من البيت إلا إلى المدرسة.

مهنة الصحافة وشروط الصحفي في نظر الشيخ الطيب العقبي

كمال عجالي
باتنة - الجزائر

ترجع علاقة الطيب العقبي بالصحافة إلى عهد مبكر من حياته في أثناء وجوده في الحجاز خلال السنوات الأولى من هذا القرن، حيث يقول في ترجمته: «وما كدت أدرك معنى الحياة وأتناول الكتابة في الصحف السيارة(١) وانظم الشعر وأتمكن من فهم فن الأدب الذي كان سمير طبعي، وضمير جمعي، حتى فاجأتنا حوادث الدهر، ونوائب الحدثان. وجلها كان بسبب الحرب العالمية التي شتتت الشمل وفرقت الجمع»(٢).

ثم يذكر العقبي أن بعض كتاباته في الصحف سببت له مشكلات، وعرضته إلى محن، إذ قال: تناولت الكتابة في الصحف الشرقية قبل الحرب العمومية أمداً غير طويل، فعدّني بعض رجال تركيا الفتاة(٣) من جملة السياسيين، وأخرجوني في جملة أنصار النهضة العربية مبعداً من المدينة المنورة على إثر قيام الشريف حسين بن علي(٤) في وجوههم بعد الحرب إلى المنفى في أرضهم (الروم إيلي) أولاً (فالأناضول) ثانياً(٥).

وبعد العودة من النفي في بلاد الترك عقب الحرب العالمية الأولى، قصد مكة حيث بلاط الشريف حسين. وقال عن ذلك: «وما إن وصلت أنا إلى مكة المكرمة حتى لقينا من لدن جلالة الملك حسين كل ما هو أهله من الإكرام والإجلال، وهناك عينت مديراً لجريدة (القبلة)(٦)، و(المطبعة الأميرية) (٧) يجري علي في سير إنعامه وإكرامه ما لا أستطيع مجازاته عنه بطويل الشكر وعريضه»(٨).

وحين عاد إلى الجزائر في مارس/آذار عام ١٩٢٠م، مكث سنوات لا يتعاطى الكتابة بسبب مشاغل ومشكلات شخصية، وإن كان نشاطه الإصلاحي قد بدأ منذ عاد من سفره. وفي جريدة المنتقد بدأ يظهر اسمه بكتاباته معاضداً ومسانداً لصاحبها الشيخ عبدالحميد بن باديس.

كما عاضد صاحب جريدة صدى الصحراء، السيد أحمد بن العابد العقبي(٩) وقدّم له نصائحه وإرشاداته، وقرّظ جريدته بمقال: «فكرة حرة أو شبه تقريظ لجريدة صدى الصحراء»(١٠). ثم بعدها بدأ يعرف اسمه عند القراء في «المنتقد»، و«الشهاب»، و«البرق»، وجريدته «الإصلاح» التي أسسها ببسكرة في ٨ سبتمبر/أيلول عام ١٩٢٧م(١١)، ولاقى في سبيلها العنت(١٢).

أما حين انتقل إلى الجزائر العاصمة ملتحقًا بنادي الترقي في يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٠م، وبعد أن تأسست جمعية العلماء، وأنشأت صحيفتها «السنة»، ترأس العقبي ومحمد سعيد الزاهري إدارة تحريرها(١٣)، ثم «الشريعة»(١٤)، و«السراط»(١٥)، وبعدها «البصائر» التي توقف عن إدارتها ورئاسة تحريرها منذ العدد ٨٣(١٦)، وقبيل الحرب العالمية الثانية، أعاد العقبي بعث صحيفته «الإصلاح» ثانية في الجزائر بتاريخ ٢٨ديسمبر/ كانون الأول عام١٩٣٩م، بعد أن كانت قد توقفت عقب صدور ١٤ عددًا منها.



الشيخ العقبي وإلى يمينه الشيخ عبد الحميد بن باديس

وقد واصل العقبي تحرير جريدة الإصلاح ورعايتها في أثناء فترة الحرب العالمية الثانية إلى أن توقفت تمامًا في ٣ مارس/ آذار ١٩٤٨م بعد أن صدر منها ٧٣ عددًا(١٧).

دور الصحافة في المجتمع

يرى العقبي أن للصحافة دورًا مهمًا في بناء الأفراد والمجتمعات، لما تقوم به من توجيه نحو هدف مرسوم، لذلك يقول: «الصحافة مهنة شريفة، وصناعة تعالى قدرها، وعزّ شأنها عن أن يقوم بها سوقة الناس أو عوام الأمم وبسطاء الشعوب... بل لا يقوم بها إلا رجال هم علماء أكفاء، لا أقول علماء فحسب لما هو مفهوم عند أهل المعرفة وأرباب هذه الصناعة من لفظ صحافي»(١٨).

ولأهمية هذه الوسيلة وخطورتها في حياة الأمم، يقول: «الصحافة لها منافع جمة وفوائد كبرى، ولكن عند الأمم التي تحسن استعمالها، وتعرف كيف تسير بها. ورجال الصحافة في كل الأمم هم قادة الأفكار اليوم، وهم في الحقيقة الذين بيدهم - بعد إرادة الله - حركات الشعوب وسكناتها، وهم الذين يثيرون في العواطف كامنها، ويعلنون للملأ ما تضمره نفوسهم، وتنطوي عليه ضمائرهم، فلا تلبث الأمة أن تنقاد لهم، وتأخذ بأقوالهم، وتستجيب لندائهم، فكم حرب أثاروا، وكم نار حرب أطفؤوا، وكم أصلحوا وكم أفسدوا، وكم أرضوا، وكم أغضبوا، وكم فتقوا رتوقًا أو رتقوا فتوقًا، وكم، وكم، وكم!!»(١٩).

ورجال الصحافة في حقيقة الأمر ليسوا أناسًا عاديين مثل بقية العامة، وإنما لهم مكانتهم المرموقة، ودرجتهم العالية في السلم الاجتماعي. «فهم إذًا رجال الإدارة العالية، والسياسية العمومية، ولن يستطيع أن يكون كذلك كل أحد... وهيهات هيهات أن يتمنى للسوقة ما يتسنى للملك. ولو كان أمر السياسة والإدارة مما يقوى عليه كل فرد لما تمّ للناس من هذا القبيل شيء، ولما كان في هذا العالم رؤساء وملوك وأمراء هم المرجع في المهمات، والملجأ عند المدلهمّات. ولما كان لعلم العالم، وفضل الفاضل من كبير فائدة، حيث يقوم غيره بعمله، ويتأتى له أن يأتي بما يمكن أن يجيء هو به»(٢٠).

وينعى العقبي على المتطفلين على هذه المهنة؛ لأنها مهنة لها حرمتها وقدسيتها ينبغي ألا يطأ حرمها إلا من هو أهل لذلك. ومن ثم غدا يقول: «فقد خلق الله للصحافة وإدارتها رجالاً هم وحدهم أهلها، والقادرون عليها، ومقامهم في الهيئة الاجتماعية معلوم»(٢١). كل ذلك لأن التخصص في الحياة ومناحيها المختلفة يقتضي أن

يتفرغ لكل مهنة رجالها. يقول: «وخلق الله للأحكام وإدارة الشؤون السياسية أناساً خصهم للملك، وجعلهم رؤساء الأمم وقادتها، وخلق رجالا للقضاء، ورجالاً للتدريس ونشر العلم، ورجالاً للحروب والحركات العسكرية، ورجالاً للأكل والشرب والنوم على وطيء الفراش، وممهد الحشايا، وآخرين للخلوة وملازمة الشيخ في الزوايا»(٢٢).

وإذا ما تجرأ أحد ودخل معمعة هذه المهنة من دون سلاح فإن خطره وضرره على المجتمع كبيران، على الأمة أن تتصدى له درءاً للفساد الذي يسببه لها. قال: «إن رجال الصحافة هم خلاصة الرجال، والصحافة هي المظهر لأفكار أولئك الأبطال - ومرتبة الصحافة مرتبة

شن العقبي حرباً على الأدعياء من رجال الصحافة الذين اتخذوها وسيلة للغنى، وطريقة للشهرة، أو أداة للتملق والتقرب من أصحاب الثروات، لا لخدمة المجتمعات ومشكلات الشعوب

جليلة تقصر دونها أعناق الجهال، فمن قام بواجبها وهو لها أهل فمرحى له مرحى. وهنيئاً مريئاً غير داء مخامر(٢٣) - ومن ترامى عليها وهو ليس بأهل فقد عرض بنفسه وشرف أمته إلى الإهانة، ظلم نفسه - والله - من أقدم عليها وهو ليس بأهل، وظلمت الأمة نفسها إذا هي لم تقابل صنيعه بالازدراء والهجران»(٢٤).

ويحذر صاحبنا المغامرين بالكتابة في الصحف وهم يعلمون أنهم قاصرون؛ لأن كتاباتهم تصل إلى الآخرين فيحكم عليها أحكاماً تمس شرف شعبهم وأقدارهم. قال: «فليترك الأغبياء هذه المهنة لأهلها، وليتباعدوا عن ميدان الكمال وصناعة حملة الأقلام لمن هم بها جديرون، وليرتدع المتفيهقون الثرثارون عن تدنيس شرف الصحافة والعلم، والحطّ من كرامة الأمة الجزائرية من سائر أمم العالم، وليعلموا أن الصحافة تجوب البلاد طولاً وعرضاً، وأن مقالاتهم ستعرض على رجال وكبراء العالم، وأنهم بسخافاتهم وما يسطرونه من تُرُهاتهم يهينون هذه الأمة المسكينة، ويسيئون سمعتها في الخارج فيضرونها من حيث زعموا نفعها»(٢٥).

ويحذر العقبي رجال المهنة من المندسين الذين لا يقبلون تعلم المهنة من أصولها، ولا يأخذونها من أفواه أساتذتها المبرزين، بحجة أنهم يعرفون كل شيء، وأنهم ليسوا في حاجة إلى تعلم، ومن ثم يملؤون الصحف بالترهات التي لا فائدة منها للفرد ولا للجماعة، ويحبون أن يُحمدوا على تلك السخافات التي يعدونها صحافة، وهي ليست منها في قليل ولا في كثير. قال: «وقد رأينا البعض من هؤلاء السادة الذين يملؤون فضاء العالم ضجيجاً بتلك الترهات لا يروق لهم إلا إطراءاتهم بأكثر من اللازم، وتقديس آرائهم كيفما كانت. ومن حاول نقد كلامهم نقداً صحيحاً، أو أراد إرشادهم إلى نافع، قامت قيامتهم عليه وناصبوه العداء. فهل هؤلاء هم وحدهم الصحافيون في بلادنا، وصحائفهم وحدها هي الصحافة»(٢٦)، ومن ثم وجب على رجال المهنة الحقيقيين ألا يتركوا المجال للجهال يرتعون فيه، ويخبطون فيه خبط عشواء. «وأنتم يا رجال الصحافة أنصح لكم أن تطهّروا صحائفكم من جراثيم هذه الأمراض القاتلة، فإنها هي داعية السقوط، وكونوا على حذر من نشر ما لا فائدة في نشره. واسلكوا مسلك الانتقاد والانتقاء - رضي مَنْ رضي، وسخط مَنْ سخط - وتجافوا بصحافتكم عن خطة التهور والتهتر حتى يمكن لكم أن تسيروا في هذا الطريق آمنين»(٢٧).

ويشن حرباً على الأدعياء من رجال الصحافة الذين اتخذوها وسيلة للغنى، وطريقة للشهرة، أو أداة للتملق والتقرب من أصحاب الثروات، لا لخدمة المجتمعات ومشكلات الشعوب، وقضايا الشرائح والفئات. فقال: «إلى اليوم وفي عصر النور هذا لا تزال في العالم جرائد يتخذها أربابها أداة عطف لقلوب الأغنياء، ويجعلونا مرآة تزلُّف لأرباب المناصب العالية، وأصحاب الجاه والنفوذ، فتراهم يمدحون ويُطْرون ولعلهم يتجاوزون في أمداحهم وصف المخلوق.

وربما مدحوا من لا يستحق غير الذم، وذمّوا أهل الكمال والفضل، ومن لا يستحقون غير المدح في نظر العقلاء. فلا ذنب جنوه سوى أن قصّر بهم الدهر عن مجاراة الأغنياء في ثرواتهم، وأناخ عليهم الفقر بكلكله الثقيل، فعاداهم سادتهم الأغنياء لهذا السبب؛ وكانت هذه الجرائد تابعة لهم، ومسيّرة بإعصار أهوائهم، كيفما سار وأنى سار بهم.

وأصحاب هذه الجرائد هم الذين اتخذوها مهنة تَعَيُّش، وباب ارتزاق واسع لا يهمهم من موضوعها غير ملء جيوبهم بحطام الدنيا الذي يتكسبون بسببها، والعمل للشهرة ودوام الظهور... فبُعدًا لهؤلاء بُعدًا، وسحقًا لصحفهم سحقًا»(٢٨).

الصحافة هي سلاح الضعيف ضد القوي، ونصرة من لا ناصر له، وهي المحامي القدير عن كل قضية حق وعدل، والحَكَم الذي يقدسه ذوو النفوس الشريفة

كما يدعو العقبي إلى الاهتمام بالشكل بعد أن دعا إلى الاهتمام بالمضمون، فقال: «وليس معنى رقي الصحافة في نظرنا هو صقالة ورقها، واتساع مساحتها في شكلها الطولي والعرضي. كلا بل معنى رقيها عندنا يظهر في مبدئها، والغاية التي تعمل لها بشرط أن تكون تعبر عن شعورها في ذلك كله بعبارات صحيحة، وأساليب لا تخرج عن قانون العربية الصحيح، ذلك الرقي الذي نعنيه، وله وحده مفعوله في نفوسنا...»(٢٩).

فالرجل يدعو إلى أن تكون الصحافة ذات مبدأ واضح صريح تعمل على تحقيقه بثبات وثقة في أسلوب عربي واضح مبين «وتلك هي الصحافة التي إذا سطرت لها برنامجًا تبقى محافظة عليه.. ومتى قالت قولا وقفت عنده ولا تتجاوزه إلى غيره فترد على نفسها بنفسها، وتمحو بيسراها ما خطّته يمناها»(٣٠).

وظيفة الصحافة

يميل العقبي إلى صحافة الرأي التي تعمل على تجسيد مبدأ تحقيق فكرة بعيدًا عن تهريج الأخبار المثيرة، وتتبع الحديث عن الحوادث التي لا تزيد الأمة إلا لهوًا وهدرًا للوقت؛ لأن مهمة الجريدة البناء، وتكوين شخصية الأمة بكل جوانبها المختلفة، لذلك نجده يحدد في دقة قيمة الصحافة ومكانتها عند الأمم حين يقول: «فإن الجرائد في الأعصر الأخيرة هي مبدأ نهضة الشعوب، والعامل القوي في رقيّها، والحبل المتين في اتصال أفرادها، والسبب الأولي في تقدمها. والصحافة هي المدرّس السيّار والواعظ البليغ، وهي الخطيب المصقع والنذير العريان لذوي الكسل والبطالة، والبصير الوحيد لرائد الانتجاع، وطالب الانتفاع. وهي سلاح الضعيف ضد القوي، ونصرة من لا ناصر له. والصحافة إذا قامت بواجبها هي التي تأخذ الحق وتعطيه، وترمي الغرض فلا تخطيه. وهي المحامي القدير عن كل قضية حق وعدل، والحَكَم الذي يقدسه ذوو النفوس الشريفة وتقاد إليه. ولا تقدر قدرها إلا الأمم التي قسم الله لها حظًا وافرًا في هذه الحياة، وضربت بسهم مع الساعين لرقيهم في أعلى الدرجات، يعترف بمكانها ومكانتها أرباب الضمائر الحية، وأهل الأذواق السليمة، والمدارك الصحيحة، ولن يضيرها إعراض بعض الأغنياء، وقدح أعشار أنصاف الفقهاء ـ ...»(٣١).

ولتعدد وظائف الصحافة، وخطورة التّبعة التي هي على رجالها، نبه الرجل على بعض تلك المخاطر التي ربما ستحدث بسبب الانحراف عن جادة الصواب بما تمليه الأهواء الشخصية، والأغراض الفردية، فقال: «نعم، للصحافة واجب تتوخاه وتبتغيه، ومحور حق لها أن لا تدور إلا عليه، فواجبها أن تسير بصدق وإخلاص، تتجافى عن مواقع التهم، وتنهج منهج أهل الشرف والهمم، وشرطها الأساسي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجانبة الأطماع، ومحاربة أهل الأهواء والابتداع، وأن يكون همها السير في طريق الإصلاح لا العمل على كسب الدراهم واجتلاب الفلس بأي طريقة كانت، والتكالب على ذلك، ولو أساء إلى سمعتها، ودنّس

بين الناس عرْض القائم بها. فإن هنالك جرائد في كل لغة، وعند كل أمة يصح أن نعبر عنها بأنها كشكول شحاذ يجمع بها اللقمة واللقمتين من كل أحد، يقف متسولاً بها على باب كل أحد، فنراها بهذه الغاية تسارع إلى نشر أسماء كل من ولد أو مات، أو نكح أو توظف، أو حلّ أو ارتحل، أو، أو، أو، كيف ما كان، وفي أي مكان وجد»(٣٢).

فالعقبي يرى للصحافة وظائف عدة، وواجبات جمة، ومسؤولية كبيرة لا يمكن الاستهانة بها أو التلاعب فيها؛ لأنها تتعلق بمصير الأمة ومستقبلها، والصحافي هو المسؤول الأول في هذه المعادلة. ومن ثم غدا العقبي يعدد أوصاف الصحفي الحق، وشروط نجاحه.

شروط الصحفي

لقد ذهب العقبي في تحديد شروط الصحفي، وذكر صفاته إلى أبعاد عميقة. فقال: «... إنه عالم سياسي، بصير بالأمور، له معرفة تامة، ووقوف على ماضي التاريخ وحاضره، ذو نظر سديد وفكر ثاقب، يريه ذكاؤه وما اتصف به من الحذق وتوقد الفطنة - المستقبل فيبصره من وراء حجاب، حتى لا تكاد تخطئ له فراسة إذا نظر، ولا يضيع له حدس وتخمين إذا تكهن أو كتب الألمعي الذي يظن بك الظن(٣٣) كأن قد رأى وقد سمعا»(٣٤).

بالإضافة إلى تلك الشروط التي تجعل من رجل الصحافة متميزاً من غيره لحساسية المهنة التي ينتسب إليها، قال أيضاً: «والصحافي هو الذي يبني نتائجه على مقدمات العلم الصحيح، ويخوض على فلك فكره المشحون عباب السياسة. فإذا كتب فعن رؤية وعلم، وإذا تكلم تكلم بحقيقة وفهم، يأخذ الحيطة لكل نازل، ويعد العدة لكل طارئ ونازل. جرّب وجرّب، عرك الأمور، وحلب الدهر شطريه، حنّكته التجارب وثقّفته العبر، عرف الأيام، وعرفته الليالي، فهو لكبير الأمور لا يهتز، وبصغيرها لا يبالي... وبقدر ما تتسع دائرة هذه القيود كلها فيه تتسع مداركه، وتزداد درجته رفعةً وعلواً، فينال من الكمال قصباً، ويزداد في هذه الصناعة رقياً، ويصبح بهذا الاعتبار رجل صحافة ورجل عمل، يمكنه أن ينفع نفسه، وينفع أمته»(٣٥).

مما سبق يتضح لنا أن الرجل قد حدد بثقة وعمق «ما يجب أن يكون عليه الصحفي الناجح، وما يجب أن تبنى عليه الجريدة الوطنية، ويرسم للصحفي حدوده النفسية والخلقية والعقلية من علم بالسياسة، وتبصر بالأمور، ووقوف على التاريخ، وسداد في الرأي، وقوة في الذكاء، وبُعد في الرؤية»(٣٦).

إنها شروط وخصائص لا يمكن في تصوري أن يدركها ويحددها إلا من أوتي علماً ودراية بهذه المهنة، وربما لا تتوافر إلا عند من هو متخصص في مجال الصحافة والإعلام.

ولم تكن تلك الشروط والأوصاف في الصحفي الحق فحسب، بل يقول أيضاً: «ويلزمه - زيادة على ذلك -

> **الصحافي إذا كتب فعن رؤية وعلم، وإذا تكلم تكلم بحقيقة وفهم، يأخذ الحيطة لكل نازل، ويعد العدة لكل طارئ ونازل، فهو لكبير الأمور لا يهتز، وبصغيرها لا يبالي**

اتصافه بالجسارة والجرأة الأدبية، ولا بد له من المخاطرة والإقدام على تضحيات كثيرة. ومع هذا كله إذا لم يكن رائده الإخلاص في العمل، وسلامة الطوية، وصحة الغرض هي التي تحدو به إلى هذا الميدان فلا فائدة من وجوده...»(٣٧).

ويسترفد العقبي كل من أحس في نفسه القدرة على خوض معركة الصحافة فلا يبخل على الأمة بقدراته؛ لأنه واجب عليه، وخصوصاً إذا كانت الأمة في أمس الحاجة إلى خدماته. قال: «فمن آنس من نفسه بعد توافر مثل هذه الشروط فيه المقدرة على التحرير، ومعرفة أساليب الكتابة، وعلم من أين تطرق أبواب البلاغة، ورأى نفسه بطلاً في حومة الإصداع بالحق وعدم المواربة، فليكشف لنا عن قرنه، وليبرز إلى عالم الصحافة، ويدخل في معترك الكتابة والسياسة، فإن

الأمة في شديد الحاجة إليه، وليقم بعمل الصحافة على هذا الشرط...»(٣٨).

كما يحذر من يتعاطى هذه المهنة من الانزلاق والاغترار بالألقاب البراقة التي توزع مجاناً من المتملقين. تلك: «الألقاب التي يحبها كثير من كتاب الوقت، ولا تبخل بعض الجرائد بإعطائها لمستحق وغير مستحق من هؤلاء الكتاب ورجال اليوم، تروق هذه الألقاب بضخامتها لهؤلاء السادة، وإن لم يكونوا أهلا لها، ولا عُلِّموا على أن يكونوا من الذين يصح اتصافهم بها. والحال أن أكثرهم متطفل على هذه المهنة، يحاول أن يحشر نفسه في زمرة الكتاب والمحررين، وهم عنه لاهون. وكم جاهل مغرور سولت له نفسه التهافت على هذه الصناعة، فالتقط فُتات موائد أهلها الكرام، وساعده على نشر ثرثرة من القول وهراء من كلام، بعض الصحافة الساقطة، فحسب أنه يحسن صنعا ويبرم أمرا...»(٣٩).

وخلاصة القول التي يمكن أن نستنتجها من تصور العقبي لهذه المهنة أنه تصور عميق وواضح، كشف عن رؤية جادة وفكر متين، سواء لدور الصحافة أو وظيفتها، يكاد يكون التصور نفسه عند المعاصرين(٤٠). وكذلك الشروط والصفات التي يجب أن تتوافر في رجل المهنة(٤١). التي أصبحت تعرف لدورها وأهميتها وخطورتها في تكوين الرأي العام تلك، أبان عن رجل مهنة خبير بخباياها، عارف بمزاياها، عبر عن تجربة وخبرة وممارسة دامت سنين عديدة(٤٢). فرحمة الله عليه.

الهوامش والمراجع

١. لم نعثر حتى الآن، ولم نعرف ما هي الصحف التي كان قد نشر فيها، ولا ما هي الموضوعات التي كان يكتب فيها.

٢. محمد الهادي السنوسي، شعر الجزائر في العصر الحاضر، ج١، المطبعة التونسية، ط١، ١٩٢٦م، ص١٢٧.

٣. تركيا الفتاة، جمعية كانت تضم بعض الضباط في الجيش التركي قامت هي وجمعية الاتحاد والترقي بانقلاب على الخلافة العثمانية عام ١٩٠٨م.

٤. الحسين بن علي (١٨٥٦ - ١٩٣١م)، شريف مكة، ملك الحجاز (١٩١٦ - ١٩٢٤م) خلفه ابن السعود، انظر المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت لبنان، ط٢ (دت)، ص١٩١.

٥. محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج١، ص١٢٨.

٦. جريدة القبلة، صدرت القبلة في ١٥أغسطس/اب ١٩١٦م، تولى رئاسة تحريرها الأديب السوري محب الدين الخطيب، ثم الطيب العقبي كما ذكر في ترجمته، لكننا لم نعثر له فيها على أثر واحد.

٧. المطبعة الأميرية، تابعة لدولة الشريف حسين وهي بمنزلة المطبعة الرسمية للدولة.

٨. محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج١، ص١٢٨.

٩. انظر ترجمته في ، عادل نويهض منجد أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٠م، ص٢٣٨.

١٠. انظر الطيب العقبي، فكرة حرة أو شبه تقريظ لجريدة صدى الصحراء، جريدة صدى الصحراء، ع٠٣، تاريخ ٧ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٥م.

١١. انظر محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧م إلى ١٩٣٩م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م، ص٨٥ وما بعدها.

(١٢ - ١٧) - المرجع السابق، الصفحات ٩١، ١٣٠، ١٥٠، ١٨١، ١٩٠، ٩١.

١٨. الطيب العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، البرق، ع٠٢، تاريخ ١٤ مارس/أذار ١٩٢٧م.

(١٩ - ٢٢)، الطيب العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، البرق، ع٠٣، تاريخ ٢١ مارس/أذار ١٩٢٧م.

٢٣. شطر بيت للشاعر كثير عزة: هنيئاً مريئاً غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

من قصيدته التائية التي مطلعها: خليلي هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم احللا حيث حلت

(٢٤ - ٢٨) - الصحافة ومن هم رجالها (مرجع سابق).

٢٩-٣٠. الطيب العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، البرق، ع٠٥، تاريخ ٤ إبريل/نيسان١٩٢٧م.

٣١. ٣٢ - الطيب العقبي، جريدة المنتقد في نظر الكتاب، المنتقد، ع٥، تاريخ ٣٠/٧/١٩٢٥م.

٣٣. هو بيت لأوس بن حجر: الألمعي الذي يظنُّ بك الظـ ... ـنَّ كأن قد رأى وقد سمعا. انظر الميداني «مجمع الأمثال» الجزء١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٩٨٥م، ص٤٧.

(٣٤ - ٣٥) - الطيب العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، ع٢، تاريخ ١٤ مارس/أذار ١٩٢٧م.

٣٦. د. محمد ناصر، المقالة الصحفية نشأتها وتطورها وأعلامها ١٩٠٣ - ١٩٣١م، ج٢ (ش و ن ت) الجزائر)، ١٩٧٨م، ص٦٦.

(٣٧ - ٣٩) - الطيب العقبي، الصحافة ومن هم رجالها، البرق٢، تاريخ ١٤ مارس/أذار ١٩٢٧م.

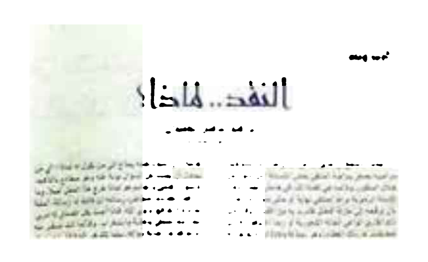
٤٠. د. فريد محمود عزت، دراسات في فن التحرير الصحفي في ضوء معالم قرآنية، دار الشروق للنشر والتوزيع، جدة المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٤٠٩.

٤١. المرجع السابق، ص٤٣٥.

٤٢. أحمد الغوالمي، من أعلام الجزائر، الطيب العقبي كاتبا وشاعراً وصحفيا، جريدة النصر، ع٦٣٦، س٢، الثلاثاء ١٧يوليو/تموز ١٩٧٣م.



تعقيب على مقالة: «النقد.. لماذا؟»



طرح الأستاذ إبراهيم الناصر الحميدان في العدد ٢٨١ من مجلة الفيصل موضوعاً تحت عنوان «النقد... لماذا؟؟».

والنقد الذي ننشده ليس نقداً حول عمل إبداعي في مجال الشعر أو القصة، لكنه نقد يفيد حركة المجتمع كلها برؤية الناقد المتخصص التي تحافظ على سرعة الحركة وتصويب الأخطاء.. فكم من تساؤلات تطرح حول:

ـ تنمية الفهم الصحيح عن الإسلام عند غير المسلمين سعياً إلى خلق تناغم في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

ـ تنمية المنهج الدراسي والتعليمي في بلدان عالمنا العربي والإسلامي برؤية شاملة.

ـ كيفية مواجهة التحدي الحقيقي الماثل أمام بلدان الأمة في ظل واقع اليوم وأبعاده الاقتصادية.

ـ كيفية تقوية الوعي الإسلامي بين طلاب وطالبات دور العلم عربياً وإسلامياً، وإيضاح الأبدال الإسلامية لمشكلات المجتمع العربي والإسلامي المعاصر.

ـ كيفية دعم قضايا الأخوّة الإسلامية والتعاون والعدالة الاجتماعية في بلدان الأمة.

ـ مواجهة السلبيات التي تحيط بالفكر العربي والتي أوجدتها المشكلات الاجتماعية الموروثة والمتراكمة عبر الأجيال، ومشكلة انتشار البدع والضلالات بين فئات واسعة.

ـ كيفية تحقيق البعد الثقافي العربي والإسلامي في العمل الإعلامي. والنقد يفرز دراسات وأبحاثاً تعزز التقارب الإعلامي بين أبناء الأمة. وخاصة بتشجيع الإنتاج الإعلامي الذي يهم حركة الجماهير، وتسخير الإمكانات التقنية والأقمار الاصطناعية في بث برامج ثقافية تدعم توحد الأمة وتنمي الوعي لدى أجيالها.

ـ كيفية الارتفاع بذائقة النقد الإبداعي العربي لتسهيل توصيل المادة الإبداعية إلى أكبر شريحة من أبناء المجتمع العربي.

وبين هذا وذاك يمكن القول: إن غياب النقد الموضوعي من أهم أسباب انتكاسة بلدان الأمة في كثير من المجالات، مما جعلها دائماً في تراجع. فالنقد الجاد يبني ولا يهدم؛ ولأنه نقد يمثل عملية فرز دقيق وموضوعي وجريء وبحيدة كاملة لتخليص تاريخ العرب من الالتباس الفكري.

وبإمكان النقد الموضوعي في كل بلد عربي أو إسلامي أن يقف موقفاً إيجابياً مع سرعة التنمية والبناء، وموقفاً شجاعاً مع روح العقل والمنطق والعقيدة بعيداً عن الخلط والمراوغة.

ومن مشكلات الأمة الإسلامية والعربية نقاط تستحق النقد الموضوعي منها:

ـ حينما تم إنشاء المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية عام ١٩٨٢م/١٤٠٢هـ بوصفها جهازاً تابعاً لمنظمة المؤتمر الإسلامي، كان الهدف من إنشائها تطبيق سياسة التعاون العلمي والتكنولوجي بين بلدان الأمة، وكان للمؤسسة برنامج من أجل تدريب الكفاءات الفنية في البلدان الإسلامية وتكوينها، وإسناد المنح الدراسية في العلوم والتكنولوجيا من أجل الخروج من حالة التبعية المفروضة على بلدان الأمة. وبعد عقدين من إنشاء المؤسسة حق لنا أن نتساءل: هل حققت المؤسسة التعاون المنشود بين بلدان الأمة؟ ونحن نرى تزايد الفارق بين البلدان الصناعية وبلدان الأمة، وغلبة الاستهلاك فيها على الإنتاج؟.

ـ تستقطب البلدان الصناعية الكفاءات العلمية والتكنولوجية من بلدان الأمة، وتلك قضية خطيرة أفرزت

تعميق تخلف الأمة، وتنامي الشعور بالانهزام والضعف.

وتزداد البلدان الصناعية تقدماً علمياً وتقنياً، على الرغم من ضعف الوازع الديني وفقدان الفهم الصحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة.

وتزداد نسبة الأمية بين أبناء الأمة وتتراكم المديونية على كثير من دولها، مع أنها تملك عوامل التوحد مثل: اللغة، والتاريخ، والحضارة، والإمكانات البشرية والطبيعية والمادية. فكيف تفتقد الأمة خصائص البحث العلمي الذي هو نشاط متواصل في محاولة لفهم سنن الكون؟

وللتقدم - في ظني - شروط منها:

الإدارة، والبعد الاجتماعي، واكتشاف القدرات، لأن هذا التقدم يرتبط بالمعارف المكتسبة وبالعلوم التطبيقية.

ـ كيفية الحد من الاستهلاك وتفعيل دور الإنتاج، والقضاء على مشكلة البطالة في بلدان الأمة. والنقد الإعلامي لتلك المحاور يحقق انطلاقة مرجوة لمناخ أفضل.

ـ كيفية الحد من التبذل والإسفاف والترف والتملق وكلها سلبيات انتشرت في العمل الفني العربي. وفي ظل الغزو الثقافي الوافد قذف هذا الفكر الأمة بمجموعة من المشكلات والقضايا، وهذا النقد أداة للتقدم الموضوعي؛ لأنه يتحكم في الفعل الثقافي والناتج الفكري ويكشف تلك الأفكار التي تقصد إلى إباحة الشهوات الجامحة في الإنسان دون حدود ولا قيود تحت شعارات براقة.

وإذا كان الإعلام العالمي قد شوّه صورة الإسلام والمسلمين، فإننا بحاجة إلى تقديم الدليل الحضاري على أن الإسلام دين الرحمة والحب للإنسان، ورسالة للعلم والتقدم الإنساني.

ومما سبق نقول إن النقد ضروري لتصحيح المسار، والهدف منه تحقيق التطور والتحرك من حسن إلى أحسن، وهو أداة فاعلة لاكتشاف المواهب وقدرات المبدعين في شتى مجالات الحياة.

يحيى السيد النجار
دمياط - مصر

سوء التوافق النفسي ومتعة الإبداع!



لقد اطلعت على مقال الأستاذ محمد أحمد كرم الله الحاج «مأزق الفنان بين سوء التوافق النفسي ومتعة الإبداع» في العدد ٢٨٣، وكان رائعاً مميّزاً يستحق عليه صاحبه جزيل الشكر ولجين الاحترام.

لكني أرى أن الأستاذ الحاج لم يفصّل كنه المرض وماهيته وما علاقته بالعمل الأدبي أو الإبداعي؟ وعندما عدت إلى مصادر موثوقة أحببت أن أورد بعض الأفكار على سبيل التعقيب لا البحث.

نعلم أن كثيراً من الفنانين والإبداعيين أصيبوا بهذا المرض، ومنهم من تحدّث عنه في أشعاره ومقالاته مثل وليم بليك، وبايرون، وألفرد تينيسون، وآن سكستون وكثيرون من المبدعين الذين أصيبوا بذلك (الجنون الرهيف).

ويبدو أن معظمهم عانوا واحداً من اضطرابين مزاجيين رئيسين هما مرض الاكتئاب الهوسي - Manic Depressive - Illness ومرض الاكتئاب الشديد - Major depression وهما قد يؤديان إلى الموت مع إمكان الشفاء بالعلاج.

فالاكتئاب الشديد يسبب نوبات سوداوية حادة تعرف بـ

Melancholia، بينما الاكتئاب الهوسي «وهو مرض جيني (وراثي) كما نعلم» ينقل المصابين به مراراً من حالات اكتئابية إلى حالات تتسم بنشاط مفرط وشعور بالانشراح، أو حالات يغلب عليها سرعة الاهتياج، وهناك حالات معتدلة في الاكتئاب الهوسي يطلق عليها اسم المزاجية الدورية Cyclothymia، إذ تنتاب المريض تقلبات واضحة في تفكيره وسلوكه ونومه ومزاجه، من دون أن تؤدي به إلى العجز التام.

وتقول أستاذة الطب النفسي بجامعة جونز هويكنز جاميسون أنّ ذينك المرضين يمكنهما أحياناً أن يعززا الإبداع لدى بعض الناس، ولقد أيدت الدراسات الموثقة حقيقة أن الأفراد المبدعين جداً يكابدون اضطرابات مزاجية رئيسة بمعدلات تفوق كثيراً ما يعانيه باقي الناس.

والسؤال الذي كنت أطرحه على نفسي، والذي نطرحه جميعاً والذي يعد لب ردنا وما جمعناه في هذا التعقيب ..؟ ما علاقة المرض بعمل المريض المصاب؟ أي ما أثره في إسهاماته وإبداعه؟.

لقد أجاب عن هذا السؤال متخصصون كُثُر نذكر منهم جاميمون الآنفة الذكر، ولها كتاب حول المرض النفسي وغيره.

يبدو أن الصفات العامة للهوس الخفيف تُفضي بقوة إلى التفكير الأصيل.وتتضمن المعايير الشخصية لهذا الطور من الاضطراب النفسي «تفكيراً حاداً فوق العادة».

وتوضح الدلالات المكثفة أن الأشكال المعرفية Ognitive المصاحبة للهوس الخفيف يمكن أن تؤدي إلى طلاقة جياشة وتواتر عال من الأفكار المبتكرة.

إن المصابين بالاكتئاب الهوسي وأولئك المتألقين في ساحات الإبداع الفني والأدبي يشتركون في سمات معينة، كالقدرة على العمل بصورة جيدة مع قلة ساعات النوم والتمتع بالتركيز الضروري للعمل الذي يتطلب وضعيات نفسية متأهبة ومواقف جريئة لا يقرّ لها قرار، ولا يعني ذلك أن كل مصاب يمكن أن يبدع، ويعلم الدارسون في الطب أو المتصفحون لكتب الطب النفسي أن مرض الفصام يؤدي إلى الإبداع وذاك بحث طويل.

ولكي أدعم كلامي بشواهد وردت أتناول كتاب «النقد وأسسه» والذي عربته وزارة الثقافة السورية للآنسة هيفاء هاشم، وهو كتاب غربي جميل جداً تضمن مقالات عدة أهمها لستيفن سبندر في الجزء الأول من الثلاثة طبعة (١٩٦٦م).

لقد كان الشاعر الألماني المعروف شيلر يحب وهو ينظم الشعر أن يشم رائحة التفاح الفاسد المخبأ تحت درج مكتبه.

وكان صياح أوريستيز عندما كانت تنتابه الهمسات الجنونية تملأ الأرجاء.

«ارفعوا أيديكم عني.. أنتم من شياطيني التي تلازمني.. أتقبضون عليّ لتقذفوا بي إلى الجحيم..»

وحين مددت يدي إلى خزانة ذاكرتي لأضرب أمثلة على السلوك غير العقلاني تبادر إلى ذهني ابن الرومي الذي كان يمشي في الشوارع، ويحدّث نفسه حتى قالوا عنه: مهووس.

وقد ألّف الموسيقار روبرت شومان معظم مقطوعاته الموسيقية، وهو يعاني الهوس الخفيف، وكان والداه يعانيان الاكتئاب، وقد حاول الانتحار مرتين في عامي ١٨٣٣م و١٨٥٤م، ووافته المنية في مصحة للأمراض العقلية، وقد أمضى أحد أبنائه أكثر من ثلاثين عاماً في مصحة عقلية.

وأصيب الموسيقار بيتهوفن في سنواته الأخيرة بصمم، ومع ذلك، أنجز واحدة من أهم روائع الموسيقى في سمفونياته، أما الفنان العالمي فان جوخ فقد قرأت في العدد (٧٩) من الفيصل (ص١١٢) أنه أصيب بالصرع عندما كان يرسم في الشمس، وصلم أذنه وقدّمها لحبيبته. نقول: قد توفي في حالته هذه مع أنه رسم نفسه مصلوم الأذن في المشفى كما رسم أزهاراً خلال وجوده في المشفى بسان ريمي - وبعد وفاته راجع الكثيرون من الأطباء السريريين المشكلات الطبية والنفسية للرسام جوخ وتوصلوا إلى أنه كان يعاني مجموعة من الاضطرابات ومن ضمنها الصرع والفصام والتسمم بالديجتال Digitalis والبرفيرية Porphyria الحادة المتقطعة، وأخيراً مرض منْير Meniere

واسمحوا لي أن أختتم تعقيبي بإيراد ما قاله الكاتب الأمريكي إدجار آلان بو: لقد عدّني الناس مجنوناً، ولكن لم يبت بعد هل الجنون هو أرفع درجات الذكاء أم لا؟.

أنس محمد مرعي جراد

إدلب - سورية



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٢٩٧)

ربيع الأول ١٤٢٢هـ - مايو / يونيو ٢٠٠١م

الفائز الأول: **جمال رشدي سيد أحمد بدير، شبين الكوم - مصر.**
الفائز الثاني: **زين العابدين أكريم، الرباط - المغرب.**
الفائز الثالث: **محمد عبدالله سعودي، حرض - اليمن.**
الفائز الرابع: **ميس مجدي محمد الفقهاء، وادي الريان - الأردن.**
الفائز الخامس: **المحفوظ أكريهم، تيزنيت - المغرب.**
الفائز السادس: **حمدو حسن الإبراهيم، حلب - سورية.**
الفائز السابع: **محمود صلاح توفيق، الفيوم - مصر.**
الفائز الثامن: **أيمن رضوان محمد، عمان - الأردن.**

حل مسابقة العدد (٢٩٧)

١- ابن سيده: عالم لغوي عربي أندلسي صاحب كتاب «المخصص».

٢- وحلاوة الدنيا لجاهلها ... ومرارةُ الدنيا لمن عقلا

قائل البيت: ابن المعتز.

٣- قِنّسرين: مدينة تاريخية تقع بالقرب من حلب.

٤- الليمور: حيوان طويل الذنب من فصيلة القردة.

٥- قارة: جبل شهير في الأحساء في المملكة العربية السعودية.

أسئلة مسابقة العدد ٣٠٠

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت:

أبا مُنذرٍ أفنيت فاستبْقِ بعضنا ... حنانَيك بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ

☐ أبوفراس الحمداني ☐ طرفة بن العبد.

(٢) البتروغرافيا: ☐ وصف الصخور وتصنيفها ☐ أداة لقياس السكَّر في محلول.

(٣) شندي: ☐ نوع شهير من بلح النخيل يزرع في وسط المملكة العربية السعودية وشرقها

☐ مدينة شهيرة في السودان.

(٤) الفرِّيسيون: ☐ طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة

☐ طائفة إنجليزية متعصبة تدعو إلى حرب ضد آيرلندا.

(٥) بطرس البستاني: ☐ لغوي وموسوعي لبناني.صاحب «محيط المحيط» و«دائرة المعارف»

☐ عالم فلك عربي. أشهر آثاره «المدخل إلى علم هيئة الأفلاك».

الاسم: المدينة: ص.ب: هاتف:

العنوان: الدولة: الرمز البريدي: ناسوخ:



شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يوماً من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

- الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.
- الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.
- الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.
- الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.
- الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.
- الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.
- الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
- الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دوماً، مع تمنياتنا بحظ وافر لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رحلة
في كتاب

جولة مع كتب فقه العمران التراثية المطبوعة

لطف الله قاري
ينبع الصناعية - السعودية

في العقدين الأخيرين ظهر علم جديد، هو إحياء وتحديث لعلم قديم، وهو فقه البناء أو فقه العمران، وكان موجوداً منذ القدم عند الفقهاء المسلمين، ولكن لم يبدأ الاهتمام بدراسته بشكل مكثف وعصري، وربطه بالعلوم المعاصرة، وتطبيقه على الواقع من حيث دراسة الأحياء القديمة وكيفية تخطيطها، والمباني الأثرية وكيفية تغيرها مع الزمن، وتدريسه في بعض الجامعات لتطبيقه على تخطيط المشروعات الجديدة، ولم يبدأ هذا كله إلا قريباً، فألّف فيه بعض الفقهاء المعاصرين، وبحث فيه المهندسون، وقام بدراسته بعض مختصي الآثار، واستفاد منه المختصون بعلم الاجتماع في بحوثهم، فصار مجالاً يتلاقى فيه أصحاب الاختصاصات المختلفة في ساحة واحدة.

ولكنه ما زال مجالاً خصباً يمكن أن يخرج منه الكثير. فمسائل البناء وتنظيم العمران هي بعض مجالات الفقه الإسلامي. جاءت أحكامها مبثوثة في كتب الفقه العامة. وأحياناً خصصت لها أبواب وفصول في تلك الكتب، بحيث تكون تلك الأبواب كتاباً كبيراً لو طبع منفرداً. وشغلت تلك المسائل أقساماً كبيرة من كتب النوازل(١) والفتاوى، وكثيراً من أقسام كتب علم الشروط والوثائق(٢)، وكتب الأقضية والأحكام(٣)، كما شغلت حيزاً كبيراً من كتب الحسبة العملية(٤). ونجد ثروة من المعلومات في الوثائق الباقية من العصور الماضية(٥).

ولم يكتف علماء السلف بجعلها ضمن تلك الكتب. وإنما أفردوا لها الكتب والرسائل المستقلة؛ فإذا علمنا أن الكثير من كتب التخصصات التي ذكرناها لم يطبع، بل لم يكتشف بعد، يتضح لنا أن هذه الكتب لم تتم دراستها. ومن ثم فالمجال واسع لإضافة الكثير إلى ما نشر من أبحاث معاصرة، علماً بأن أكثر الأبحاث المعاصرة أبحاث قيمة بحد ذاتها.

المؤلفات المبكرة

عرف المسلمون منذ فجر دعوة الإسلام التخطيط والتنظيم في البناء والتعمير، فقد وردت الأحاديث النبوية الشريفة المتعددة حول اتساع الطرقات، وأحكام تخطيط الأحياء. وأتى بعدها أحكام الخلفاء الراشدين العملية في هذا المجال، فكان أن بنيت الأمصار الأولى مثل البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان على أسس التخطيط، فتم الاعتناء بتنظيم المباني والشوارع والميادين العامة.

ومن ثم أعطى الفقهاء أحكام البناء عناية في مؤلفاتهم الفقهية، فبيّنوا منها أسس تنظيم العمارة، ووضّحوا حقوق الارتفاق، وهي في الشرع حق مقرر على عقار لمنفعة عقار لشخص آخر. وهذه الحقوق هي: حق الشرب، وحق المرور، وحق المجرى، وحق المسيل، وحق التعلي؛ ولذا لا نستغرب أن وضع بعض الفقهاء رسائل مستقلة في هذا المجال. فأقدم ما وصل إلينا خبره ثلاثة مؤلفات مفقودة في الوقت الحاضر، لعلماء من الجيلين الأولين للمالكية، وهم عبدالله بن عبدالحكم (ت ٢١٤هـ/٨٢٩م) من مصر، وعيسى بن دينار الغافقي (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م) وعبدالملك بن حبيب (ت ٢٣٨/٨٥٣م)، وهما من الأندلس.

ورد ضمن مؤلفات ابن عبدالحكم كتاب «القضاء في البنيان» عند من ترجموا له. ونقل عنه عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) في كتابه «النوادر والزيادات» قائلاً: «من كتاب «القضاء في البنيان» قال عبدالله بن عبدالحكم».

أما عيسى بن دينار فيحمل كتابه عنوان «الجدار». وينقل عنه التطيلي، وابن الرامي الآتي ذكرهما في هذه المقالة.

وأما ابن حبيب فمن مؤلفاته كتاب «البنيان والأشجار والمياه والأنهار». ذكره ابن سهل (ت ٤٨٦هـ/١٠٩٣م) في نوازله(٦) مرتين صراحة، ونقل عنه بعض المسائل. وهذا الكتاب لم يذكره الباحثون الذين كتبوا في هذا المجال قبل الآن.

كتاب التطيلي

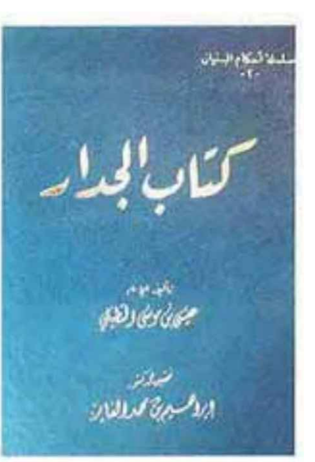
عيسى بن موسى التطيلي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) من علماء تطيلة Tudela بالأندلس، وسليل عائلة من الفقهاء، ألف كتابه «الجدار» معتمداً على كتب المالكية الذين سبقوه، فجاء كتاباً نفيساً في موضوعه، اشتمل على واحد وخمسين مبحثاً، كلها في البنيان ومتعلقاته، ويعبر عن كل مبحث بقوله: «القضاء في كذا». ومن أمثلة ذلك:

- القضاء في المرفق في المباني ونفي الضرر.
- القضاء في الدار تكون بين الرجلين، والبئر، فتنهدم، ويأبى أحدهما من بنائها.
- القضاء في الرفوف تخرج على أزقة المسلمين وبنيان السقوف عليها.
- القضاء في فتح الأبواب والكوى في الدار، والرجل يعلي بنيانه فيمنع جاره الريح والشمس.
- القضاء في الجدران وقسمتها.
- القضاء في الأفنية والطرق والتوسع فيها، وما يجوز من ذلك وقدر سعة الطريق.
- القضاء في إحداث أبراج الحمام والعصافير واتخاذ النحل والأوز.

فنجد في الكتاب مباحث في شؤون البنيان اشتراكاً وجواراً وارتفاقاً، ومستتبعات ذلك من أحكام الاشتراك في الملك، وأحكام الجوار، وأحكام الارتفاق، ومباحث في شؤون البنيان، وفي استعمال العقار واستغلاله بالكراء ونحوه، وفي الاختلاف على مرافقه، وفي عيوبه. ويتسع المقصود بالبناء ليشمل كل إنشاء وتعمير، فنجد مباحث حول الجوار في الأراضي والتداعي في تخومها، وفيما يكون فيها من عيون وآبار. ويتحدث المؤلف عن الإجارة وتكاليفها، وعن قسمة العقار بنياناً وأرضاً، وما يتبع ذلك من مياه وغيرها، والمنشآت الزراعية، مثل الأندر (أي المكان المخصص لدرس الحبوب)، والأرحية (الطواحين)، والأفران، وما تسببه من أضرار، وما يسببه الجيران من إضرار بها، وعن حكم المرور إلى أرض محاطة من كل أطرافها بأراضي الآخرين، وعن أحكام الطريق عامة، والتداعي في شؤونها، وعن أحكام التشجير، وما تسببه من أضرار للأفراد أو للمصلحة العامة، والاعتداء عليها أو الاعتداء بإنشائها في ملك الآخرين. ويتحدث عن الشفعة(٧) في المشترك من المرافق، وعن حقوق سكان الأدوار العليا والسفلى، وعن إفساد المواشي والحمام والنحل للزرع.

وقد اعتمد ابن الرامي الآتي ذكره على كتاب التطيلي كثيراً. ونقل عنه نقولاً طويلة، واقتبس من بعض عناوينه.

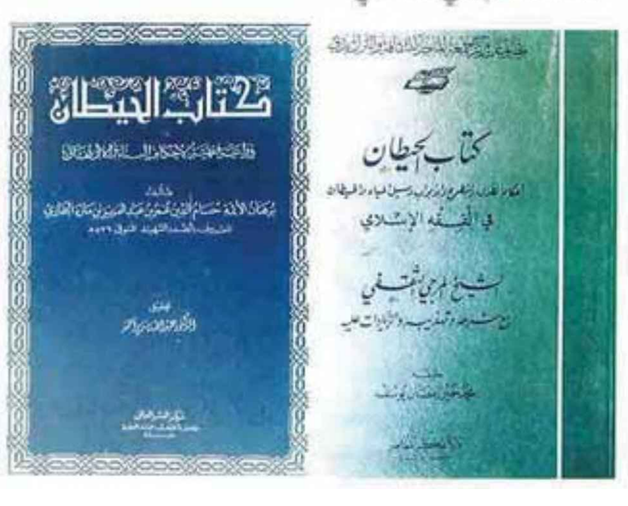
طبع الكتاب بتحقيقين: في الرياض(٨)، وفي الرباط(٩). ونجد في كلتا الطبعتين اعتناء بمقابلة النسخ، وبشرح المفردات، وترجمة الأعلام. وتمتاز طبعة الرياض باعتمادها العنوان الصحيح للكتاب، وباعتماد أربع نسخ مخطوطة، هي كل نسخ الكتاب المعروفة. ولكن يلاحظ عليها عدم التقيد بمتطلبات الفهرسة الأبجدية. ففي فهرس الأعلام نجد علماً تكرر ذكره في عدة صفحات، ولم يذكر في الفهرس إلا مرة واحدة.



أما طبعة المغرب فتمتاز بالفهارس الوافية، فهناك فهرس للمصطلحات، وللكتب، وللأعلام، ولمرافق البنيان، وغير ذلك. ولكن يلاحظ عليها عدم وجود معلومات عن طبعات الكتب التراثية في هذا المجال. فطبعة الرياض من هذا الكتاب، والطبعتان الحديثتان من كتاب ابن الرامي الآتي ذكره لا نجد لها ذكراً. ويلاحظ عليها كذلك عدم اعتماد العنوان الصحيح للكتاب. فالمحقق يعتمد تسمية بعض النسخ المخطوطة، فيسميه «القضاء في المرفق في المباني ونفي الضرر». وهذا عنوان الفصل الأول من الكتاب. أما الذين نقلوا عنه كابن الرامي، وابن هشام في كتابه «المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام» فيسمونه «كتاب الجدار» حسب ما اعتمد محقق طبعة الرياض.

ومن الملاحظات على طبعة المغرب عدم تعريف بعض المصطلحات المعروفة عند الأشقاء المغاربة، مثل الأندر والزنقة (أي الشارع الفرعي الضيّق)، ولكنها غير معروفة عند غيرهم من الناطقين بالعربية، بل لها معنى مختلف تماماً في بعض الأماكن، فهذه الكلمة تعني بعامية بعض بلدان المشرق العربي (الضيق في المال أو الوقت).

كتاب المرجي الثقفي



«كتاب الحيطان» تناوب في الاشتراك في تأليفه أربعة من أعلام الفقه الحنفي، فأولهم المرجي الثقفي الذي لا نجد له أية ترجمة في كتب التراجم، إلا أننا نستنتج ممن أتى بعده وشرح كتابه أنه من أهل القرن الرابع الهجري، أو الخامس على أبعد تقدير. ثم شرحه الإمام محمد بن علي الدامغاني الكبير من بغداد (ت ٤٧٨/١٠٨٥م) شيخ الحنفية في زمانه. ثم أتى بعدهما الصدر الشهيد عمر بن عبدالعزيز بن مازة من بخارى (ت٥٣٦هـ/١١٤١م). فنجده يصف عمله قائلا: «..وبعد، فإنني وجدت مسائل دعوى الحيطان والطرق ومسيل الماء من أصعب المسائل مراماً، وأعسرها التئاماً. وكان يتلجلج في صدري أن أجمع ما تفرق في كتب أصحابنا من مسائلها، حتى وجدت جمعاً فيها للشيخ المرجي الثقفي بشرح قاضي القضاة الدامغاني أبي عبدالله، لكنه مفتقر إلى التهذيب والتنقيح وذكر التفاصيل، فتممت ما هنالك».

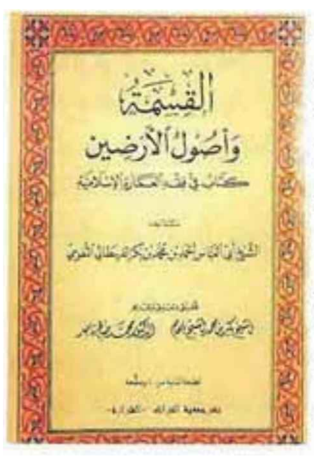
وعندما سئل الحافظ قاسم بن قُطْلُوبُغا السودوني* (ت٨٧٩هـ/١٤٧٤م) عن مسألة من مسائل الحيطان وقع نقاش بحضوره حول هذه المسائل، وطُلب منه أن يكتب شيئا حول الموضوع. وأحضر له ما كتبه الصدر الشهيد، وما ألفه الدامغاني قبل تنقيح الصدر الشهيد. فرأى ابن قطلوبغا مناسبة لأن يزيد في أبواب الكتاب بعض ما استجد من المسائل، وينبّه على أقوال أخرى، ويورد إيضاحات من شرح الدامغاني للكتاب، وهي التي لم يوردها الصدر الشهيد. وقد وجد محقق الكتاب أن ابن قطلوبغا لم يزد على أبواب الكتاب إلا تعليقات قليلة، ومسائل معدودة، تقع في ورقتين وبضعة أسطر، من أصل عشرين ورقة ساهم فيها الثلاثة الآخرون(١٠).

انقسم الكتاب ثلاثة أقسام، فجاء تحت كل قسم أبواب، وتحت كل باب فصول. ففي القسم الأول يتحدث المؤلف عن المسائل المتعلقة بالحيطان: من استحقاق، واتصال في البناء، وستر، واشتراك في حائط بين دارين، ونحوها في الجذوع المتصلة والشاخصة، وما يتصل بالحيطان من أحكام في حالة التنازع، والتعلي في البناء. فجاءت هذه الموضوعات في أربعة عشر بابا بترتيب المؤلف.

وفي القسم الثاني مسائل مسيل الماء والسقي والزرع. وهي في بابين. وفي القسم الثالث نجد مسائل الطرق والأبواب المطلة عليها. وهي أربعة أبواب. فمجموع الأبواب عشرون باباً.

حُقّق هذا الكتاب بزيادات ابن قُطلُوبُغا ونشر في دبي وبيروت. وحُقّق عمل الصدر الشهيد من دون الزيادات المذكورة ونشر في جدة(١١). ويلاحظ على طبعة دبي خلوها من الفهارس الأبجدية الكشافة التي هي من متطلبات التحقيق الجيد. أما طبعة جدة فتمتاز بفهرس للأعلام، وآخر للمصطلحات، وثالث للقواعد الفقهية. ولكن يلاحظ عليها عدم التقيد بمتطلبات الفهرسة الأبجدية. ففي فهرس الأعلام، مثلا نجد علماً تكرر ذكره في عدد من الصفحات بينما لم يذكر في الفهرس إلا مرة واحدة.

كتاب الفرسطائي



على بعد ٦٠٠كم جنوب مدينة الجزائر العاصمة تقع مدن وادي مزاب التابعة لولاية غرداية، وهذه المدن هي بريان وغرداية ومليكة وبني يزقن وبنورة والعطف والقرارة. والمذهب السائد هناك هو المذهب الإباضي. وعلماء هذا المذهب تركوا تراثا علميا غزيراً لم ينتشر منه إلا القليل مما نشر في الشقيقة عُمان.

وفي بداية الثمانينيات الميلادية من القرن العشرين، أي قبل نحو عشرين عاماً، أسست جمعية التراث بمدينة القرارة، من أجل صيانة تراث المنطقة على اختلاف أنواعه، على أن يشمل النشاط كل المدن المزابية، ومن جملة ما عزموا عليه جمع التراث المكتوب وترميمه، وصيانته وتنظيمه، والعمل على تصويره بالوسائل

الحديثة كالحاسوب، والميكروفيلم، ثم فهرسته، وبعد ذلك تحقيقه ونشره، ليكون في متناول المجتمع العلمي بين قرّاء العربية كلهم(١٢).

ومن جملة ما أصدرته هذه الجمعية كتاب «القسمة وأصول الأرضين» لأبي العباس أحمد بن محمد الفرسطائي (ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م). وهو ابن عالم إباضي شهير. فأبوه أبوعبدالله محمد بن بكر (ت ٤٤٠هـ) الذي وضع نظام العزابة (نظام تعليمي يتطلب الانقطاع إلى دروس الشريعة، مع التربية الدينية، من دون الامتناع عن الزواج والعناية بالأسرة). وهذا الوالد هو الذي نشر المذهب الإباضي في وادي مزاب، بعد أن كان المكان هناك يتبعون مذهب الاعتزال. وكان لهذا التحول أثره الكبير فيما بعد، فقد أصبح ذلك الوادي ملجأً للإباضية، يهاجرون إليه إذا تعرضوا للمجاعة أو الفتن الداخلية، أو طلباً للعلم(١٣).

نستطيع تلخيص مباحث كتاب الفرسطائي في الآتي:

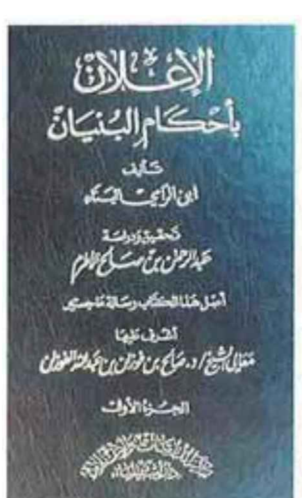
- الشراكة والقسمة، قسمة الأموال وقسمة الماء.
- حول الطرق وإصلاحها وإنشاء القناطر، أي الجسور، عليها.
- إنشاء القصر وأحكامه. والقصر في العمارة البربرية يعني القرية المحاطة بسور. وهو يشبه ما يسمى اليوم المجمع السكني أو القرية السكنية المخصصة لأعضائها من السكان.
- القول في ماء المطر وتصريفه وأحكام سقي الأراضي المختلفة به.
- حقوق حراثة الأرض، واشتراك الحرث في أكثر من قطعة أرض، أو في أرض مشاعة.
- نزع المضرات وإثباتها.
- حريم(١٤) الأشجار والطرق والساقية والعيون والآبار والبحر والمدينة والمغارات.
- أحكام الغراس (أي زرع النباتات) بين الأراضي المختلفة الملاك.
- أحكام أرض المشاع، أي التي لا يمكن تملكها مثل الأوقاف والمحميات(١٥).

يمتاز هذا الكتاب بثرائه بالمعلومات عن العمارة الإسلامية التي عرفتها بيئة المؤلف في زمانه، فتحدث المؤلف عن القصر، الذي هو نمط خاص للعمارة البربرية الصحراوية، فما زالت هذه الكلمة تطلق على كثير من القرى المنتشرة في المنطقة. ويتحدث المؤلف عن الشارع والزقاق والسكة، مميزاً بينها. ويذكر الغرف والبيوت والفنادق والمسجد والقنطرة والجسر والزروب، فيحدد مراده من كل ذلك. ثم يبين ما يتعلق بها من حقوق وأحكام، معتمداً في ذلك على القواعد الفقهية المعتمدة عند جمهور علماء الشريعة الإسلامية.

لكن يلاحظ على الكتاب قول المحققين: «لم نر في حدود اطلاعنا المتواضع على التراث الفقهي الإسلامي كتاباً خاصاً بالعمارة الإسلامية..»! فهذا يجعل من الضروري نشر مثل هذه المراجعات، لكتب التراث، ليطلع عليها القراء من الميول والاهتمامات كافة.

ويلاحظ كذلك خلو الطبعة التي بين أيدينا من الفهارس الأبجدية للأعلام والمصطلحات المختلفة من أدوات ومبانٍ وخلافها. فهذه الفهارس الأبجدية من متطلبات التحقيق الجيد؛ لأنها تسهل على القارئ الاستفادة من الكتاب، بدلا من إعادة قراءته كاملاً في كل مرة يريد فيها البحث عن لفظة أو اسم.

كتاب ابن الرامي



مؤلف كتاب «الإعلان بأحكام البنيان» هو محمد بن إبراهيم اللخمي الملقب بابن الرامي (ت نحو ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م). وهو معلم بناء، أي خبير بالأمور الفنية، والمصطلحات اللازمة للكتابة والبحث في هذا المجال. وكان يعمل طوال عقود من الزمن مستشاراً فنياً لقضاة بلدة تونس، أي إنه واسع الاطلاع على القضايا المتعلقة بالبناء مما عُرض على المحكمة في عصره، وقد جمع إلى هذه الخبرة اطلاعاً واسعاً على كتب الفقه المالكي، وقدرة على الترجيح بين الأقوال الفقهية، واستنباط الحكم الصحيح من بينها.

يمتاز هذا الكتاب بعدة مزايا تجعله في مقدمة كتب فقه البنيان التراثية بلا منازع. فقد بين محقق طبعة الرياض من هذه المزايا:

- كثرة المصادر التي اعتمدها وتنوعها.
- قدرته على جمع أطراف هذا الموضوع الواسع من مواطنه المتفرقة، وترتيب موضوعاته، والتنسيق بين النقول الواردة فيه.
- تلخيص المسائل وحسن عرضها وترتيبها عند تقديمها.
- ربطه الأحكام بالقواعد وبالوقائع معاً. فيقوم بربط الأحكام بأدلتها المنقولة وقواعدها العامة الفقهية. ثم يسرد وقائع تطبيقية حصلت من تجاربه مع الحالات التي أشرف عليها.
- قدرته على الاستنباط والمناقشة والترجيح؛ فهناك عدة مسائل

أشار فيها على القضاة بعكس ما أشار به أهل النظر من زملائه معلمي البناء (أي أعضاء اللجنة الفنية الاستشارية الذين ينتدبهم القضاة للوقوف على طبيعة البناء ويأخذون برأيهم)، وكان رأيه هو الأرجح.

ـ حديثه المفصل عن صفة العقد Vaults في الجدران، وعن مرافق الحائط، وعن عيوب الدور، وعن لوازم السقف، وعن كيفية هندسة المواجل (أي خزانات تجميع المياه)، وعن علامات الأرض التي يخرج منها الماء الملح والماء الحلو؛ مما يجعله كتاباً تقانياً أكثر من غيره من كتب فقه البناء التي نستعرضها هنا.

اشتمل الكتاب على مئة واثنين وخمسين مبحثاً، تناولت جوانب شتى وقضايا كثيرة، وترتبط كل مجموعة من هذه المباحث بموضوع واحد، وهذه هي موضوعات الكتاب، كما بينها محقق طبعة الرياض:

ـ **أحكام الجدار**: وفيه تقسيم الجدار إلى أنواع من ناحية من هم مالكوه.

ـ **نفي الضرر**: ومنه ضرر إحداث دخان أو رائحة أو إيذاء الجار بأنواع أخرى من الإيذاء، والإضرار بالطرقات، بتضييقها وإرسال الفضلات إليها.

ـ **العيوب في الدور وأنواعها.**

ـ **أحكام الساكن السفلي والساكن العلوي في بناية واحدة.**

ـ **أحكام القنوات والمجاري.**

ـ **تخوم الأرض وحكم تغييرها.**

ـ **الآبار**: ومن موضوعاتها: حريم الآبار، والاشتراك في البئر، وحفر الآبار وأجورها.

ـ **القسمة**: أي قسمة الدار والبناء والساحة.

ـ **الأنادر**: أي أماكن درس الحبوب واستخراجها من سنابلها بفصل التبن عنها. فيبحث أضرار الأندر على الجيران، وما يمكن أن يسببه الجيران من أضرار على الأندر.

ـ **الغصب**: ومن مسائله من يبني في أرض غيره بإذنه أو بغير إذنه.

ـ **الغروس**: أي أحكام أضرار النباتات بالجيران.

ـ **أحكام الأنهار والسقي**: ومنها أحكام مصائد الأسماك.

ـ **أحكام الأرحي، أي الطواحين التي تدار بالماء.**

ـ **أحكام الشفعة**: أي حق الجار في تملك العقار على مشتريه، بالشروط التي حددها الفقهاء.

ـ **أضرار الحيوانات الداجنة كالمواشي والطيور والنحل.**

والكتاب مملوء بالمصطلحات المعمارية، مما يجعله ثروة فقهية ولغوية ومعمارية وأثرية.

طبع الكتاب طبعة حجرية بالمغرب بتاريخ رمضان سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م. ثم طبع بالرباط(١٦) طبعة خالية من منطلبات التحقيق، مثل مقابلة النسخ، وشرح الكلمات، والفهارس الأبجدية. ولكنها طبعة تمتاز بمقدمة مفيدة فيها دراسة جيدة عن ابن الرامي المؤلف.

ثم حقق بالرياض لرسالة ماجستير سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م. وطبع هذا التحقيق بالرياض سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م(١٧). وتمتاز هذه الطبعة بالتحقيق الجيد للنص، وبمقدمة طويلة اشتملت على دراسة مفصلة عن الكتاب والمؤلف، وعن المؤلفات التراثية والحديثة في هذا المجال، استغرقت أكثر من مئة صفحة. ولكن هناك ملاحظتين على هذا التحقيق: الأولى أن الكتاب طبع بعد اثني عشر عاماً من مناقشة الرسالة. وفي هذه الفترة طبع عدد من الكتب التي يشير إليها المحقق على أنها مخطوطة، فالمحقق على ما يبدو لم يراجع رسالة الماجستير من أجل تحديث المعلومات فيها. والملاحظة الثانية خلو فهرس الأعلام، وفهرس الكتب من ذكر الصفحات التي ورد فيها اسم الشخص أو عنوان الكتاب، اقتصر المحقق على ذكر اسم الشخص أو عنوان الكتاب مرة واحدة. فمثلاً عبدالملك بن حبيب ورد ذكره خلال الكتاب في نحو مئة وعشر صفحات. ولكننا لا نجد اسمه في الفهرس إلا مرة واحدة!

كتاب أبي حامد المقدسي



بنيت المدن الإسلامية في الأصل مخططة واسعة مريحة. قال أبو يعلى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م) في كتابه «الأحكام السلطانية»: «مصّرت الصحابة البصرة على عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وجعلوها خططاً لقبائل أهلها، فجعلوا عرض الشارع الأعظم ستين ذراعاً، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وعرض الأزقة سبع أذرع. وجعلوا وسط كل خطة رحبة فسيحة لربط خيولهم وقبور موتاهم». فإذا كانت مدينة عسكرية متقشفة يكون عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً (٤٠ متراً) فإن اتساع ميادين المدن التي بنيت لتكون عواصم ملكية

كالقاهرة وبغداد سيكون أكبر. وهذا ما بينته الدراسات التاريخية والأثرية.

ولكن مع ازدحام الناس ومرور فترات ضعف واضطراب في السلطة، يغفل بسببها المسؤولون عن التعديات على الشوارع والميادين العامة، يزحف العمران العشوائي وتوسعة المباني على حساب تضييق الشارع، فينشوه الهيكل الأصلي للمدينة، ثم يأتي حاكم حازم فيأمر بهدم هذه البيوت العشوائية، وإعادة الساحات والشوارع إلى ما كانت عليه من السعة والتنظيم. حدث هذا عدة مرات في التاريخ العربي الإسلامي.

فمنذ عهد عمر بن الخطاب نقرأ أن الخليفة الراشد ـ رضي الله عنه ـ مر على باب رجل بالسوق، وقد وضع الرجل على بابه جرة، فأمر بها أن تقلع، فخرج إليه الرجل وقال: «إنما هذه جرة يسقي فيها الغلام الناس». فنهاه عمر أن يحجر عليها أو يحوزها، فلم يلبث أن مر عليها وقد ظلل عليها، فأمر عمر بالجرة والظل فنزعهما. وقد بينت كتب الحسبة بعض القوانين الواجب اتباعها حول تضييق الشوارع، فيمنع تضييق أي شارع في أي مدينة خلافاً لتصميمها الأصلي، فإذا كانت تلك المدينة من عهد الرومان ـ مثلاً ـ فيجب ترك الشوارع كما وجدت منذ أيام الرومان(١٨). ولا يخفى أن الرومان كانت شوارعهم وساحاتهم فسيحة.

وفي سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أمر حاكم دمشق من قبل المماليك (واسمه علم الدين سنجر الشجاعي) بهدم ما على جسر الزلابية بدمشق من الحوانيت، وهدم جميع ما بني على نهر بانياس ونهر المجنول، من تحت القلعة إلى باب الميدان الأخضر، باستثناء المساجد، فهدمت مبانٍ كثيرة، بعضها يخص الأفراد، وبعضها يخص الدولة. وتبع ذلك توسيع الميدان الأخضر وتسويره إلى النهر(١٩).

وفي القاهرة الفاطمية حصل الشيء نفسه. إذ قام أصحاب المباني بتوسعتها على حساب تضييق الشوارع، فبنيت الربوع(٢٠)، والرواشن(٢١)، والسقائف(٢٢)، والسوابط(٢٣)، والمصاطب(٢٤)، والحوانيت وغيرها بشكل غير شرعي، إلى أن أظلمت الشوارع الواسعة وضاقت. وظلت التعديات تتزايد عبر القرون باطراد، إلى أن وصل الأمر بالشارع الأعظم (شارع المعز حالياً) أن صار مزدحماً بشكل مزعج، بعد أن كان فسيحاً يسر المرء أن يتمشى فيه. وفي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م أمر الأمير يشبك الداودار بإزالة كل ما بني زيادة على المباني الأصلية، وأمر بتزيين المساجد وواجهاتها وأبوابها، وجلي رخامها، وتبييض حيطانها، وحيطان المباني الأخرى المطلة على الشوارع الرئيسة. وبني عدة مبانٍ خيرية في أماكن أخرى لنفع عامة المحتاجين، وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض لهذا المشروع، ومن بين المؤيدين من كتب قصيدة يبين فيها أن المدينة أضاءت بعد الظلمة. ومما قاله(٢٥):

كانت كصبح تعالت فوقه ظُلَم ... شتى فجاءها بالنور إسفار

كانت كشمس تغشاها الغمام ضحى ... فمزقته من الأرياح أعصار

وكان من المؤيدين للمشروع أبو حامد المقدسي الشافعي (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م) الذي ألف رسالة بعنوان «الفوائد النفيسة الباهرة، في بيان حكم شوارع القاهرة، في مذاهب الأئمة الزاهرة»، وقد طبعت بتحقيقين مستقلين: ضمن دورية بالرياض(٢٦)، وفي كتاب بالقاهرة(٢٧). فهو يقدم في رسالته نبذة من أوضاع شوارع القاهرة عند إنشائها، ثم أثر التعديات عليها وتضييقها، ثم يجمع آراء علماء المذاهب الأربعة وأقوالهم التي تتفق على استحسان ما قام به الأمير يشبك من التوسيع على الناس. والكتاب إسهام جيد في بيان أصول العمارة في الإسلام من حيث السعة والعرض وأماكن إقامة المرافق العامة، كالمساجد والأسواق والميادين.

وفي الكتاب آراء متطورة حتى بمقاييس عصرنا، فهو يذكر أن الفقهاء لا يمنعون إبراز البناء على الشارع فحسب، وإنما يمنعون أيضاً استعمال الأرصفة وساحات المساجد لعرض البضائع وبيعها، كما يفعل الباعة المتجولون الذين يسميهم أصحاب الطبليات أو الطبالي(٢٨).

نجد في طبعتي الكتاب كلتيهما عناية بالتحقيق والشرح والتعريف بالأعلام، وتمتاز طبعة مصر بدراسة أثرية مصحوبة بصور للمنشآت العمرانية المملوكية بالقاهرة، وبصنع الفهارس الأبجدية الفنية الجيدة: فهرس للأعلام والأمم، وآخر للأماكن والآثار والمصطلحات والوظائف.

كتاب كامي أفندي

يأتي «فقه العمران الإسلامي» في آخر حلقات التأليف في هذا المجال؛ فمؤلفه القاضي كامي محمد أفندي ابن إبراهيم بن أحمد الأدرنوي (من مدينة أدرنة التركية، (ت ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م) جمع فيه آراء الفقهاء الأحناف من عدة كتب يذكر عناوينها باختصار بعد كل فقرة من فقرات الكتاب المتعددة. وهو كتاب كبير الحجم نسبياً(٢٩). فأكبر الكتب التي نراجعها هنا هي كتاب ابن الرامي، وكتاب القرسطاني، وهذا الكتاب. قسمه

المحقق عشرة أقسام، بعد أن أعاد ترتيب أبوابه ليجمع كل مجموعة من المسائل المتشابهة بعضها مع بعض. وهذه هي أقسام الكتاب حسب تبويب المحقق:

- القسمة: أي توزيع ما يمكن تقسيمه من العقار على الورثة أو غيرهم من الأشخاص حسب استحقاقهم.
- في تحديد العقار والحساب والمساحة.
- الجوار والاشتراك، وكيفية معالجة إضرار الجار بجاره.
- المسيل والمرور: ومنه التعدي على الشارع.
- الحسبة والضمان والتقصير: حول أحكام المحتسب وضمان الصناع من بنائين ونجارين وغيرهم، والمسؤولية في حالة إخماد حريق.
- أحكام الأوقاف.
- مسائل المنازعات.
- الأراضي والأشجار والمياه.
- عقود البيع والهبة والمزارعة والمساقاة.
- فيما يتعلق بالكنائس وأهل الذمة والقسامة.

يمتاز الكتاب بـ:

- توسعه واقتباسه من عدة مصادر.
- استخدام أشكال توضيحية بلغ عددها ١٢ شكلاً، معظمها أشبه بمخطط أو (كروكي) للوحدات السكنية والطرق التي يتحدث عن حق المرور فيها. وفي أحد هذه الأشكال نجد رسم آلة الكونيا المستخدمة ميزاناً لمعرفة استقامة الجدار عمودياً.
- في الكتاب أمور حسابية وهندسية: فمن ذلك تعريف وحدات الذراع والمساحة، ومنها تعريف الأشكال الهندسية، ومنها كذلك وصف كيفية وزن الأرض (أي تحديد انخفاض قطعة من الأرض وارتفاع أخرى) لإسالة الماء على سطحها (ص١٢٣ - ١٣٤).
- في الكتاب مباحث جديدة أو هي من الأمور التي يتم بحثها في زمننا المعاصر، منها عدم تلويث مياه الأنهار والآبار بمياه البالوعات، ومنها الأحكام القانونية المتعلقة بإطفاء الحرائق.

والتحقيق عموماً جيد. ولكن هناك بعض الملاحظات التي لا تقلل أبداً من قيمة العمل، وإبداؤنا الملاحظات حول كتاب لا يقلل من قيمة ما بذل لإعداده؛ لأن العمل البشري لا يخلو من نقص صغير أو كبير، ومن ثم فإن أي كتاب أو مقال جدير بالقراءة هو أيضاً جدير بالمراجعة والنقد. والملاحظات التي يبديها المراجعون لا تنفي بأي حال الجهد القيم المشكور الذي قام به المحقق والباحث، وإنما الهدف من المراجعة هو الهدف نفسه الذي توخاه المحقق: أي خدمة العلم في المجال الذي كتب فيه، وإبداء اقتراحات تزيد من نفاسته عند اعتمادها فيما بعد عند إعادة نشر الكتاب.

فهناك عبارات تجدر مراجعتها في الطبعات القادمة؛ فمثلاً ورد في النص قول المؤلف (ص٤١٤): «وقال ابن قدامة في المغنى». فعلق

الهوامش والمراجع

١. كتب النوازل والفتاوى هي الكتب التي وردت فيها الأحكام الصادرة عن الفقهاء من قضاة وغيرهم، في الوقائع الجزئية، ليسهل الأمر على القاصرين من بعدهم. وأكثر ما يستعمل اصطلاح «نوازل» في الغرب الإسلامي، واصطلاح «فتاوى» في بلاد المشرق.
٢. علم الشروط والسجلات أو علم الوثائق هو علم يوضح كيفية صياغة العقود أو المخاطبات في المحاكم أو غير ذلك من المعاملات الرسمية والقانونية.
٣. كتب الأقضية والأحكام أو كتب أدب القضاة هي كتب إرشادات للقضاة ليستعينوا بها على إصدار أحكامهم.
٤. كانت الحسبة مهنة المحتسب، وهو مراقب الأسواق والشوارع، وتكون مراقبته لعدم مخالفة الشرع، سواء من الناحية الأخلاقية والتعبدية أو من ناحية إتقان الصناعة. ويدخل في المجال الأخير عدم التعدي على تخطيط الشوارع وعدم تلويثها. وتجد قائمة شاملة لكتب الحسبة العملية في هذا البحث:
قاري، لطف الله، «كتب الحسبة وكتب الحرف في التراث»، مجلة المأثورات الشعبية، قطر، عدد أبريل/نيسان ١٩٩٤م. وأعيد نشر البحث في كتاب «إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية»، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٥. انظر مثلا:
- أمين، محمد محمد، فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر المماليك، نشر المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، ١٩٨١م.
- أمين، محمد محمد وليلى علي إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، نشر الجامعة الأمريكية بالقاهر، ١٩٩٠م.
- حموش، مصطفى، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ٢٠٠١م.
٦. ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي، الإعلام بنوازل الأحكام (نوازل ابن سهل)، تحقيق نورة التويجري، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٨٢٣ و٨٣٤.
٧. الشفعة هي حق الجار في تملك العقار على مشتريه، بالشروط التي حددها الفقهاء
٨. التطيلي، عيسى بن موسى، كتاب الجدار، تحقيق إبراهيم الفايز، نشر المحقق، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ٤١٣ صفحة، النص في ٢٥٦ صفحة.
٩. التطيلي، عيسى بن موسى، القضاء بالمرفق في المباني ودفع الضرر، تحقيق محمد النمينج، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسسكو) الرباط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ٢٥٣ صفحة، النص في ١٤٣ صفحة.
- السودوني: نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني.
١٠. المرجي الثقفي، كتاب الحيطان، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ١٩٩٤م، ٢٠٣ صفحات، النص في ١٧٤ صفحة، ص ٧ - ٩.
١١. الصدر الشهيد، برهان الأئمة حسام الدين عمر بن عبدالعزيز بن مازة البخاري، كتاب الحيطان، تحقيق عبدالله نذير أحمد، جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ٢٧٨ صفحة، النص في ٢٠٠ صفحة.
١٢. عوفي، عبدالكريم، جمعية التراث بالقرارة ومشروعها الطموح في منطقة وادي ميزاب، آفاق الثقافة والتراث، دبي، العددان ٢٩ و٣٠، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ١١٧ - ١٣٦. يلاحظ هنا كتابة اسم الوادي «ميزاب» بإضافة ياء المد، بينما تكتب من دون الياء في المراجع الأخرى بالمغرب العربي، وتكتب بالحروف الإفرنجية في المراجع الغربية، بل وعلى الخرائط الرسمية للجزائر، هكذا Mzab، أي كما كتبناه في هذه المقالة.
١٣. الموسوعة الإسلامية، الطبعةالجديدة (EI2)، مادة «إباضية»، ومادة «حلقة».
١٤. الحريم هو حدود المساحة المناسبة حول كل واحد من الأشياء المذكورة، الكافية لوقايتها من الضرر.

المحقق في الهامش على هذه العبارة قائلا: «ذكر صاحب الجواهر المضية ستة أعلام بهذا الاسم، وهم..إلخ». فهو يبحث عن ابن قدامة في كتاب «الجواهر المضية في طبقات الحنفية». وطبعا لم يحدد أيا منهم المقصود بعبارة المؤلف. ولو دقق في النص لعرف أنه ابن قدامة الحنبلي صاحب كتاب «المغني» (وليس المغنى كما ورد في النص).

والفهارس الأبجدية بآخر الكتاب بحاجة إلى مراجعة، ففي فهرس الكتب الواردة عناوينها في النص لا نجد أرقام الصفحات، مع أن الغرض من وضع هذه الفهارس هو مساعدة القارئ الباحث على أن يجد المعلومة بسهولة ويسر داخل الكتاب. وفي فهرس الأعلام نجد رقم صفحة واحدة أمام اسم الشخص، بينما نجد هذا الشخص ورد ذكره عدة مرات في الكتاب.

ويلاحظ على مقدمة التحقيق عدم ذكرها عدداً من طبعات الكتب التي نراجعها هنا. فمثلا ذكر عن كتاب التطيلي ترجمته الفرنسية التي نشرت في دورية قبل مئة عام، ولا يذكر أيا من طبعتيه العربيتين، ويقول عن التطيلي: إنه من مواليد طليطلة Toledo، بدلا عن نطيلة Tudela.

الخاتمة

لا يزال عدد من الرسائل والكتب في هذا المجال - وفي المجالات الأخرى التي ذكرناها في مقدمة المقالة - مخطوطاً لم يطبع بعد(٣٠). ومن ثم فالمجال واسع لإضافة الكثير.

وقد لاحظنا في الأسطر السابقة أن المحققين لم يطلعوا على الطبعات المختلفة للكتب التي راجعناها، وهذا ناتج من عدم التوزيع الجيد للكتاب، ومن ثم عدم وصوله إلى القارئ في الأقطار العربية المختلفة، فما ينشر في المشرق العربي لا يعرفه الأشقاء المغاربة، والعكس صحيح. ونحن هنا فقط نعرض المشكلة ولا نطرح الحل؛ لأن بعض الحلول يتطلب قراراً سياسياً بتأمين نسخة من كل كتاب في كل مكتبة وطنية. فليس كثيراً أن يتبرع الناشر من كل كتاب باثنتين وعشرين نسخة، هي عدد الدول العربية.

وأدى عدم اطلاع بعض الباحثين على عمل الباحث الآخر إلى أن صار كل كتاب يصدر بتحقيقين أو طبعتين مختلفتين، وقد رأينا ذلك في أربعة من الكتب الستة التي استعرضناها؛ وهذا الأمر يختلف فيه الباحثون: فمنهم من يعده هدراً للجهود وازدواجية لا لزوم لها، ومنهم من يراه أمراً جيداً، ليعوض النقص الحاصل عن عدم توزيع الكتب توزيعاً جيداً، وعدم وصولها إلى القارئ في الأقطار المختلفة، فالحل في رأي هذا الفريق الأخير أن يعمل كل واحد بطريقته منفرداً عن الآخر (كل مين إيده إله)!!.

ومما لا يختلف فيه الباحثون هو أن نشر مؤلفات فقه العمران ضروري من أجل تاريخ العمارة والهندسة، ولاكتساب ثروة من المصطلحات، وللاستعانة به من أجل تحديث قوانين العمران المعاصرة التي اقتبس كثير منها من بيئات مختلفة عن بيئتنا، ومن أجل إغناء الدراسات التي ذكرناها في الأسطر الأولى من هذه المقالة.

الهوامش والمراجع

١٥. الفرسطائي النفوسي، أبوالعباس أحمد بن محمد بن بكر، القسمة وأصول الأرضين، كتاب في فقه العمارة الإسلامية، تحقيق بكير بلحاج ومحمد صالح ناصر، الطبعة الثانية المزيدة المنقحة، جمعية التراث بالقرارة، ولاية غرداية بالجزائر، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ٦٣٥ صفحة، النص في ٥٥١ صفحة. وقد حصلت على نسخة من الكتاب بمكرمة مشكورة من الدكتورين يوسف عتيق وأبي بكر خالد سعدالله من الجمعية الجزائرية لتاريخ الرياضيات.

١٦. اللخمي، أبوعبدالله محمد بن إبراهيم، كتاب الإعلان بأحكام البنيان، بتقديم عبدالله الداودي، مجلة الفقه المالكي والتراث القضائي بالمغرب، الأعداد ٢، ٣، ٤، السنة الثانية، ١٩٨٢م، التقديم ص٢٥٩ - ٢٧٣، نص الكتاب مع فهرس المحتويات ص ٢٧٤ - ٤٩٠.

١٧. ابن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق عبدالرحمن الأطرم، نشر مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ٨٠٠ صفحة، النص في ٥٩٨ صفحة.

١٨. قاري، لطف الله، السلامة الصناعية في تراثنا العلمي، أبحاث الندوة العالمية الخامسة لتاريخ العلوم عند العرب (التي عقدت في غرناطة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، نشر معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، وأعيد نشر البحث في كتاب «إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية»، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٩. النويري، أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء ٣١، تحقيق الباز العريني، ومراجعة عبدالعزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص٢٢٢. ولابدوس، إيرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، تعريب علي ماضي، نشر الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، ص١١٠.

٢٠. الربوع جمع ربع، وهو البناء المتسع الذي تشترك في سكناه عدة عائلات بأجر يسير.

٢١. الرواشن جمع روشن، وهي الشرفة أو ما نسميه بالعامية البلكونة.

٢٢. السقائف جمع سقيفة، وهي مساحة مسقوفة لا جدار لها، تقوم على أعمدة أمام البيت، ملتصقة به وبارزة عنه.

٢٣. السوابط أو السابطات جمع ساباط، وهو ممر مسقوف علوي بين دارين، يقوم فوق الشارع مثل الجسر.

٢٤. المصاطب جمع مصطبة، وهي المنصة أو الدكة.

٢٥. ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، جمعية المستشرقين الألمانية، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٩٨٢ - ١٩٨٥م، ج٣، ص١٢٧ - ١٢٩.

٢٦. النملة، علي بن إبراهيم، كتاب الفوائد النفيسة الباهرة، في بيان حكم شوارع القاهرة، في مذاهب الأئمة الزاهرة لأبي حامد المقدسي، مجلة العصور، دار المريخ بالرياض، المجلد٣، العدد٢، ١٩٨٨م، ص٣١٣ - ٣٥٨، النص في الصفحات ٣١٧ - ٣٣٦.

٢٧. المقدسي الشافعي، أبو حامد، الفوائد النفيسة الباهرة، في بيان حكم شوارع القاهرة، في مذاهب الأئمة الزاهرة، تحقيق آمال العمري، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ١٠٣ صفحات، النص في ١٨ صفحة.

٢٨. الطبليات أو الطبالي هي الطاولات الخشبية المستديرة التي تعرض عليها البضائع.

الأدرنوي الحنفي أفندي، القاضي كامي محمد بن أحمد، رياض القاسمين، أو فقه العمران الإسلامي، تحقيق مصطفى بن حموش، نشر دار البشائر بدمشق، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٥٩٠صفحة، النص في ٥٣٠ صفحة.

٣٠. الفايز، إبراهيم بن محمد، البناء وأحكامه في الفقه الإسلامي، نشر المؤلف، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، وانظر أيضا مقدمة التحقيق لكل واحد من الكتب التي راجعناها في هذه المقالة.



ترجمة معاني القرآن الكريم إلى العبرية

جناح دائم لدارة الملك عبد العزيز
في مكتبة الإسكندرية

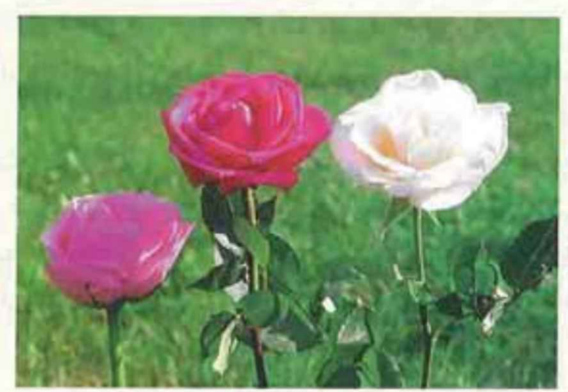
مقاطعة تجارية بريطانية ضد إسرائيل

توزيع جوائز أدبية وتقديرية
في السعودية والأردن والجزائر وبريطانيا

اكتشافات أثرية ومعارضة لترميم
مواقع تاريخية

حريق في جامع قرطبة

رحيل المساعيد وزفزاف وشاحاك



خاتمة المطاف

ماء الشعر

ترجمة معاني القرآن الكريم إلى العبرية

الملك فهد بن عبد العزيز

يعتزم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف إعداد ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة العبرية.

وأوضح معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المشرف العام على المجمع الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ أن قرار إعداد الترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة العبرية جاء على أثر اطلاع الهيئة العليا للمجمع خلال اجتماعها الأخير على ما بثته وسائل الإعلام المختلفة عن قيام إسرائيل بطباعة وتوزيع ترجمة محرّفة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة العبرية تتضمن أباطيل وأكاذيب مدسوسة على الإسلام وعلى كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن جهته أوضح الأمين العام لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الدكتور محمد سالم بن شديد العوفي أن إعداد المجمع لهذه الترجمة يجيء امتداداً لما يقوم به من جهود خيّرة لخدمة الإسلام والمسلمين بنشر كتاب الله وترجمة معانيه وتفسيره وتوزيعه في جميع القارات مراعياً منهج السلف الصالح ومستخدماً أحدث الوسائل التقنية متبعاً الأصول العلمية التي جعلت إصداراته من أدق الإصدارات في العالم.

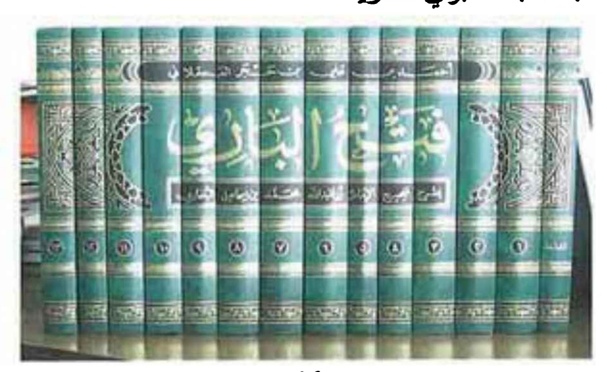
وأشار إلى أن المجمع يولي منذ وقت مبكر جل اهتمامه لإعداد الترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة العبرية، مفيداً أن المجمع بدأ في وضع خطة عمل لتنفيذ الترجمة الصحيحة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة العبرية.

صدور فتح الباري برواية أبي ذرّ الهروي



الأمير سلطان بن عبد العزيز

طُبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز آل سعود النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام كتاب «فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري» برواية أبي ذرّ الهروي عن مشايخه الثلاثة السّرخسي والمُستملي والكُشْميهني للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق وتعليق الشيخ عبدالقادر شيبة الحمد المدرس بالمسجد النبوي الشريف.



مجموعة فتح الباري

وتكتسب هذه الطبعة قيمتها من اجتماع شرح الحافظ ابن حجر ورواية أبي ذرّ الهروي وهي أتقن الروايات للجامع الصحيح، وهي التي اعتمدها ابن حجر في شرحه له، وقد برهن المحقق في مقدمته على أن ابن حجر قد اقتصر في شرح الجامع الصحيح على رواية أبي ذرّ الهروي له، كما أن هذا أول ظهور لهذه الرواية مطبوعة، وجميع طبعات «فتح الباري» السابقة إنما ضمت الشرح والرواية غير التي اعتمدها الحافظ ابن حجر، ولذلك كثيراً ما نجد أن ابن حجر يشرح كلمات لا وجود لها في المتن، أو نجد كلمات في المتن لا وجود لشرحها في «فتح الباري».

وقد استعان المحقق بنسختين خطيتين لهذه الرواية: إحداهما محفوظة في مكتبة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، والأخرى في مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة. طبع الشرح في ثلاثة عشر مجلداً، بالإضافة إلى مقدمته «هدي الساري».

وتأتي بادرة سموه إضافة جديدة إلى جهوده الخيرة في خدمة الإسلام والدعوة إليه، وفي نشر العلم الشرعي على جميع الأصعدة.

جناح دائم لدارة الملك عبدالعزيز في مكتبة الإسكندرية


الأمير سلمان بن عبد العزيز

وافق صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز على إقامة جناح الدارة الدائم بمقر مكتبة الإسكندرية بجمهورية مصر العربية.

وقد بدأت استعدادات المشاركة في هذا الحدث الثقافي، والتي تأتي امتداداً لمشاركة الدارة في مختلف الفعاليات الثقافية التي تقام داخل المملكة وخارجها، ومساهمة في عرض الواقع الحضاري والثقافي الذي تعيشه المملكة العربية السعودية، وتعميق العلاقات بين البلدين.

ويشتمل جناح الدارة على عرض إصداراتها التي تزيد على ١٠٠ كتاب، بالإضافة إلى أعداد مجلة الدارة، كما سيتم عرض إصدارات الأمانة العامة للاحتفال بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

اجتماع مؤسسة الفكر العربي في أبها

عقدت مؤسسة الفكر العربي أول اجتماعاتها في مدينة أبها بالمملكة العربية السعودية برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير رئيس المؤسسة، وناقش المجتمعون إستراتيجية المؤسسة ورؤيتها العامة والأنشطة التي ستضطلع بها، وسبل توسيع دائرة العضوية في المؤسسة، كما تم وضع تصور مبدئي للهيكل الإداري للمؤسسة، تمهيداً لمناقشته في الاجتماع الموسع الذي تقرر أن يعقد في بيروت خلال النصف الثاني من شهر أكتوبر/تشرين الأول القادم.

وتقوم فكرة مؤسسة الفكر العربي، التي تم الإعلان عن تأسيسها في أوائل شهر يونيو/حزيران الماضي في القاهرة، على العناية بمختلف جوانب الفكر من علوم واقتصاد وإدارة، وآداب وفنون، وتعميق الاهتمام بالدراسات المستقبلية، ورعاية الموهوبين من الشباب، وتشجيع عودة العقول العربية المهاجرة، وتشجيع حركة الترجمة من العربية وإليها، والإسهام في نشر الفكر العربي في العالم بالوسائل الفعالة.


الأمير خالد الفيصل

وتعود فكرة إنشاء هذه المؤسسة إلى الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز، وكان قد دعا إليها خلال كلمته في افتتاح «مؤتمر الثقافة العربية» في بيروت في مايو/آيار من العام الماضي، فقد دعا سموه «إلى اجتماع أرباب الفكر العربي في كل المجالات ـ تحت مظلة مؤسسة فكرية علمية، تعنى بالعلم والآداب والفنون، وتشجع الإبداع وتكرم المبدعين، وبخاصة أولئك الذين يتوجهون بنشاطهم إلى خدمة فكرة التضامن العربي ولمّ شتات الأمة.. على أن يتم التكريم من خلال تظاهرة فكرية تقام لتحقيق هذا الأمل كل عام في بلد عربي يستضيفها وينظمها».

وحضر اجتماع أبها عدد من الأعضاء المؤسسين هم: الأمير بندر بن خالد الفيصل، وعبدالعزيز البابطين، وصالح كامل، وطارق حجي، ومحمد ياسين دغمش، وأحمد الغز (ممثلاً بهية الحريري)، والدكتور عبدالله العثيمين، وهناك عدد آخر من المؤسسين منهم: الأمير محمد العبدالله الفيصل بن عبدالعزيز، والشيخة حصة صباح السالم الصباح مديرة دار الآثار الإسلامية، ونجيب ساويرس، ومحمد أبوالعينين عضو مجلس الشعب المصري، ومن الإمارات الدكتور مانع سعيد العتيبة وزير البترول السابق، والشيخ جمعة الماجد، والأمير هيثم بن طارق آل سعيد، والأمير فاتك بن فهر من سلطنة عمان، وغيرهم.

ردّ التراث المسلوب

بمشاركة ١٣ دولة إسلامية وعدد من الهيئات التي تعنى بحماية التراث الإسلامي، عقد مؤخراً بالقاهرة الاجتماع الدولي حول «الممتلكات الثقافية الإسلامية المسلوبة». وقد طالبت الدول المشاركة في المؤتمر بإعادة تراثها الثقافي المسلوب وخصوصاً الفلسطيني والسوري واللبناني منه.

وكان الهدف من هذا المؤتمر، الذي دعت إليه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، حشد التضامن العربي والإسلامي مع مطالب الفلسطينيين الشرعية في استعادة تراثهم الثقافي المسلوب. وقد طالب المؤتمر باعتماد ورقة القاهرة التي صدرت عن مؤتمر الأثريين العرب الذي عقد مؤخراً بالقاهرة، وطالبوا فيها بإعادة التراث الفلسطيني ورفض المحاولات الإسرائيلية الخاصة بالاستيلاء عليه.

كذلك دعا المؤتمر إلى حصر التراث الثقافي الإسلامي وتحديد المسروق منه ومكان وجوده لمطالبة الدول السالبة بإعادته، كما دعا المستشار القانوني للمجلس الأعلى للآثار المصري هشام سرايا إلى التمسك باتفاقية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «يونسكو» الموقعة عام ١٩٧٠م والعمل على تطويرها لمصلحة الدول التي نُهب تراثها وخصوصاً مصر والدول الإسلامية، وأكّد ضرورة رفض اتفاقية روما الموقعة عام ١٩٩٥م التي بدأ العمل بها عام ١٩٩٨م؛ لكونها حركة التفافية على اتفاقية عام ١٩٧٠م، والقصد منها تجريد الدول المسلوبة من شرعية استرداد تراثها بسبب الآليات غير المحددة التي وضعتها بنودها.

اقتناء مخطوط «ربع المهلكات»



من داخل المخطوط

اقتنى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مؤخراً مخطوطاً قيماً في المواعظ بعنوان «ربع المهلكات» وقد تضمن عدة كتب، منها كتاب «آفة اللسان» وكتاب في «كسر شهوة البطن والفرج» وكتاب في «آفة الغضب والحقد والحسد» وكتاب في «ذم الدنيا وتفصيل خدعها» وكتاب في «كسر حب المال وذم البخل» وكتاب في «نميمة الربا» وكتاب في «الكبر والعجب»، ثم كتاب في «مواقع الغرور»، وتضمنت هذه الكتب كثيراً من الفصول التي ترغب في الفضيلة وتبعد عن الرذيلة، وقد كتب المخطوط بخط مغربي على ورق أوربي في القرن الثاني عشر الهجري تقديراً. أما الجلد فهو أحمر قانٍ في وسطه ميدالية بيضاوية بداخلها رسوم وردية بارزة.

ويقع المخطوط في ١٨٠ ورقة مسطرته ٢٥ سطراً ومقاسه ٢٢.٥×١٦.٥سم ويحمل رقم ١٤٥٣٩.

طريق الفيل


آثار سعودية

اكتملت مؤخراً في المملكة العربية السعودية المسوحات الأثرية المتعلقة بالطريق التجاري القديم الذي يربط بين اليمن ومكة المكرمة المعروف بطريق الفيل، وقد تم تسجيل كثير من المواقع الأثرية المتمثلة في المحطات وموارد المياه والأعلام والنقوش الكتابية. وصرح الدكتور سعد الراشد، وكيل وزارة المعارف للآثار والمتاحف أن حصيلة أعمال هذا المسح ستنشر تباعاً في حولية الآثار «الأطلال» التي تصدرها الوكالة «مما يشكل انطلاقة للباحثين لإجراء المزيد من الدراسات عن هذا الطريق الذي يمثل أهمية تاريخية».

واستبعد الراشد وجود محاذير تتعلق بممارسة النشاط الأثري في المملكة، وأشار إلى الاهتمام الذي برز مؤخراً بقطاع الآثار خصوصاً بعد إنشاء الهيئة العليا للسياحة. كما أشاد الراشد أيضاً بالجهود التي بذلت لاستعادة جزء من الآثار الوطنية المتمثلة في استعادة أربع عشرة قطعة أثرية ثمينة عرفت بمجموعة برجر يعود تاريخها إلى أكثر من ٢٣٠٠ عام من متحف الساميات في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية.

جوائز للأديبات

أعلن الدكتور حسن بن فهد الهويمل رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في الرياض بالمملكة العربية السعودية مؤخراً أسماء الفائزات في المسابقة الأدبية التي خصصتها الرابطة للأديبات في فروع الأدب المختلفة، وكانت نتائجها كالآتي:

في مجال الشعر جاءت الأولى نبيلة الخطيب من الأردن عن ديوانها «عقد الروح»، والثانية أمينة محمد المريني من المغرب عن ديوانها «عاشقة»، والثالثة أماني حاتم بسيسو من الأردن عن ديوانها «يا طائر الأيك».

وفي المجموعات القصصية كانت الأولى فاطمة محمد شنون من سورية عن مجموعتها المعنونة «المفسدون في الأرض»، والثانية سكينة قدور من الجزائر عن مجموعتها القصصية «فوهة الجرح»، والثالثة صورية إبراهيم مروشي من الجزائر عن مجموعتها «الأرض الجريحة»، والثالثة مكرر آمال لواتي من الجزائر عن مجموعتها «طيف اليقين».


حسن الهويمل

وفي مجال الرواية جاءت خديجة فشتالي من الجزائر عن روايتها «مغامرات الخشرم الصغير»، والثانية رعد الناصر من الأردن عن روايتها «مخيم يا وطن»، والثالثة منى منيف العتيبي من السعودية عن روايتها «العودة»، وقد حجبت جائزة المسرحية.

رحيل عميد الصحافة الكويتية

شيعت الكويت في الحادي عشر من يوليو/تموز الماضي عميد الصحافة الكويتية وأول رئيس تحرير صحيفة كويتية يومية عبدالعزيز المساعيد الذي توفي في جنيف عن عمر يناهز ٩٠ عاماً. وكان المساعيد هو أول من أسس صحيفة يومية في الكويت هي صحيفة «الرأي العام»

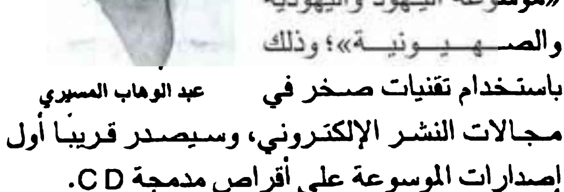

عبدالعزيز المساعيد

عام ١٩٦١م، وقد ساهم في إدارتها صحفيون من سورية، وفلسطين، وأسس أيضًا مجلة «النهضة» الأسبوعية الخاصة بقضايا الأسرة والفن والأدب، ثم أسس بعد ذلك مجلة «سعد» فكانت أول مجلة للأطفال في المنطقة، ولم يقف الراحل على النشر باللغة العربية، بل أسس صحيفة «ديلي نيوز» الناطقة باللغة الإنجليزية. وعمل مراسلاً لصحيفة «الحياة» التي كانت تصدر في لبنان، بالإضافة إلى إسهاماته في تأسيس عدد من المجلات المتخصصة التابعة لجمعيات النفع العام، وقد وصف المساعيد بـ «مردوخ» الكويت.

ولم تقف إسهامات المساعيد عند الصحافة، بل تخطاها إلى مشاركة فعالة في الحياة السياسية والنيابية، فكان عضواً في مجلس الأمة خلال الستينيات عدة دورات، ثم عاد إلى الواجهة السياسية مرة أخرى في بداية التسعينيات عندما قرر الشيخ جابر الأحمد الصباح إنشاء المجلس الوطني الكويتي ليكون بديلاً عن مجلس الأمة الذي حله الشيخ جابر عام ١٩٨٦م بعد أن نشبت بعض الخلافات بين الحكومة ونواب المعارضة.

ولكن المساعيد فقد حضوره الإعلامي حينما قرر فجأة بيع صحيفة «الرأي العام» لمصلحة شركة الجزيرة التي يملكها رجل الأعمال الكويتي مصطفى بودي، ولم يحتفظ المساعيد إلا بـ ٤٠٪ من أسهم الصحيفة.

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية



عبد الوهاب المسيري

تعاقدت شركة «صخر» لبرامج الحاسب لصناعة البرمجيات العربية مع «بيت العرب للتوثيق العصري والنظم» لإصدار «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»؛ وذلك باستخدام تقنيات صخر في مجالات النشر الإلكتروني، وسيصدر قريبًا أول إصدارات الموسوعة على أقراص مدمجة CD.

وتعد هذه الموسوعة سادسة موسوعة تتناول موضوع اليهود واليهودية، الصهيونية على مستوى العالم، وأول موسوعة يقوم بكتابتها مفكر عربي هو الدكتور عبدالوهاب المسيري الذي يعد أحد المفكرين الأقلاء الذين اهتموا بموضوع اليهود واليهودية والصهيونية، والموسوعة مكتوبة باللغة العربية.

وتتناول الموسوعة تاريخ العبرانيين في العالم القديم، ومراحل تكوين الجماعات اليهودية في كل بلدان العالم، وتوزيعاتها، وسماتها الأساسية، وهياكلها التنظيمية، وعلاقة أفرادها بالمجتمعات التي يوجدون فيها وبالدولة الصهيونية.

تتناول الموسوعة كذلك سيرة أشهر الأعلام من اليهود وغيرهم ممن ارتبطت أسماؤهم بتاريخ اليهود وفرقها وكتبها الدينية وشعائرها وأزمتها في العصر الحديث وعلاقتها بالصهيونية، وبمعاداة السامية. كما تتناول الموسوعة بالتحليل الحركة الصهيونية ونشاطاتها ومدارسها وأعلامها والجوانب الأساسية للدولة الصهيونية.

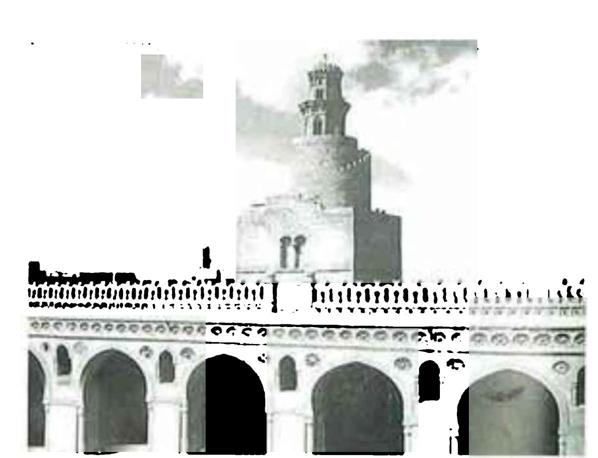
وتعد هذه الموسوعة حلقة في سلسلة التعاون بين شركة صخر لبرامج الحاسوب و«بيت العرب للتوثيق العصري والنظم» ويجري الآن العمل على إصدار موسوعات أخرى سيتم الإعلان عنها قريبًا.

لا لترميم المواقع الأثرية

وجه نحو ٤٠ من الشخصيات البارزة كتابًا إلى سوزان مبارك قرينة الرئيس المصري حسني مبارك يندون فيه بالأضرار الناجمة عن عملية ترميم المواقع الأثرية في القاهرة القديمة مؤكدين عدم كفاءة القائمين بها.

وأوكلت عمليات ترميم ١٢٠ موقعًا أثريًا إلى تسع شركات للبناء والأشغال العامة تملك قلة منها خبرة في فن الترميم، كما أفاد الموقعون على الرسالة.

وقال الموقعون: إن «الأعمدة القديمة لعدد من المساجد استبدلت بالإسمنت بينماوضعت بلاطات وفسيفساء جديدة مكان تلك القديمة»، وأشاروا


مسجد ابن طولون

خصوصاً إلى عملية ترميم مسجد ابن طولون الذي يعد من أبرز الآثار الإسلامية التي احتفظت برونقها، ومسجدي قايتباي محمد ومحمود الكردي.

وأضافوا أن «الأمر الأكثر خطورة هو حقن الجدران بإسمنت بورتلاند الذي منعت اليونسكو استخدامه في عمليات الترميم الأثرية منذ أعوام عدة؛ لأنه يحوي مكونات كيماوية تدمر الهياكل الأصلية».

وقال أحد الموقعين: «إن تغييرات أدخلت على «مسجد ابن طولون ٨٧٦ ـ ٨٧٩هـ» مثل تبليط ٩٠٠ متر مربع من البهو الداخلي الذي لم يكن كذلك أبداً، إضافة إلى تغييرات أخرى»، وأضاف «لقد أعملوا مطارقهم للتكسير في الجدران التي وجدوا فيها تصدعات وشقوقاً».

ومن الموقعين على الرسالة ماريان باروكان من جامعة السوربون في باريس، وأوليج جرابر من جامعة هارفارد الأمريكية، وأندريه ريمون من إكس إن برفانس، ومدير مكتبة الإسكندرية إسماعيل سراج الدين.

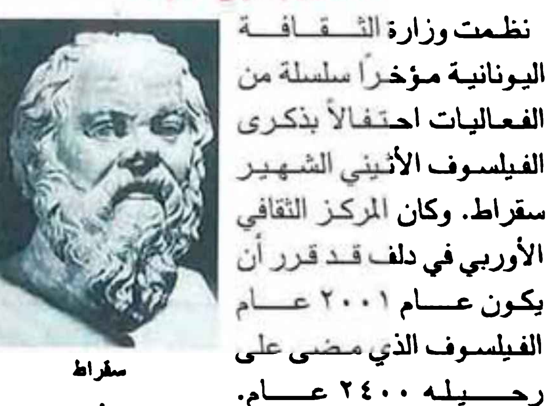
فهرس مخطوطات مكتبة «مما حيدرة»

صدر مؤخراً عن مؤسسة الفرقان فهرس مخطوطات مكتبة «مما حيدرة» في دولة مالي، ويشمل الفهرس الذي وضعه عبدالقادر حيدرة وحرره أيمن فؤاد سيد، نحو ثلاثة آلاف مخطوطة جاءت في علوم مختلفة منها: علوم الفقه وأصوله، والحديث وأصوله، والقرآن الكريم وعلومه، والتوحيد، والفلك، والنحو، وغير ذلك.

بعض هذه المخطوطات لها أهمية كبيرة خاصة ما يتعلق منها بتاريخ مالي وفتاوى علمائها، وطباع قبائلها، والعلاقات بين شعوب المنطقة والدول الإسلامية المجاورة مثل المغرب والجزائر وتونس وليبيا.

ويذكر أن بعض هذه المخطوطات مزخرفة ومنمنمة، وبعضها زخرفت أغلفته، بينما نجد أن أغلب مخطوطات هذه المجموعة قد خلت من الأغلفة والعناوين مما يصعب عملية التعرف إليها، وبعضها في حالة سيئة، ويحتاج إلى ترميم وصيانة، كما أن المفهرس لم يتبع القاعدة العامة للفهارس من جهة الترتيب الألفبائي، فقد رتب محتوياته بترتيب أرقامها المسلسلة في المكتبة.

الاحتفال بذكرى سقراط


سقراط

نظمت وزارة الثقافة اليونانية مؤخراً سلسلة من الفعاليات احتفالاً بذكرى الفيلسوف الأثيني الشهير سقراط. وكان المركز الثقافي الأوربي في دلف قد قرر أن يكون عام ٢٠٠١ عام الفيلسوف الذي مضى على رحيله ٢٤٠٠ عام.

واشتملت الفعاليات لقاءات لفلاسفة من مختلف أنحاء العالم، كما تم عرض مسرحيات، وقدمت برامج خاصة. كذلك عرض كتاب للشاعر اليوناني كوستاس فارفاليس الذي يركز فيه على حياة سقراط ونشأته، ونظم معرض للكتاب في قصر زابيو وسط أثينا، وانتقل المعرض بعد ذلك إلى مدينة الأدب اليونانية دلف تحت إشراف المركز الثقافي الأوربي.

رحيل يوسف شرورو

توفي في أواخر شهر يونيو/حزيران الماضي في مدينة لندن الروائي والمترجم الفلسطيني يوسف شرورو الذي عاش مرارة الغربة وحلم العودة إلى أرض الوطن، وناضل كثيراً من أجل وطنه خصوصاً في المجال الدبلوماسي بسعيه إلى كسب تأييد شخصيات وهيئات بريطانية إلى جانب الحق الفلسطيني.

وللروائي الراحل كثير من الإسهامات في الحركة الأدبية العربية الحديثة، فكتب في مجال القصة والرواية، ونشرت مجلة ودار «الآداب» البيروتية معظم أعماله، ومنها: «الحزن يموت أيضاً»، و«زمن الثعابين»، و«النغل»، و«زورق من دم».

وكانت قد ربطت بينه وبين الكاتب البريطاني كولن ولسون علاقة صداقة وطيدة امتدت نحو أربعين عاماً ترجم له خلالها كثيراً من أعماله الأدبية منها: «ضياع في سوهو»، و«ما بعد اللامنتمى»، و«الشك»، و«أصول الدافع الجنسي».

إنقاذ مدينة


آثار يمنية

قرر مجلس الوزراء اليمني منع البناء منعاً باتاً في مدينة زبيد التاريخية؛ وذلك من أجل إنقاذ هذه المدينة من الانهيار، والمحافظة على طابعها المعماري الفريد من أي تشويه، وذلك في إطار خطة تنفيذ مشروعات إنقاذية عاجلة للبنى التحتية للمدينة.

وستقوم مؤسسة كي إف دبليو الهولندية الداعمة للمشروع بإعداد الدراسات الخاصة بمجاري مدينة زبيد ليبدأ تنفيذ المشروع، الذي قدرت تكلفته بـ ١٣ مليون مارك ألماني، خلال الربع الأول من العام القادم.

وتقرر أن تقوم منظمة جي تي زد الألمانية بتمويل مشروع جمع القمامة وتصريفها في المدينة، على أن تتولى وزارة الأشغال العامة تنفيذ مشروع رصف شوارع المدينة وإنارتها، وترك للصندوق الاجتماعي للتنمية إعداد الدراسات المتعلقة بتمويل مشروع ترميم جامع الأشاعر وبوابته، وسور المدينة وتنفيذه، بتكلفة قدرت بـ ٢٥٠ ألف دولار أمريكي.

جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية بالأردن


مؤنس الرزاز

أعلن في العاصمة الأردنية عمان أسماء الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، فمنح الروائي مؤنس الرزاز جائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠٠٠م في حقل الآداب «الرواية» عن مجمل تجربته الإبداعية في هذا المجال، وتناصف جائزة الدولة في مجال العلوم الاجتماعية «أبحاث الديمقراطية وحقوق الإنسان» كل من الدكتور رشاد السيد والدكتور نظام عساف، وفي حقل العلوم كانت جائزة مبحث الهندسة المعمارية من نصيب الدكتور نظير نايف أبوعبيد، ونال الفنان أديب الحافظ جائزة الفنون «حقل التمثيل».

وتناصف جائزة الدولة التشجيعية في حقل العلوم الاجتماعية «مبحث دراسات المرأة» القاصة الباحثة سهير التل والباحث موسى شتيوي، كما تناصف أيضاً الدكتور عبدالإله أيوب، والدكتور وليد خالد أبوسلامة جائزة العلوم «مبحث الحاسوب»، بينما منحت الجائزة الخاصة بالفنون «في مجال الأداء والفرق الشعبية»، لفرقة الرمثا للفلكلور الشعبي، وحجبت جائزة الدولة التشجيعية في حقل الأدب

«الترجمة» لتواضع مستوى الأعمال المقدمة.

الجدير بالذكر أن قيمة الجائزة التقديرية تبلغ عشرة آلاف دينار أردني، بينما تبلغ قيمة جائزة الدولة التشجيعية خمسة آلاف دينار.

اكتشافات أثرية جديدة في ليبيا



آثار ليبية

عثر أحد سكان مدينة (أبوكماش) شمال غرب العاصمة الليبية طرابلس، على مقبرة أثرية قديمة نادرة يعود تاريخها إلى القرن الأول قبل الميلاد تحتوي على مجموعة كبيرة من القبور الهرمية الشكل المغطاة بزخارف ورسوم نادرة إلى جانب مجموعة من التيجان والأعمدة والأواني الفخارية.

وقد صرح علي الخضوري مدير مصلحة الآثار الليبية أن لهذا الاكتشاف أهمية تاريخية وعلمية لأنه يسلط المزيد من الضوء على الفترات الحضارية التي شهدتها هذه المنطقة، وتعد حلقة وصل واتصال بين ليبيا وتونس المجاورة، وأضاف الخضوري أنه يجري حاليًا توسيع البحث حول المقبرة وحصر المكتشفات التي تم العثور عليها.

وتطرق الخضوري إلى العلاقة الوطيدة التي تربط بين علماء الآثار الليبيين والألمان، وأشار إلى أن أحد الباحثين الألمان، وهو الدكتور هيلموت من جامعة هامبورغ المتخصص في مجال الهجرة والمناخ والبيئة في العصور القديمة هو الذي اكتشف أول مومياء في ليبيا، وهي موجودة الآن في منطقة فزان، وأضاف أن خبراء الآثار لاحظوا بعد اكتشاف تلك المومياء أن فن التحنيط الذي كان الليبيون القدماء قد مارسوه قديمًا يختلف عن التحنيط الفرعوني، ويعد مدرسة مستقلة بذاته.

ثم تحدث عن التعاون بين الباحثين الليبيين ونظرائهم من بريطانيا وألمانيا، وقال: «إن هذه الجهود المشتركة مكنتنا من التعرف إلى كثير من معالم منطقة جرمة الأثرية التي يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد تقريبًا والمتكونة من مدينة جرمنتية ومدينة أخرى تعود إلى العهود الإسلامية المبكرة تتضمن مجموعة من البيوت والقلاع والمساجد، هي تحت الترميم حاليًا»، وأضاف: «أن جملة الاكتشافات الحديثة تتضمن أيضًا تمثالين لإله الخصب والثمار بالقرب من مدينة «شحات» الأثرية الواقعة على الساحل الشمالي الشرقي إلى جانب معبد يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد في المنطقة نفسها، ويعد من أهم المعابد التي اكتشفت في حوض البحر المتوسط خلال الـ ٥٠ عامًا الماضية».

حملة مقاطعة

اتسع نطاق حملة المقاطعة التجارية ضد إسرائيل التي تقودها منظمة التضامن مع الشعب الفلسطيني في بريطانيا، فقد انضم مؤخرًا إلى الحملة عدد من الممثلين والكُتّاب والسياسيين والمحامين أبرزهم: الممثلة إيما تومبسون، والكاتب المسرحي هارولد بنتر، والكوميدي إليكسي سيل، والنائب السابق أنطوني بن، والمحامي المعروف مايكل مانسفيلد، والكاتب مايكل روزن.

وتسعى المنظمة إلى أن تكون هذه الحملة مشابهة للحملة التي نظمت إبان الحكم العنصري في جنوب إفريقية، وذلك استنكارًا للعدوان الإسرائيلي ضد الفلسطينيين، ومن جانبها نشطت مجموعات الضغط اليهودية، وظلت تمارس الضغط على حكومة جنوب إفريقية والأمم المتحدة حتى تحول دون صدور قرارات عن مؤتمر تنظمه الأمم المتحدة

في جنوب إفريقية تدين إسرائيل والحركة اليهودية، وتجري الترتيبات في الخفاء للتنسيق بين ممثلي المنظمات اليهودية والمسؤولين الإسرائيليين من أجل القيام بحملة إعلامية دولية كبرى لهذه الغاية.



متحف جديد في مصر



أبو الهول

أعلن الدكتور جاب الله علي جاب الله الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار في مصر أن المتحف القومي الجديد المزمع إقامته ستصل تكاليفه المبدئية إلى نحو مليار جنيه، وسيوفر نحو ٥٠٠٠ فرصة عمل جديدة، ويحقق عائداً للدولة يقدر بـ ١٥٠ مليون جنيه سنوياً، مؤكداً أن الموازنة العامة للدولة لن تتحمل أي أعباء مالية نتيجة هذه التكاليف.

وكشف الدكتور جاب الله أن تمويل إنشاء المتحف الجديد سيكون متاحاً دون الاعتماد على الدولة، ويتحمل المجلس الأعلى للآثار ٢٠٪ من التكاليف، والبنك الدولي نسبة ٣٠٪، والصناديق العربية نحو ٣٥٪، وتبرعات ١٠٪، وقروض ميسرة بنسبة ٥٪، وأن هذا المتحف سيرى النور بعد ست سنوات من الدراسات الجادة وأعمال التنفيذ، وسيحتوي على نحو ١٥٠ ألف قطعة أثرية.

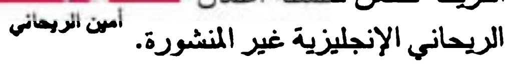
وقال: إن هيئة الآثار قررت إنشاء متاحف إقليمية في كل محافظات مصر لإنقاذ الآثار المكدسة في المخازن والتي لم تكتشف بعد، وإنه تم التعاقد مع ١٨ بيت خبرة مصرية لتطوير المتاحف الحالية وتحديثها علاوة على الاتجاه الجديد الذي تتبعه الهيئة حالياً بإنشاء متاحف المواقع في صان الحجر، وكوم أشيم، وفي أسوان، والعلمين، وسقارة، وغيرها من المواقع.

وأعلن الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار أن اليونسكو وافقت على إنشاء المتحف القومي للحضارة المصرية بالفسطاط على مساحة ٢١.٥ فداناً، وسيتم وضع حجر الأساس للمتحف في الخريف المقبل، وسيضم مراحل الحضارة المصرية ونشأة الإنسان إلى الآن.

وأشار إلى أن المساحة الحالية والصادر بها قرار جمهوري عام ١٩٩٢م والبالغة ١١٧ فداناً لإقامة المتحف المصري الجديد وملحقاته الثقافية، قد لا تتسع للتوسعات المنتظرة، وأنه يجري الآن اتخاذ الإجراءات القانونية لنزع ملكية نحو ١٠٩ أفدنة أخرى بالمنطقة والتي من المتوقع أن تكون منطقة جذب سياحي كبير من المصريين والأجانب تفوق عدد زوار المتحف المصري بميدان التحرير والبالغ عددهم حالياً نحو ٣.٢٢ ملايين زائر بعائد سنوي نحو ٤٩.٢ مليون جنيه.

رسائل إلى العم سام

هذا هو عنوان المخطوطة الإنجليزية للكاتب اللبناني أمين الريحاني التي صدرت عن دار بلاتفورم إنترناشونال في واشنطن بالتعاون مع وزارة الثقافة في بيروت ومتحف الريحاني في الفريكة ضمن سلسلة أعمال الريحاني الإنجليزية غير المنشورة.



أمين الريحاني

ويضم الكتاب، الذي يقع في ٥٤ صفحة من الحجم الكبير، أربع رسائل مطولة وجهها الكاتب إلى شخصية ترمز إلى الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٧ - ١٩١٩م).

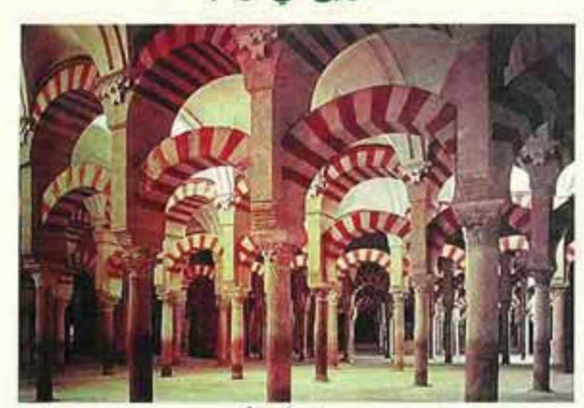
ودافع المؤلف في هذه الرسائل عن دور اللبنانيين

والسوريين وسائر الجاليات العربية في أمريكا خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، وأبرز نضالهم ضد دول المحور وبخاصة ضد الدولة العثمانية، كما تطرق المؤلف إلى الدور الذي أداه في المكسيك عام ١٩١٧م وتأسيسه فروعًا للجنة تحرير سورية ولبنان، وعملية إيقاظ الشعور الوطني لمناهضة دول المحور والعمل على الاستقلال.

وقد أشار بعض هذه الرسائل إلى عدد من الاجتماعات التي كان يعقدها المؤلف مع أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي والفرنسي والإنجليزي في عدد من الدول مما يعني احتمال وجود وثائق في أرشيفات وزارات الخارجية في تلك الدول توضح، بجلاء أكبر، دور الكاتب في تلك الفترة.

الجدير بالذكر أن هذا الكتاب هو الثالث في هذه السلسلة بعد كتابيه «في النقد الفني»، ومسرحية «وجدة».

حريق في قرطبة



جامع قرطبة

تعرض جامع قرطبة الشهير في إسبانيا مؤخرًا لحريق قضى على أكثر من ٥٪ من المحتويات الأرشيفية للجامع التي يعود تاريخ بعضها إلى عدة قرون، قبل أن يتمكن رجال الإطفاء من السيطرة على النار.

وقد أصدرت رئيسة بلدية قرطبة، روزا أغيلار، بيانًا مقتضبًا قالت فيه «إننا لن نعرف حقيقة ما ضاع وسط ألسنة النار، إلا بعد ترتيب ما بقي من الموجودات الأرشيفية ثانية»، وهنأت رئيسة البلدية رجال الإطفاء الذين لولا «إسراعهم بإخماد النار لحدثت كارثة حضارية»، في إشارة إلى المحتويات النفيسة بالجامع التي تشمل: ملفات، ورسائل، وكتبًا، ورسومًا مضى على وجودها فيه نحو ١٢٠٠ عام على الأقل.

ويعد جامع قرطبة، الذي بناه الخليفة الأموي عبدالرحمن الأول عام ٧٨٠م، من أشهر الجوامع وأكبرها خارج العالم الإسلامي، وهو معروف بأعمدته الداخلية ومقوساته الداعمة التي يبلغ عددها أكثر من ٥٠٠، وقد أدخلت عليه عدة تحسينات وإصلاحات خلال ٢٠٠عام، كان آخرها عام ٩٨٧م، وهو الوضع الذي عليه الآن، وتبلغ مساحة المسجد ٢٣.٤٠٠ متر مربع، وهو مقام في الموقع الذي كانت فيه كنيسة «سان فيسنت» التي أبقى عليها البناؤون بجواره حتى الآن.

مؤتمر مكتبات الاستشراق

عقد مؤخرًا في سانت بطرسبورغ المؤتمر الدولي الثالث والعشرين لجمعية مكتبات الاستشراق الأوربية بمشاركة نحو ٥٠ ممثلاً عن المراكز العلمية الضخمة والمكتبات من روسيا والدول العربية وأوربا والولايات المتحدة.

وكان الموضوع الرئيس في مناقشات المؤتمرين - كما جاء في صحيفة الحياة، في عددها رقم ١٣٩٩٢ - هو استخدام تكنولوجيا المعلومات الحديثة لدراسة معالم الثقافة الإسلامية وتعميمها وحفظها. وتحدث في المؤتمر الباحث الألماني لوتز فيدرخولد عن المشكلات والنتائج الأولى لمشروعه الخاص بإنشاء مكتبة إلكترونية لمخطوطات الشرق الأوسط وشمال إفريقية.

وتحدث ممثل معهد آسيا الوسطى الفرنسي أفتيم عن تجربته في العمل على تصنيف عدد من مخطوطات القرون الوسطى المحفوظة في معهد الاستشراق الذي يحمل اسم «أبي الريحان

البيروني» في أوزبكستان، وتناول الإيراني سعيد نجافي من كوما في تقريره موضوع دراسة مخطوطتين نادرتين موجودتين في مكتبة «آية الله ماراشي نجافي» العامة، كما تحدث ممثلون عن مكتبات كامبريدج وما نشستر ولندن عن مشكلات وضع (كاتالوجات) معاصرة والعمل في المخطوطات الشرقية المحفوظة فيها.

وقدم العلماء الروس معلومات عن دراسة المخطوطات الإسلامية الموجودة في مكتبات موسكو وسانت بيتربورغ الضخمة، وغيرها من المدن الروسية الأخرى، وقُدم في المؤتمر عدد من التقارير، منها تقرير عن «نظام الخدمات الإلكتروني لدى مكتبة جامعة إمارة الشارقة»، وآخر عن «مكتبات في المغرب».

رحيل عدو الصهيونية

توفي في الثالث من يوليو/تموز الماضي عن ٦٩ عامًا في مدينة القدس المحتلة البروفيسور إسرائيل شاحاك أستاذ الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية بعد أن عثر بكرسي، وارتطم رأسه بحافته مما أودى بحياته.

ويعدّ شاحاك من أكبر المناهضين للفكر الصهيوني، ومن أشد المدافعين ـ منذ سنوات طوال ـ عن حقوق الإنسان العربي ضد الكيان الصهيوني العنصري، وقد تجول شاحاك في كل أنحاء أوربا وأمريكا شارحًا خطورة السياسة التي تنتهجها إسرائيل، والتمييز العنصري الذي تمارسه ضد العرب، وكتب في ذلك المئات من المقالات في مختلف الصحف والمجلات، وألقى عددًا من المحاضرات، وأجرى كثيرًا من المقابلات في مختلف وسائل الإعلام، بل أقام مع الكاتب الإسرائيلي مردخاي أبي شاؤول «لجنة حقوق الإنسان والمواطن».

وألّف البروفيسور الراحل كتبًا تفضح المزاعم والأكاذيب اليهودية، فصدر كتابه الأول «التاريخ اليهودي والديانة اليهودية»، متضمنًا تفنيدًا للأكاذيب التي أوردها اليهود في هذا التاريخ، وتطرق فيه أيضًا إلى التعامل غير الإنساني من جانب اليهود المتدينين مع غير اليهود، وقد أثار هذا الكتاب موجة من الغضب في أوساط اليهود، وعملوا على مقاطعته.

ثم صدر له كتاب «السر المكشوف: إسرائيل والقنبلة النووية، والسياسة الخارجية»، ثم صدر له في عام ١٩٩٩م بالمشاركة مع البروفيسور نورتون مازفنسكي ـ أستاذ التاريخ الأمريكي في جامعة سنتل كونكتكت ستيت ـ كتاب «اليهود المتطرفون في إسرائيل».

وكان يعكف قبل وفاته على إعداد كتاب جديد، بالتعاون مع مازفنسكي أيضًا، يتوقع أن يحدث ضجة كبيرة عند صدوره، تناول فيه التمييز العنصري في معاملة المرأة اليهودية، وحقوقها في الشريعة اليهودية، ومعاملة الرجل اليهودي للمرأة.

جائزة حداد للرواية

مالك حداد

أقيم مؤخرًا في الجزائر حفل توزيع الجائزة الكبرى للرواية الجزائرية، وجاءت الجائزة تحت اسم «جائزة مالك حداد للرواية الجزائرية» تخليدًا لذكرى الكاتب الجزائري الراحل مالك حداد، وستمنح الجائزة كل عامين لأفضل عمل روائي عربي يكتبه كاتب جزائري مقيم في الجزائر، وكانت الروائية أحلام مستغانمي هي التي أطلقت فكرة هذه الجائزة قبل أكثر من عشر سنوات، ثم بادرت رابطة كُتّاب الاختلاف باحتضان المشروع وتجسيده على أرض الواقع، بعد أن وجد التجاهل من الهيئات الثقافية والهيئات الرسمية طوال هذه المدة.

وقد أعلنت لجنة الجائزة المكونة من الروائي سهيل إدريس، والناقدة يمنى العيد ،والشاعر شوقي بزيع، أنها منحت الجائزة في دورتها الأولى هذا العام

مناصفة بين الروائي إبراهيم سعدي عن روايته «بوح الرجل القادم من الظلام»، والروائية ياسمينة صالح عن روايتها «بحر الصمت».

وتبلغ قيمة الجائزة التي أسهم في دفع تكاليفها التلفاز الجزائري والديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة ٤٠٠٠ دولار، وستتكفل دار الآداب بطبع العملين الفائزين في الخارج، بينما ستتكفل الرابطة بطبعهما في الجزائر.

جائزة لدوريس ليسنج


دوريس ليسنج

فازت الروائية البريطانية المعاصرة دوريس ليسنج مؤخراً بالجائزة الإسبانية الأدبية المعروفة باسم «الأمراء»، وتبلغ قيمتها ٣٠ ألف يورو مع تمثال الفنان الإسباني المشهور خوان ميرو.

وامتدحت لجنة تحكيم الجائزة الكاتبة البريطانية، وعدّتها أشهر الوجوه الأدبية في العصر الحديث؛ لأنها أفنت حياتها في الأعمال الروائية، وكافحت كثيراً من أجل الحرية. وتتناول أعمال ليسنج المسرحية تحليل الصراعات الإنسانية، وهي تبلغ من العمر ٨١ عاماً، فهي من مواليد عام ١٩١٩م.

رحيل الروائي المغربي زفزاف

زفزاف

ودعت المغرب في الثالث عشر من يوليو/تموز الماضي الكاتب والقاص المغربي محمد زفزاف بعد معاناة دامت سنتين مع مرض السرطان، وكان الكاتب الراحل قد عاد إلى بلاده بعد رحلة علاجية طويلة قضاها في فرنسا تكفل بنفقاتها العاهل المغربي محمد السادس، وبذا تكون المغرب قد فقدت اثنين من أشهر أدبائها في زمن وجيز، فقد رحل الكاتب والناقد المسرحي المغربي محمد الكغاط قبل أسبوعين فقط من رحيل زفزاف، الذي يعد عميد القصة المغربية القصيرة.

ولد زفزاف عام ١٩٤٥م في سوق الأربعاء الغرب (قرب القنيطرة)، ودرس الفلسفة في كلية الآداب بالرباط، وعمل بالتدريس في المدارس الثانوية بالدار البيضاء، وانضم إلى اتحاد كتّاب المغرب عام ١٩٦٨م.

ينتمي زفزاف إلى الجيل المؤسس في الحركة الروائية والقصصية المغربية، جيل ما بعد الاستقلال، وله مساهمات كثيرة تربو على الخمسين كتاباً بين قصة قصيرة ورواية، وبلغت أعماله الكاملة - التي كان يقول عنها دوماً إنها ناقصة - أربعة أجزاء، وحصلت الترجمة الفرنسية لروايته «بيضة الديك» على جائزة الأطلس عام ١٩٩٨م.

المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربي

من المقرر أن ينظم اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة ندوة بعنوان «المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربي عبر العصور» خلال نوفمبر/تشرين الثاني المقبل.

وتتناول أبحاث المؤتمر عدة محاور هي: طبيعة شبه الجزيرة العربية وأثرها في تكييف الحياة الثقافية والفكرية عند العرب، وظهور الإسلام، ودور المؤسسات الدينية في نشر الوعي الثقافي والتعليم والتعلم، ومولد الفن الإسلامي وأهم خصائصه ومميزاته العامة، واهتمام الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء بعقد مجالس العلم والثقافة، والمكتبات، ورحلات العلماء وطلاب العلم والتجار بين المغرب والمشرق، ووسائل تمويل المراكز الثقافية، وجمود النشاط الثقافي في العالم العربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، والتصوف، والحملة الفرنسية على مصر، وتنوع معاهد العلم والمعرفة ووسائل الإعلام.

الضبيب، أحمد بن محمد/ اللغة العربية في عصر العولمة.. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ٣٢٤ص.



يحمل عنوان الكتاب عنوان الفصل الأول منه، ويسعى الكتاب في مجمله إلى دراسة واقع اللغة العربية الفصيحة وتشخيصه، ومحاولة الاقتراب منها في الكتابة والحديث.

ويضم الكتاب الموضوعات الآتية: «اللغة العربية في عصر العولمة»، و«في ظل العولمة: علاقتنا باللغة الأجنبية»، و«المصطلح العربي في عصر العولمة»، و«مستقبل الثقافة العربية من خلال اللغة»، و«اللغة العربية والإعلام: الواقع والمأمول»، و«لقاء مع مجلة المعرفة» تناول فيه موضوعات: اللغة والحضارة، وأسباب ضعف لغة المتكلمين باللغة العربية اليوم، وتعليم اللغة الإنجليزية في المرحلة الابتدائية وأثر ذلك في لغة الطفل العربي، وتعريب التعليم الجامعي، واللغة العربية وسوق العمل، والفصحى والعامية، وغير ذلك من موضوعات.

الفرفور، ولي الدين محمد صالح/ المذهب في أصول المذهب على المنتخب.. دمشق: دار الفرفور، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ٢مج ١٣٧٢ص.

نال كتاب «المنتخب في أصول المذهب» المشهور بالمنتخب الحسامي - وهو من كتب أصول الفقه على مذهب الأحناف لحسام الدين محمد بن محمد الأخسيكتي (ت٦٤٤هـ) - عناية العلماء منذ تأليفه، فتصدى لشرحه جمع غفير من العلماء منهم: الإمام عبدالعزيز البخاري (ت٧٣٠هـ) بشرح سمَّاه «التحقيق»، والإتقاني (ت٧٥٨هـ)، وسمى شرحه «التبيين»، والصغناقي (ت٧١١هـ) وسمى شرحه «الوافي»، وأبو محمد عبدالحق بن محمد أمين بشرح سماه «النامي»، وغيرهم.

ويأتي هذا الشرح امتداداً لهذه العناية، وقد قسّم الشارح الكتاب ثلاثة أقسام: الأول «الأدلة التشريعية: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس»، والثاني «الأحكام المشروعة وما يتعلق بها»، والثالث «حروف المعاني وما يتعلق بها من أحكام».

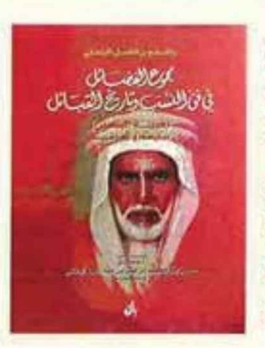
الحربي، دلال بنت مخلد/ إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.. الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ١٢١ص (السلسلة الثانية؛ ٣٦).



تتناول هذه الدراسة المكثفة إسهام المرأة في منطقة نجد في وقف الكتب في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وهي أول دراسة مستقلة تتناول هذا الموضوع في ضوء المصادر والوثائق التراثية.

تعرضت الباحثة مبدئياً - بعد عرض خطة الدراسة - إلى تعريف الوقف، والحديث عن فضله وأهدافه وإسهام المرأة فيه، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن دور المرأة في نجد في وقف الكتب ، وهو أهم أجزاء الدراسة، فقدمت الباحثة وصفاً لبعض وقفيات نساء نجد، ووقفيات بعض أميرات آل سعود، ووقفيات لنساء أخريات من الرياض وأشيقر وحائل. وقد حرصت الباحثة على معرفة الظروف والطرائق التي تم بها وقف تلك الكتب، ومعرفة نوعيات الكتب الموقفة، وأسباب الوقف.

وختم الكتاب بنتائج الدراسة بواسطة الجداول والتحليل والأشكال (وهي جملة وافرة من صور وثائق بعض الوقفيات)، ثم خاتمة الكتاب وكشافاته.



البنعلي، راشد بن فاضل/ مجموعة الفضائل في فن النسب وتاريخ القبائل: قبيلة البنعلي سُليم والمعاضيد، تحقيق: حسن بن محمد بن علي بن عبدالله آل ثاني.. بيروت: بدر للنشر، ٢٠٠١م، ٢١٤ص.

يتناول هذا الكتاب تاريخ فترة زمنية تمتد من بدايات القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن العشرين، وهي فترة بزوغ الزعامات المحلية في الخليج العربي.

وقد خصص الكتاب أصلاً لتاريخ قبيلة البنعلي وعلاقتها بالقوى السياسية في كل من البحرين وقطر، كما أنه يتتبع هجرة هذه القبيلة وانتقالاتها والظروف التي دفعتها إلى الهجرة من البحرين وإليها.

قسم المؤلف كتابه سبعة مقاصد: الأول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والثاني في نسب بني سُليم، والثالث في تاريخ آل خليفة في كل من الزبارة والبحرين وعلاقة البنعلي بهم، وانتقالهم من الزبارة إلى البحرين ثم إلى قطر وجزيرة قيس والقطيف، والمقصد الرابع للحديث عن آل سعود، والخامس فصول من تأريخ قطر الحديث، والسادس للحديث عن آل الصباح، ثم المقصد السابع عن آل رشيد في حائل.

والكتاب في مجمله رد على بعض ما يتعلق بذكر البنعلي مما جاء في كتاب النبهاني «التحفة النبهانية في تاريخ البحرين».

ولد أباه، محمد المختار/ تاريخ القراءات في المشرق والمغرب.. الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة- إيسيسكو، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ٧٦٧ص.

يقدم هذا الكتاب متابعة تاريخية لانتقال القراءات من المشرق إلى المغرب، والتعريف بالقراء في هذا الجزء من العالم الإسلامي في مراحل تاريخية متعاقبة، وبما خلفوه من مصنفات ورسائل علمية أغنوا بها المكتبة القرآنية.



ويوضح المؤلف دواعي هذا التقسيم بين المشرق والمغرب في تأريخه للقراءات، مؤكداً أنه إنما أراد إبراز نشاط الأمصار المغربية والمشرقية في علم القراءات، من حيث ضبط الروايات وتصحيحها، وتعليلها، وكيفية أدائها نطقاً ورسماً؛ إذ لا توجد قراءة مشرقية أو قراءة مغربية، فالقرآن الكريم نصٌ واحدٌ محكمٌ لا اختلاف فيه.

مهد المؤلف للكتاب بحديث عن كيفية حفظ القرآن في عهد الوحي والتنزيل، ونشأة مدارس القراءات وتطورها، وضوابط هذا العلم، ثم انتقل إلى أبواب الكتاب، وهي ثمانية أبواب: خص الأول منها بالحديث عن عصر الأئمة والرواة، والثاني تحدث فيه عن عصر التدوين، والباب الثالث عن مدرسة القيروان وتأثيرها في الأندلس، ثم الباب الرابع عن المدرسة الأندلسية، والباب الخامس عن «عصر التثبيت والتكميل: أدبيات الشاطبية بين الأندلس والشرق»، والباب السادس عن «المدرسة المغربية»، والسابع عن «المدرسة الشنقيطية»، ثم الباب الثامن بعنوان «آراء العلماء الشناقطة في التجويد».

الحضرمي، أبو بكر بن محسن باعبود/ المقامات النظرية، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي.. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ٣١٧ص.

عرف الهنود هذه المقامات باسم «المقامات الهندية»، وعرفها أهل حضرموت في مخطوطتهم باسم

«المقامات النظرية»، والمرجح أنه الاسم الذي ارتضاه المؤلف الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر الهجري.

يضم الكتاب خمسين مقامة، أعطى كل واحدة منها اسم مدينة من مدن الهند - مغترب المؤلف - مثل: المقامة السُّورتية، والشمس أبادية، والكشميرية، والملتانية، والأحسن أبادية، وغير ذلك.

وقد وضع المؤلف مقاماته تسلية لنفسه وشحذاً لقريحته الأدبية، وإجابة لاقتراح بعض أصدقائه في الهند أن يكتب كتاباً في محاكاة المقامات القديمة في أسلوب سهل بسيط بحيث يُفهم دون الرجوع إلى المعاجم، وهي على أسلوب المقامات التقليدية؛ فبطله أبو الظفر الهندي، وراويته الناصر بن فتّاح الذي يقع ضحية لحيل البطل أبي الظفر.

أسد، محمود محمد/ أحزاني تعلن العصيان «شعر».. حلب: دار الثريا للنشر، ٢٠٠٠م، ١٠٤ص.

«إلى مواسم الحزن المتلاحقة علّها تصنع من حزننا ربيع فرحٍ وأعد وقادم على جناح الأملِ وفجر الخلاص.

إلى جدران بيتي وقد سُوِّرتْ بالهموم وكانت ملهمتي.

إلى والديَّ وهما يفترقان ليجتمعا في عالم آخر..».

بهذه الكلمات أهدى الشاعر ديوانه الذي ضم إحدى وثلاثين قصيدة (من الشعر الحر، وشعر التفعيلة).. ومن أغراضه الغزل والتأمل والاجتماعيات.

«ومات الشعرُ في أيدي
سلاطين الكلام..
فكانوا لعبةً،
بوقًا
وأنت العشقُ
في وضح النهار..
بدينار رهنًا موقفا
بعنا بيارقنا
وسيفَ عزيزنا
وكأننا بعنا خمارا..».

قصيدة «كلمات مصادرة» من قصائد الديوان.



عبدالقادر، موفق بن عبدالله/ علم الأثبات ومعاجم الشيوخ والمشيخات وفن كتابة التراجم.. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ، ٢٩٦ص (سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية).

يضيف هذا الكتاب لبنة جديدة في علم التاريخ والسير والحديث النبوي، وفي نشأة معاجم الشيوخ والمشيخات تحديداً، والمناهج المتبعة في تصنيفها، وعلاقتها بالعلوم الأخرى، وأثرها في تاريخ المسلمين، بالإضافة إلى نشاط محققي التراث المتزايد في إخراج معاجم الشيوخ والمشيخات والفهارس والبرامج والأثبات.

قدم المؤلف في الباب الأول تعريفات أساسية لألفاظ المعاجم والمشيخات والثبوت والفهارس والبرامج والمسانيد والتقييدات والأوائل (أوائل المصنَّفات) والمسلسلات والإجازات والمرويات والسماعات، وتناول فيه الرواية وأثرها في توثيق النص.

وفي الباب الثاني قدم نبذة تاريخية من نشأة معاجم الشيوخ والمشيخات، كما تناول المناهج والأساليب المتبعة في تصنيف تلك المعاجم، وتحدث عن أثر هذه المناهج في حركة التأليف في عدد من المصنفات التاريخية والجغرافية.

وفي الباب الثالث تناول كتابة التراجم والسير المفردة، وأثر معاجم الشيوخ والمشيخات فيها، كما

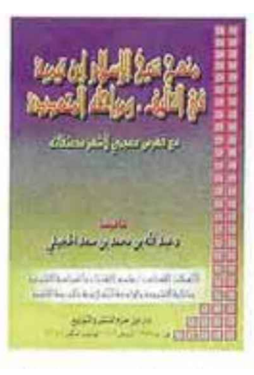
تناول عناية المحدثين بمعرفة أحوال الرواة، ونشوء علم الجرح والتعديل، ثم تحدث عن العناصر الرئيسة لصياغة التراجم، ثم انتقل إلى بيان أهمية معاجم الشيوخ والمشيخات وفائدتها.

وقد اكتنف عمل الباحث عدد من الصعوبات من أهمها: قلة ما كُتب بتوسع من بحوث ودراسات حول الموضوع، وبقاء عدد كبير من المعاجم والمشيخات مخطوطة وموزعة في مكتبات العالم، واتساع مجال البحث والدراسة في عدد من العلوم والفنون.

عبدالجابر، سعود/ النقد الأدبي القديم: أصوله وتطوره.. الجبيهة (الأردن): دار الحامد للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٩٣ص.

يتناول هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي وتطوره على امتداد الفترة الزمنية من العصر الجاهلي حتى أواخر العصر العباسي، والكتاب في الأصل محاضرات ألقاها المؤلف في قسم اللغة العربية في جامعة قطر، ثم في جامعة العلوم التطبيقية.

تابع المؤلف في فصوله الأربعة تاريخ النقد الأدبي وتطوره، فتناول في الفصل الأول بدايات نشأة النقد الأدبي التي جاءت مواكبةً لمنقوده الشعر، فتتبع في هذا الفصل أهم المظاهر والمؤثرات التي رافقت تلك النشأة. وخصص الفصل الثاني للحديث عن النقد الأدبي في عصر صدر الإسلام، وهو عصر بداية نضج النقد الأدبي، كما تناول موقف الإسلام من الشعر، والنقلة التي رافقت النقد والأدب على حدٍّ سواء. وفي الفصل الثالث تحدث عن النقد في عصر بني أمية، وهو عصر ازدهار النقد الأدبي، فتحدث عن المدارس النقدية التي ظهرت في هذا العصر في الحجاز والشام والعراق. وينتقل المؤلف في الفصل الرابع الذي شغل نصف الكتاب إلى الحديث عن النقد في العصر العباسي، فتحدث فيه عن أهم الموضوعات النقدية المثارة في هذا العصر، وهي: وضع الشعر وانتحاله، وموضوع القديم والحديث، وموضوع اللفظ والمعنى، والموازنة بين الشعراء.



الحجيلي، عبدالله بن محمد بن سعد/ منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف ومراحله المتعددة مع فهرس معجمي لأشهر مصنفاته.. الرياض: دار ابن حزم للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١١٨ص.

يأتي شيخ الإسلام ابن تيمية في طليعة علماء المسلمين المكثرين في التأليف، فقد ذكر الإمام الذهبي عنه أنه يكتب في اليوم والليلة نحو كراسين إلى أربعة كراريس، ويأتي هذا الكتاب - على ما ذكر المؤلف - نواة لكتاب موسع لحصر مؤلفات شيخ الإسلام.

قسم المؤلف الكتاب قسمين: الأول عن منهج الإمام ابن تيمية في التأليف، فتناول في هذا القسم كل ما له علاقة بطريقة ابن تيمية في التأليف، كبداية ظهور موهبة التأليف عنده، ثم حاول تحقيق عدد مؤلفات ابن تيمية، وتحدث عن طريقة الشيخ في التأليف والكتابة، والأماكن التي ألف فيها الشيخ كتبه، والمصاعب التي واجهته خلال مدة التصنيف، وغير ذلك من موضوعات.

وأما القسم الثاني فهو فهرس معجمي بأشهر مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية مع ذكر مصادر التوثيق لها من الكتب المترجمة لحياته.

الأكوع، إسماعيل بن علي/ الزيدية: نشأتها ومعتقداتها.- المؤلف، ط٣، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ١٢٦ص.

يأتي هذا الكتاب محاولة لسدّ فراغ كبير في باب الفرق والمذاهب، إذ لم تنل فرقة الزيدية عناية بالتأليف المستقل



بما تستحق إلا بكتاب منسوب للصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ)، وببعض الجهود المتفرقة لبعض المستشرقين، أمثال الأستاذ رودلف شتروتمان (ت١٩٦٠م) وبعض المؤلفين العرب المعاصرين، أمثال د. أحمد محمود صبحي وغيرهم.

استفتح المؤلف الكتاب بحديث عن نشأة هذه الفرقة والتعريف بها، ثم ثنّى بحديث عن أشهر الفرق الزيدية كالجارودية والبترية.

وزود المؤلف الكتاب بعدد جيد من مراسلات قضاة الزيدية وأمرائها، وبقصيدة إسحاق بن يوسف المسماة «عقود التشكيك» التي يستفسر فيها عن صاحب مذهب الزيدية، وألحقها ببعض الأجوبة المنظومة.

ثم تلا ذلك تناول سريع لعدد من الموضوعات الداخلة في الحديث عن فرقة الزيدية، مثل: مسألة حصر الإمامة في أبناء البطنين (الحسن والحسين)، وزيدية اليمن ومدى صلتهم بزيدية الإمام زيد بن علي.. وغير ذلك.



ابن النفيس، علاء الدين علي بن أبي الحزم/ الشامل في الصناعة الطبية (الأدوية والأغذية)، تحقيق: يوسف زيدان.. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٣مج، ٨٠٩ص.

يُعد هذا الكتاب من أكبر الموسوعات العلمية في التاريخ الإنساني، ويتخذ مكانة مرموقة بين أهم موسوعات العرب الطبية وهي: الحاوي للرازي، والقانون لابن سينا، ويأتي الشامل ثالثها قيمة.

وتمثل هذه الأجزاء الثلاثة الأولى التي نشرها المحقق حتى الآن بداية نشر النصف الأول من الكتاب، وهي الأربعون جزءاً الأولى منه التي تم العثور عليها خطية، ويستغرق نشرها عامين كاملين، وتضم هذه الأجزاء الثلاثة كامل كتاب الهمزة من كتاب «الأدوية والأغذية».

قطع محقق الكتاب د. يوسف زيدان رحلة شاقة في جمع مخطوطات الكتاب طالت عشر سنوات، فاجتمع له من نسخ الكتاب الخطية ما يقارب عشرة آلاف صفحة، وقد زود المحقق معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بالنسخة الميكروفيلمية لجميع المخطوطات التي اجتمعت لديه؛ ليتولى باحث آخر إكمال العمل في تحقيق الكتاب في حالة عدم قدرة المحقق على المضي في تحقيقه حتى النهاية.

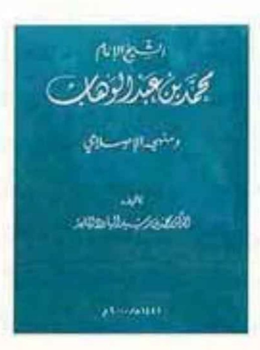
الرامهرزي، بزرك بن شهريار/ عجائب الهند برّها وبحرها وجزائرها، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي.. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢١٥ص.

كان المستشرق ب. فان درليت أول من حقق هذا التراث القصصي سنة ١٨٨٣- ١٨٨٦م، فنشره نشرة علمية معتمداً على أقدم مخطوطات الكتاب المعروفة، وهي من محفوظات مكتبة أيا صوفيا بإستنبول، ثم نُشر الكتاب بعد في طبعات عربية كثيرة متلاحقة جميعها اعتمد على نشرة درليت.

وصف د. حسين فوزي «عجائب الهند» بقوله: «لقد طالعت أكثر ما جاء في الأدب العربي الرسمي عن البحار، فلم أجد فيه ما يداني، ولو من بعيد، ما جاء في كتاب «عجائب الهند» صدقاً في الوصف وقوة في الإيحاء بالجو البحري.

وهو خليط من المبالغات والصدق والوصف البليغ، تترادف حكاياته في شيء من التنظيم أحياناً، وفي غير تنسيق أحياناً أخرى.. ولا يتمالك القارئ إلا أن يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته، والقوة والحركة تسريان في أعطافه».

الماجد، محمد بن رشيد البارود/ الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ومنهجه الإصلاحي.- الرياض: المؤلف، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ١٨٥ص.



يلقي الكتاب الضوء على حياة الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب وأسرته، والبيئة التي عاش فيها، كما يتناول بتركيز الجانب الإصلاحي في حياة الإمام.

ويتكون الكتاب من فصلين وخاتمة، فتحدث في الفصل الأول عن «عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب» متناولاً أسرته ومولده ونشأته وتلقيه التعليم ورحلاته العلمية إلى حريملاء والعيينة، ثم انتقل إلى الحديث عن دعوة الشيخ والسلطة.

والفصل الثاني بعنوان «حقيقة الدعوة وانتشارها» تناول فيه أسس الدعوة، وصلتها بالمذهب الحنبلي، وتأثرها بمنهج ابن تيمية، ثم انتقل بالحديث إلى علاقة الدعوة وتأثيراتها في الحركات الإصلاحية التي زامنت قيام الدعوة. ثم ختم الكتاب بالخاتمة، والفهارس العامة.

العظم، عابدة المؤيد/ سُنّة التفاضل وما فضل الله به النساء على الرجال.- بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢٩٤ص.

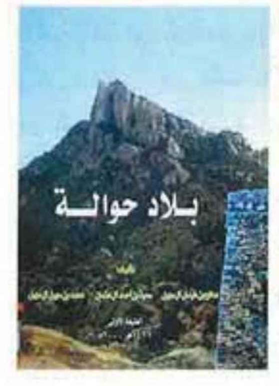
ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن. **النساء**: ٣٢. دار هذا الكتاب حول تفسير هذه الآية الكريمة، فالرجال يفضلون النساء بأشياء، والنساء يفضلن الرجال بأشياء أخرى.

قسمت المؤلفة كتابها أربعة فصول: الأول عن «أسباب تمني بعض النساء الذكورة»، وهي أربعة أسباب أولها: فهم بعض النساء الخاطئ لنصوص الشرع مثل قوله تعالى: *وليس الذكر كالأنثى*. **آل عمران**: ٣٦. وقوله: *وللرجال عليهن درجة*. **البقرة**:٢٢٨.، وثانيها: القوامة، وثالثها: حرمان المرأة من مكاسب دنيوية متنوعة خُصَّ بها الرجل في الميراث والشهادة وغير ذلك، ورابعها: تمني أجر الرجال من جراء ما يقومون به من الأعمال مثل حضور الجُمع والجهاد.

وفي الفصل الثاني الذي جعلته المؤلفة مقابلاً للفصل الأول بعنوان «ما اكتسبته النساء» تحدثت فيه عن الأعمال التي تفردت بأجرها المرأة كالحجاب وثواب الحمل والولادة والإرضاع والتربية.

وختمت المؤلفة الكتاب بالفصلين الثالث: «كيف تفضُل المرأة الرجل؟»، والرابع: «اقتراحات لحلّ قضية المرأة».

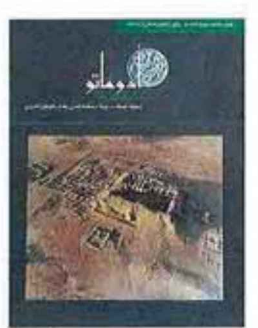
آل سهيل، صالح بن عيدان (وآخرون)/ بلاد حوالة.- الرياض: المؤلف، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢٥٦ص.



يُعرِّف الكتاب بموقع قبيلة حوالة التابعة لمنطقة الباحة في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية، وعاداتها، وتقاليدها.

قدَّم المؤلفون للكتاب بنبذة تاريخية تحدثوا فيها عن أهم حصون المنطقة وقلاعها وقراها وأسواقها، ثم ثنى المؤلفون بتقديم نبذة من جغرافية المنطقة، تلاه الحديث عن الأشجار والنباتات والحياة الفطرية في المنطقة، ثم تناولوا الحياة الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية، وتحدثوا بعد ذلك عن الموروثات الشعبية، ثم عن ملامح تطور المنطقة.

وقد زود المؤلفون الكتاب بالخرائط والصور الفوتوغرافية.



أدوماتو (ع٣، شوال ١٤٢١هـ/يناير، كانون الثاني ٢٠٠١م)

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بآثار الوطن العربي تصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية.

حفل هذا العدد من المجلة بعدد كبير من البحوث والمقالات باللغتين العربية والإنجليزية، تناول فيها الباحثون الآثار العربية وقضاياها، بدأها د. يوسف مختار الأمين بموضوع عنوانه «دراسات ما قبل التاريخ في وادي النيل (السودان ومصر): ملاحظة حول المنهج والنظرية»، ثم قدم د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري موضوعاً بعنوان «نحو تأصيل التراث الحضاري للجزيرة العربية»، وقدّم د. حميد بن إبراهيم المزروع «دراسة لمشغولات فنية من موقع الأخدود بنجران»، وختم البحوث العربية د. فرج الله أحمد يوسف بموضوع عنوانه «درهمان من مسكوكات الدعوة العباسية».

وجاء في القسم الإنجليزي عدد من المقالات الأثرية بدأها د. سورين بلاو بموضوع عنوانه « فتية وحيدة: مناقشة لهيكل متكامل يعود للألف الثالث قبل الميلاد، في موقع تل أبرق بالإمارات العربية المتحدة»، وتناول د. علي الماحي «النعامة في الفن الصخري بعمان»، وغير ذلك من الموضوعات، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة: مؤتمرات وندوات علمية، وعرض كتب.

استعان الباحثون بعدد من الأشكال والصور والخرائط لتوثيق أعمالهم.

العنوان: ص.ب: ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٠٣٦٧٨٠/٤٠٣٤٧٥١ - ناسوخ: ٤٠٢٢٥٤٥

عالم الفكر (مج٢٩، ع٤، أبريل - يونيو ٢٠٠١م)

مجلة فكرية محكّمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.

صدر هذا العدد وبين دفتيه كثير من البحوث والدراسات في مجالات الفكر المختلفة. ففي باب الفكر التاريخي كتب د. أحمد محمود بدر عن «تفسير التاريخ»، وتناول د. محمود إسماعيل «إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل»، وعدّد د. عبدالكريم رافق «الاتجاهات السائدة في كتابة التاريخ»، واستعرض د. عبدالمالك التميمي «الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة»، وتطرقت د. عطيات أبو السعود إلى «الوعي التاريخي بين الماضي والمستقبل»، وسلّط د. مسعود ضاهر «أضواء على الكتابات التاريخية اليابانية عن العرب»، واستعرض د. عادل زيتون تاريخ «آل بختيشوع النساطرة في البلاط العباسي»، واختتم د. منصور أحمد بوخمسين بحوث هذا الباب بعرض لكتاب «الهويات المتعددة للشرق الأوسط» للكاتب برنارد لويس.

وفي باب آفاق نقدية كتب د. محمد هليل عن «ليونارد بي - مير: مقاربة جديدة لمفهوم النقد الموسيقي»، وتناول الأستاذ رشيد الحاج صالح «التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتجنشتين»، وختمت بحوث الدورية ببحث عن «الأسطورة الإغريقية والمسرح» للدكتور يونس وليدي.

العنوان: ص.ب: ٢٨٦١٣ - الصفاة - الرمز البريدي ١٣١٤٧
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت.

عالم الكتب (مج٢٢، ع٥ - ٦، الربيعان ١٤٢٢هـ/يونيو - يوليو ٢٠٠١م، الجماديان ١٤٢٢هـ/أغسطس - سبتمبر ٢٠٠١م).

مجلة محكّمة متخصصة في الكتاب وقضاياه.

صدر هذا العدد المزدوج من المجلة محتوياً على كثير من البحوث والدراسات المتعلقة بالمكتبات والمعلومات والببليوجرافيات والكتاب وقضاياه، وجاءت تحت عدة أبواب، ففي باب الدراسات كتب سليمان بن إبراهيم العايد عن «التحصيل العلمي بين المتن والحاشية»، وتناول صالح بن محمد الزهراني «معالم التأليف البلاغي والنقدي في القرن الرابع الهجري»، وتعرض محمد بن صالح الخليفي لـ «تأثير الإنترنت في المجتمع: دراسة ميدانية»، وختم البحوث عبدالرحمن بن عبدالله الجمهور بتحديد «فاعلية الحاسوب في تدريس اللغة الإنجليزية لطلاب الصف الأول الثانوي».

وجـاء في باب المراجـعـات كـتـاب «إتمام الأعـلام (ذيل لكتـاب الأعلام لخـير الدين الزركلي)» لنـزار أباظة ومحمـد رياض المالح، راجـعه أحـمد العـلاونة، وكـتـاب «بنيـة النص السـردي من منظور النقد الأدبي» لحميد لحمداني، راجـعه عبده يونس عبود، وغير ذلك من الكتب المراجعة.

وفي باب مناقشات وتعليقات تناول أحمد عبدالحليم عطية ما كتبه أمين سليمان سـيدو عن «أبوالوليد بن رشد مصنفاته وما كتب عنه باللغة العـربية» والذي جـاء في مجلة عالم الكتب في العدد المزدوج الرابع والخامـس من المجلد الحادي والعشـرين، وعلق محـمد أحـمد الدالي على مـوضوع عبـدالفتاح الـسيد سليم بعنـوان «الخاطريات، لأبي الفتح عثمان بن جني، (مسـائل منسية)» والذي جاء في مجلة عالم الكتب في المجلد ١٤، العدد ٦ نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٣م.

بالإضـافـة الـى الأبواب الـثـابتـة: «دوريات صـــدرت حـديثًـا»، و«كتب صدرت حديثًا».

العنوان: ٢٩٧٩٩ الرياض ١١٤٦٧

تلفون: ٤٧٦٥٤٢٢ ـ ناسوخ: ٤٧٦٣٤٣٨

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية (ع٢٠، شوال ١٤٢١هـ/يناير٢٠٠١م)

مـجلة إسـلاميـة، فكرية، مـحكّمـة، نصـف سنويـة، تصـــدر عن كليـــة الدراسات الإسلامية بدبي.

احـتـوى هذا العـدد مـن الدورية على اثني عشر بحثًا، عالجت موضوعات شتى: قرآنية، وحديثية، وفكرية، وتاريخيـة، ونحوية، وأدبيـة بدأها نبيل حامـد خضـر بموضوع عنوانه «الخـيرية في النصـوص القرآنـية»، وعـقد د. أحـمد حـسن فرحـات «موازنة بين كـتاب (الناسخ والمنسوخ في الـقرآن الكريم) لأبي بكر بن العربي، وكـتـاب (الإيضـاح لناسخ القرآن ومنسـوخـه) لمكي بن أبي طالب القـيسي»، وألقى د. عـبدالحكيم الأنيس «نظـرات فاحصـة في (رسالة في تفسير قوله تعالى: إن إبراهيم كان أمة. المنسوبة إلى الإمام ابن طولون)»، وغير ذلك من الموضوعات.

واحتوت الدورية كذلك على مخطوطة قيـمة نفيسة، تنشر أول مرة، وهي موسومة بـ «مسائل أبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن شيوخه في مسائل الجرح والتعديل»، للمحدث الحجة أبي جعفر محمد بن عثمان بن أبـي شيبة المتوفى سنة ٢٩٧هـ تحقيق ودراسة د. عامر حسن صبـري وغير ذلك من البحوث والدراسـات، وختمت الدورية بـ «كشاف بعناوين البحـوث وأسماء مؤلفيهـا من العدد الأول حتى العدد العشرين»، أعدّه د. عطية أحمد محمد الوهيبي.

العنوان: ص.ب: ٣٤٤١٤

دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة

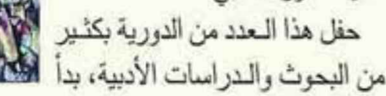
هاتف : ٣٩٦١٧٧٧ ـ ناسوخ: ٣٩٦١٢٨٠



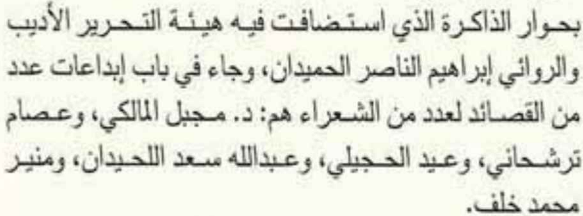
الآطام (ع٩، ذو الحجة ١٤٢١هـ/فبراير ـ مارس ٢٠٠١م)

إصـــــدارة دورية تـعنـى بالإبـداع والدراسـات الأدبيـة، تصـدر عن نادي المدينة المنورة الأدبي.

حفل هذا الـعدد من الدورية بكثـير من البحوث والـدراسات الأدبية، بدأ



بحـوار الذاكـرة الذي اسـتـضافت فيـه هيـئـة التـحـرير الأديب والروائي إبراهيم الناصر الحميدان، وجاء في باب إبداعات عدد من القصـائد لعدد من الشـعراء هم: د. مـجبل المالكي، وعـصام ترشـحاني، وعـيد الحـجيلي، وعـبدالله سـعد اللحـيدان، ومنيـر محمد خلف.



وفي باب دراســات: تناول د. عـبـدالله أبوهيف «نقـد المورث السـردي المتـأثر بالاتجـاهات الجديدة»، وشـرح البـشـير بـن عمر «موضـوعات الأدب ووظائفه لدى بعض النقـاد العرب في النصف الأول من القرن العشرين»، وكتب د. جبار عباس اللامي موضوعاً بعنوان «في اليوتوبيا العربية».

وجاء في باب إبداعات عـدد من القصص القصيـرة للقصاصين: فـاضل عمـران، وأحمـد القاضـي، والبراق أحـمد الحـازمي، وآمنة عـسيـري، وجاء في باب مـتابعـات قـراءة في كتـاب «الكتابة ضد الكتابة» لمحمد الدبيسي، وقراءة في مجموعة «رأس المسافر» لعماد الحسن، وختمت الدورية بقصيدة «لوحة شعرية من المدينة المنورة» للشاعر حسان بن ثابت.

العنوان: المدينة المنورة ص.ب ٧٥٠

هاتف: ٨٤٧١٩٠٥ ـ ناسوخ: ٨٤٧٤٩١٣

ماء الشعر

مصطفى رجب
سوهاج - مصر

إن أداء الشاعر للمعاني التي يسعى إلى إبرازها في صورة مشبعة بالإيحاء، هو الغاية النهائية للشعر سواء أكان موضوع الشعر ذاتياً أم اجتماعياً، واضحاً أم غامضاً، ومن هنا تبرز أهمية التوقف أمام مسألة (الصياغة) لنسأل أنفسنا، كيف يصوغ الشاعر ألفاظه ومعانيه؟.

إن الشاعر إذا أسرف في استعمال الكلمات الشعرية الخلابة المفعمة بالإيحاء تحول شعره إلى طلاسم مغلقة تخنق أفكاره خنقاً، ولذلك يجب أن يكون الشاعر عند صياغته للشعر - كما يقول د. شوقي ضيف - كالكيميائي الذي يحسن مزج العناصر بعضها ببعض ليصل إلى تجربة يقرها المعلم، فلا يزيد عنصراً زيادة من شأنها أن تخلخل التجربة أو تحيلها غثاء.

حقاً إن استخدام الكلمة الموحية أحد أركان الصياغة الشعرية، ولكن ينبغي الحذر من الولع بتراكم تلك الكلمات حتى لا يستغلق فهم الصورة الشعرية، كما لا ينبغي الجري وراء التراكب الاستعاري اللاهب للسبب نفسه.

والمأخذ الرئيس على المدرسة السريالية يأتي من جانب الصياغة الشعرية عندهم، فالسيرياليون أو الحداثيون - بعضهم وليس الجميع - تكتظ قصائدهم بالفوضى اللغوية، لا على مستوى البناء القاعدي فحسب، بل على مستوى التجنيح المعنوي أيضاً، فتسيطر على سطورهم الشعرية، عوالم التناقض والفوضى والتداخلات المجازية الاستعارية غير المنتهية، ومن ثم فقد عانى نقادنا العرب صعوبة التفرقة بين الرمزية والسريالية، إذ إن الرمزية ذات أسس فنية واضحة إلى حد ما. فهي تشير ولا تمس، وتشي ولا تفضح، وتوحي ولا تكشف، بخلاف الكلاسيكية وبخلاف السريالية التي يتميع عندها حتى الهدف من العمل الفني ذاته.

ويخطئ من يظن أن مسألة الصياغة الشعرية قضية حديثة عبرت إلينا البحر من أوربا مع موجات التغريب والغزو، فالمتأمل لتراثنا القديم يجد صدى لمسألة الصياغة الشعرية كما في قول الشاعر عدي بن الرقاع العاملي:

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمعُ شملَها
حتى أقوِّمَ ميلَها وسنادَها
نظرَ المثقِّفِ في كعوبِ قناتِه
كيما يُقيمَ ثِقافُهُ منآدَها(١)

وعندما يقول أبوتمام في قصيدة فتح عمورية:

لقد تركتَ - أميرَ المؤمنين - بها
للنار يوماً ذليلَ الصخرِ والخشبِ

فإنه يرتكب أخطر عملية عدوان على المنطق البلاغي السائد إذ ذاك بين جمهرة الشعراء والنقاد في عصره. فتصوير الذل وإلباسه للصخر والخشب لم يكن مما يستساغ لدى قدامى نقادنا، اللهم إلا فئة مستنيرة مثل عبد القاهر الجرجاني، ومن سار على نهجه ممن فتحوا الباب أمام الشعراء لتحقيق تلاحم بينهم وبين اللغة الجامدة، وشجعوهم على تحطيم البناء الشعري الموروث.

فالصياغة الشعرية في بدايتها تفجير لطاقات اللغة الحبلى بالدلالات، ولكن بشرط عدم التراكم الصوري الاستعاري الذي يحول العمل إلى طلاسم.

وإذا أردنا أن نتلمس تطبيقاً لذلك فسنجد قصيدة «الزهور» لأمل دنقل نموذجاً فذاً للتجربة الذاتية عندما يحولها الشاعر بالصياغة الشعرية المحكمة - في لغة شفافة تجسد مشاعره تجسيداً حياً ينبض بعنف اللحظة، ومرارة الحس، واحتدام الأحاسيس بداخله - إلى كائن حي.

يقول أمل في هذه القصيدة التي كتبها على سرير المرض قبيل وفاته:

وسلال من الورود
ألمحها بين إغفاءة وإفاقهْ
وعلى كل باقهْ
اسمُ حاملها في بطاقهْ
تتحدث لي الزهراتُ الجميلة
أنْ أعينها اتسعتْ - دهشة -
لحظة القطف
لحظة القصف
لحظة إعدامها في الخميلة
تتحدث لي
أنها سقطت من على عرشها في البساتين
ثم أفاقت على عرضها في زجاج الدكاكين
أو بين أيدي المنادين
حين اشترتها اليد المتفضلة العابرهْ



تتحدث لي
كيف جاءت
(وأحزانُها الملكيةُ ترفع أعناقها الخضر)
كي تتمنى لي العمرَ
وهي تجود بأنفاسها الآخرة!!
كل باقةْ
بين إغماءة وإفاقةْ
تتنفس ـ مثلي ـ بالكاد.. ثانيةً.. ثانيةْ
وعلى صدرها حملت ـ راضيةْ ـ
اسم قاتلها في بطاقةْ!!

لقد كان أمل دنقل حين كتب هذه القصيدة يرقد محاصراً بمرض السرطان على سرير يعلم أنه لن يغادره إلا إلى القبر، لذلك جاء تعبيره عن الحالة النفسية للزهور التي تهدى إليه، يعكس ـ بصورة رائعة ـ أزمته هو مع الموت. فعين الزهور تتسع لحظة قطفها، وكأنه يخشى أن تسرع إليه لحظة القطاف، وتلك الزهور تدعو للشاعر بطول العمر وهي تجود بآخر أنفاسها، وهو يلمح تلك الدعوات في احتضاره هو نفسه ما بين لحظة إغماء، ولحظة إفاقة.

إن التوحد بين الشاعر وتجربته كما رأينا في هذه القصيدة هو الذي يكتب الحياة لقصيدة ما، أو شاعر ما، ولاسيما إذا استطاع الشاعر التحكم في الصياغة الشعرية فلا يسرف في التكثيف الصوري، ولا يغرق في اللهاث وراء سحر جرس الموسيقى الصاخبة، وفرقعة المحسنات اللفظية الخلابة.

وقد عبر القدماء عن هذا المعنى تعبيراً رشيقاً شاع في مؤلفاتهم، وهو تعبير «ماء الشعر»، فالقصيدة المنظومة ذات الأحاسيس الميتة، يقولون عنها: إنها تخلو من ماء الشعر، ولأن الماء ـ كما عبر القرآن ـ هو أساس كل شيء حي، فإن دقة التعبير القديم تثير دهشتنا، وبخاصة عندما نجد شاعراً مثل عبدالله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة يهجو ابن عمه مروان بن سعيد، فيقول له: إن شعره لا ماء فيه:

لقد تأملتَ أن تأتي بقافيةٍ ... تكونُ مني بها ـ أو من أخي ـ خَلَفا
إذا لأعلمتُ نفسي في روايتها ... وحملها لك، واستودعتُها الصُّحُفا
لكنْ شعرك لا صفوٌ ولا كدرٌ ... فأنت تجمع سوءَ الكيلِ والحشفا
فاجعل لشعرك ماءً إنه نفدتْ ... عنه المياهُ فقد أنفدْتَه قشفا
أقمتَ حولاً علي بيتٍ تقوِّمُه ... فلم تُصب وسطاً منه ولا طرفا

الهوامش

١. المثقف بكسر القاف المشددة الذي يصلح عود الشجر ليكون مستقيم الهيئة. والثقاف ـ في الشطر الثاني ـ بكسر الثاء المشددة ـ هو المصدر بمعنى: تقويم العود. ومنآد: مائل أو منحن، وتعبير (أجمع شملها) يعني بكل دقة ما نعبر عنه هنا بالصياغة الشعرية.

